

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المطر في السّعر الجاهلي

تأليف
الدكتور أنور أبو سوييم

رئيس دائرة العلوم الإنسانية سابقاً
جامعة مؤتة

دار الجيّل
بيروت

دار عمار
عمّان

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المطرب في السّعر الجاهلي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.



عمان - قرب الجامع الحسيني

ص.ب ٩٢١٦٩١. هاتف: ٦٥٢٤٣٧

المطرب في الاستعراب الجاهلي

تأليف
الدكتور أنور أبو سويلم

رئيس دائرة العلوم الإنسانية سابقاً
جامعة مؤتة

دار الجليل
بيروت

دار عمار
عمّان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

نظر بعض الدارسين إلى موضوعات الشعر نظرة تجزيئية، تجعل من الشعر الجاهلي وحدات منفصلة غير متصلة؛ فقالوا بوصف الناقة، ووصف الفرس، والفخر، والهجاء، والحماسة، والرثاء..

تحس من خلال ذلك أن الشاعر الجاهلي مختل التفكير ضعيف الربط، جزئي النظرة، لا ينظر إلى الكون بشمولية ولا يحس الحياة بوحدة وتكامل؛ لأنه بدوي بسيط ينظر إلى الحياة بانفصام تام، والطبيعة أمامه وحدات منفصلة فيها الجبل والكثيب والمرعى والحيوان والسماء، ومن ثم لم يتعمق أسرار الوجود، وليس لديه من قوى الربط ما يستطيع بها أن ينظر إلى الكون بشمولية وكلية.

وعندما ينظرون إلى وصف المطر يشيرون إلى قصائد مشهورة لأوس بن حجر ولامرئ القيس ولخفاف بن ندبة.. وغيرهم، جاء فيها ذكر المطر مباشراً، ولم يلحظوا أن الشاعر الجاهلي كان يرى في الماء معاني الحياة المختلفة، وأن هذه المعاني جاءت في شعره كله ما عدا شعر المطر المباشر، وأنه كان أدق بصيرة وأنفذ فكراً، وأرقى تصوراً مما كانوا يتوهمونه في البدوي الجاهل.

ومن هذه الزاوية دلفت إلى المطر في الشعر الجاهلي، وهي زاوية تبدو خارجية تشبه الزاوية التي يعتمدها المصور في لوحاته، لكنها تكشف في النهاية عن تصور الجاهليين لفكرة المطر، وهو تصور، كما سيرهن هذا البحث يدل على أن الشاعر الجاهلي قد استوعب جزئيات الوجود المتناثرة، واستخلص منها معاني

كلية، وأفكاراً موحدة تصهرها وتجعلها كيئاً موحداً منسّقا، وأن وعي الشاعر الجاهلي بالوجود لم يكن وعياً ضيقاً محدوداً، بل كان وعياً شاملاً متكاملًا غير محدود.

ورأيت أن الشعراء الجاهليين كانوا يصدرون في تصورهم للمطر، عن فكرٍ متحد ورؤية متّحدة وصور متشابهة إلى حدٍّ بعيد، ووحدة الصُّور تنبع في أساسها من وحدة التصوُّر، ووحدة التراث، ووحدة المعتقد. ومن هذه الزاوية حاولت ربط الشعر الجاهلي بالمعتقد الجاهلي الذي كان سداًه ولُحمته الأساطير. حقاً إنّ المرحلة التاريخية التي عاشها الجاهليون قبل الإسلام بقرن ونصف أو يزيد هي مرحلة واعية بعيدة عن التفكير الأسطوري المباشر، وملتصقة إلتصاقاً قوياً برؤية الأسباب ونتائج هذه الأسباب، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يستوعبوا الفكر الإسلامي بعقلانيته المضئئة، وإنْ صدق هذا على النثر فلا يمكن أن يصدق على الشعر؛ لأنّ الشعر عميق الجذور يرتدّ إلى أعماق الإنسانية في تراثها وتقاليدها وأساطيرها، والشعر الجاهلي لم يكن كلّه نابعاً من الوعي المباشر للإنسان الجاهلي، لأنّه تراث موعّل في القِدم، يرتدّ إلى رواسب مظلمة في أعماق الإنسان، والممارسات الأسطورية، والتفكير الشعري بمنطق أسطوري بقي تراثاً حياً في ضمير الأمة، وقد نجد رواسب من ذلك التفكير الأسطوري في الشعر الإسلامي في عصوره المتتابعة، وإنْ كان يصدر - غالباً - عن قيمٍ بلاغية أكثر من صدوره عن قيم أسطورية.

ومن هنا استقبلتُ شخصية الشعر الجاهلي دون تلعثم أو اضطراب لأنني أحسُّ قوةً ميتافيزيقية تسيطر على هذا الشعر وتتحكم في صياغة عباراته، وأومن أنّ الشعراء الجاهليين - جميعاً - ينهلون من نبع ذلك التراث المجهول المليء بالسحر والخرافة والأساطير.

وقد أفدت إفادةً عظيمة من دراسات رشيدة للمطر، ولولاها لم أستطع أن أكوّن

هذا التصوّر للمطر في الشعر الجاهلي ، كدراسة الدكتور سيد نوفل عن (الطبيعة في الشعر العربي) ، ودراسة الدكتور نوري حمودي القيسي عن (الطبيعة في الشعر الجاهلي) ، ودراسة الدكتور إبراهيم عبد الرحمن عن (الشعر الجاهلي ، قضاياها الفنية والموضوعية) ودراسة الدكتور أحمد كمال زكي عن التشكيل الخرافي في شعرنا القديم ضمن كتابه (دراسات في النقد الأدبي) وعن (التفسير الأسطوري للشعر القديم) مقالة في مجلة فصول ، ابريل ١٩٨١م ودراسة الدكتور علي البطل عن (الصورة الفنية في الشعر حتى آخر القرن الثاني الهجري) ودراسة الدكتور نصرت عبد الرحمن (الصورة الفنية في الشعر الجاهلي) و«الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي الجاهلي» وبحثين ممتازين له نشرهما في مجلة دراسات بعنوان «المطر، مواضع وروده في جانب من الشعر الجاهلي» و«سيدة المطر في شعر أبي ذؤيب الهذلي» ودراسة الدكتور مصطفى ناصف (قراءة ثانية لشعرنا القديم).

وبعد . .

فلا أقول عن هذا البحث إلا أنه محاولة جديدة تكمل المحاولات السابقة لها ، فإن كنت قد أصبت فهذا أمني وإلا فحسبي نصيب المجتهد .

الدكتور أنور أبو سويلم

مؤتة في ١/١٢/١٩٨٦

الفصل الأول

المطر في الشعر الجاهلي *

- أهميته - المطر في القرآن الكريم - المطر والجذب

- الهجرة والشتاء الجديب - الدلالة اللغوية - استطلاع المطر

- طقوس الاستمطار - صورة المطر في الفكر الجاهلي

نظر الشعراء الجاهليون إلى المطر المنثور من عالم الغيب بإكبار وتقديس،
 فرأوا فيه مادة الحياة التي خُلِقَ منها كُلُّ شيء، وأغرموا بمراقبته وملاحظته، فسهروا
 الليل وأرقوا، وشعروا بقدرته على إحياء الميت: فَقَدَّسُوهُ وَعَبَدُوهُ^(١)، ورأوا فيه سرّاً
 خفياً، وقوّة عظمى قادرة على قَهْر الجَدْب والمحل، وبعث الخِصْب والرِّزْق،
 تتلقّاه الحناجر العطشى بِشَعْفٍ وَحَبٍّ، والصحراء العارية تستغيث به ليدفع عنها
 قَحْلها وَعُقْمها، فتَهْتَرُ نشوّةً، وتسقبه كِبْكُرُ عُرُوبٍ أَحَبَّتْ بعْلها فاحتضنته. منه
 حياتهم وحياة نَعْمهم، به يخصّبون ويشرون، فتنتج نوقهم وشاؤهم، وتَسْمَنُ وتتناسل
 وتتكاثر، تَعْمهم النُّعْمى، وإذا ما انحس المطر آبَتُوا بالجوع والمرَض والنَّهْب
 والفتن والموت.

وقد تتبّع الشعراء في الجاهلية نزول المطر تَتَبُعاً غريباً فراقبوه ووصفوا بَرَقَه
 اللامع، ورعده القاصف وسُجْبِه الحافلة، ورياحه المُتَنَاحِة، ورسوموا صوراً رائعةً
 لمناظره وهو ينثال كاللؤلؤ من قُبّة السماء الخيِّرة إلى قيعان الصحراء الطَّمْأى،
 وأشاروا إلى السّيول والغدران والآبار، وما يُحْدِثُه من انقلابٍ في الحياة العادية
 فالحيوانات تَفِرُّ مذعورةً، والضفادع تَبِقُّ نشوّةً، والطّيور صُبِحْنَ سُلَافاً من رحيقٍ
 مُفْلَقَلٍ، والتلال العالية تُعَمَّمُ بالزَّهر والنبات، والأغوار تَطْفَحُ بسيول جارفة. . إلى
 غير ذلك من التفاصيل الدقيقة والمناظر المتنوّعة، واللّوحات الزاهية.

(١) الأزدى، الإمام أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد (٢٢٣ - ٣٢١هـ)، وصف المطر والسحاب
 وما نعتته العرب الرواد من البقاع، حققه: عز الدين التنوخي، طبعة دمشق، ١٩٦٣،
 ص ٣٧.

(١) أهمية المطر

وقد تنبّه اللّغويون والأدباء إلى أهمية المطر في الشعر العربي القديم ، فخصّوه بصُحُف كثيرة تُعنى بشرح ألفاظه، وتفسير معانيه، وتبيان أحواله، وأسمائه، وصفاته، وأشكاله، وما يتبعه من سَحَابٍ وثَلْجٍ وبردٍ وريحٍ ورعدٍ وبرقٍ وكسوفٍ وأنواء، وخصّوا الأنواء^(٢) بنصيب كبير من كتب المطر، عَصَفَتْ يَدُ الزمان بأكثرها ولم يبق منها إلّا القليل وإلّا أسماء مجرّدة تكشف عن علم ضاع واندثر:

— كتاب الأنواء للدهني ، معاوية بن عمّار العبدي (ت ١٤٥هـ)^(٣).

— كتاب الأنواء لابن عمّار، إسماعيل بن عمار بن عيينة الأسدي (نحو ١٥٧هـ)^(٤).

— كتاب الأنواء لأبي عبد الله، القاسم بن معن بن عبد الرحمن المسعودي الكوفي (ت ١٧٥هـ)^(٥).

(٢) معنى النوء: أن يسقط النجم منها في المغرب بالغداة، وقد بقي من الليل غبش يسير، ويطلع آخر يقابله تلك الساعة من المشرق، والذي ناء منها في الحقيقة هو الطالع، لأن النوء في اللغة: النهوض، ولكن العرب قلبت ذلك فجعلت النوء للساقط منها لا للطالع، فإذا قالوا: ناء نجم كذا: فمعناه سقط بالغداة.

انظر: ابن الأجدابي، أبو إسحاق (ت ٦٥٠هـ)، الأزمنة والأنواء، تحقيق: د. عزة حسن، دار سمير، دمشق، ١٩٦٤م، ص ١٣٤.

(٣) ابن النديم، أبو الفرج، محمد بن إسحاق بن يعقوب (ت ٣٨٥هـ)، الفهرست، دانشگاه، طهران، (دون تاريخ)، ص ٨٨.

(٤) الفهرست، ص ٨٨.

(٥) الفهرست، ص ٦٩.

- كتاب الأنواء لأبي فيد، مؤرج بن عمرو السدوسي (ت ١٩٨هـ) (٦).
- كتاب الأنواء للنضر بن شميل اللغوي المحدث (ت ٢٠٣هـ) (٧).
- كتاب الأنواء لقطرب، محمد بن المستنير (ت ٢٠٦هـ) (٨).
- كتاب الأنواء لابن كناسة، أبو يحيى عبد الله بن يحيى (ت ٢٠٧هـ) (٩).
- كتاب المطر لأبي زيد الأنصاري، سعيد بن أوس (ت ٢١٥هـ) (١٠).
- كتاب الأنواء للأصمعي، أبي سعيد عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦هـ) (١١).
- كتاب مياه العرب للأصمعي أيضاً (١٢).
- كتاب الأنواء لابن الأعرابي محمد بن زياد (ت ٢٣١هـ) (١٣).
- كتاب الأنواء للبغدادى، محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ) (١٤).
- كتاب الأنواء لأبي محلم الشيباني، محمد بن هشام بن عوف (ت ٢٤٥هـ) (١٥).
- كتاب الخصب والقحط للسجستاني، أبي حاتم سهل بن محمد (ت ٢٥٠هـ) (١٦).

-
- (٦) ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس، أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي الإربلي (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م، ٨ أجزاء، ج ٥، ص ٣٠٤.
- (٧) وفيات الأعيان ج ٥، ص ٤٠٤.
- (٨) الفهرست ص ٨٨.
- (٩) الأزمدة والأنواء ص ١٠٠، والفهرست ص ٢٧٤.
- (١٠) وفيات الأعيان ج ٢، ص ٣٧٩.
- (١١) الفهرست، ص ٥٥.
- (١٢) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٦هـ): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون مصر ١٢٧٤هـ، ٢ مج، ص ١٩١٦، والفهرست، ص ٥٥.
- (١٣) وفيات الأعيان، ج ٤ ص ٣٠٨، والفهرست، ص ٨٨.
- (١٤) الفهرست، ص ٨٨، و ص ٢٧٤.
- (١٥) الفهرست، ص ٨٨.
- (١٦) الفهرست، ص ٥٩.

- كتاب الشتاء والصيف للسجستاني أيضاً^(١٧).
- كتاب أسماء السحاب والرياح والأمطار للزيادي، أبي إسحق إبراهيم بن سفيان (ت ٢٤٩هـ)^(١٨).
- كتاب الأمطار والرياح وتغير الأهوية لأبي معشر جعفر بن محمد البلخي المنجم المشهور (ت ٢٧٢هـ)^(١٩).
- كتاب الأنواء في مواسم العرب لابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)^(٢٠).
- كتاب الرياح لابن قتيبة أيضاً^(٢١).
- كتاب الأنواء للمبرد، أبي العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ)^(٢٢).
- كتاب الأنواء لأبي حنيفة الدينوري (ت ٢٨٦هـ)^(٢٣).
- كتاب الأنواء للمفضل بن سلمة بن عاصم (ت ٢٩٠هـ)^(٢٤).
- كتاب الأنواء لأبن خرداذبه، أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ)^(٢٥).
- كتاب الأنواء لوكيع، أبي بكر محمد بن خلف بن حيان الضبي البغدادي (ت ٣٠٦هـ)^(٢٦).

-
- (١٧) وفيات الأعيان، ج ٢ ص ٤٣٣.
- (١٨) الفهرست، ص ٥٨.
- (١٩) تحقيق: عزة حسن، دار سمير، دمشق، ١٩٦٤.
- (٢٠) مطبوع في: المطبعة العثمانية، القاهرة، ١٩٥٦م، وفي حيدرآباد، الدكن، الهند، ١٩٥٦م.
- (٢١) الفهرست، ص ٧٧.
- (٢٢) الفهرست، ص ٥٩، و ٨٨.
- (٢٣) ابن منظور، جمال الدين، محمد بن جلال الدين الخزرجي (ت ٧١١هـ) كتاب نثار الأزهاري في الليل والنهار، المطبعة العثمانية، القاهرة، (دون تاريخ)، ص ١٩، و ص ٦٦.
- (٢٤) الفهرست، ص ٧٤.
- (٢٥) الفهرست، ص ١٤٩.
- (٢٦) الفهرست، ص ٨٨.

- كتاب الأنواء للزجاج، أبي إسحق بن السريّ بن سهل (ت ٣١٠ هـ) (٢٧).
- كتاب الأنواء لأبي الحسن الأخفش الصغير (ت ٣١٥ هـ) (٢٨).
- كتاب الرياح والهواء والنار لابن السراج، أبي بكر محمد بن السريّ (ت ٣١٦ هـ) (٢٩).
- كتاب السحاب والغيث وأخبار الرواد وما حمد من الكلام، لابن دريد أبي بكر محمد بن الحسن الأزدي (ت ٣٢١ هـ) (٣٠).
- كتاب الأنواء لابن دريد أيضاً (٣١).
- كتاب الأنواء للدهني (لعلّه الذهلي أبو الطاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصير (ت ٣٦٧ هـ) (٣٢).
- كتاب الأزمنة للمرزباني، أبي عبد الله محمد بن عمران (ت ٣٨٤ هـ) (٣٣).
- كتاب الأزمنة والأمكنة، لأبي علي المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) (٣٤).
- بعض الفصول من كتاب الآثار الباقية من القرون الخالية لأبي الريحان البيروني (ت ٤٤٠ هـ) (٣٥).
- كتاب الأنواء وهو السفر التاسع من كتاب المخصص لابن سيده، أبي الحسن علي

-
- (٢٧) وفيات الأعيان، ج ١، ص ٤٩.
 - (٢٨) الفهرست، ص ٨٣.
 - (٢٩) الفهرست، ص ٦٣.
 - (٣٠) طبعة ضمن مجموعة: حرزة الحاطب وتحفة الطالب، ليدن، ١٨٥٩ م.
 - (٣١) وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٣٢٤.
 - (٣٢) الفهرست، ص ٨٨.
 - (٣٣) الفهرست، ص ١٣٢.
 - (٣٤) طبعة حيدرآباد، الدكن، الهند، ١٣٣٢ هـ، طبعة دائرة المعارف العثمانية، استنبول، (دون تاريخ).
 - (٣٥) طبعة ليبزج، ١٩٢٣ م، ومؤسسة الخانجي بمصر، (دون تاريخ).

- كتاب الأزمئة والأنواء لابن الأجدابي ، أبي إسحق إبراهيم (ت ٦٥٠هـ) (٣٧).
- الجزءان : الأول والثاني من كتاب : سرور النفس بمدارك الحواس الخمس للتيفاشي ، أحمد بن يوسف بن أحمد القيسي (ت ٦٥١هـ) (٣٨).
- الفن الأول في السفر الأول من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب ، للنويري ، شهاب الدين (ت ٧٣٣هـ) (٣٩).
- كتاب الأنواء ، لأبي الحسن عريب بن سعد الكاتب (؟؟) (٤٠).
- كتاب الأنواء للمزيدي (لعله يزيد بن مرثد ت ٣٧٠هـ؟؟) (٤١).
- كتاب الأنواء الكبير للمرثدي (المزيدي) (؟؟) (٤٢).
- كتاب الأنواء لأبي غالب أحمد بن سليم الرازي (؟؟) (٤٣).

-
- (٣٦) طبعة المكتب التجاري ، بيروت ، (دون تاريخ).
 - (٣٧) تحقيق : عزة حسن ، دار سمير ، دمشق ، ١٩٦٤م .
 - (٣٨) تحقيق : إحسان عباس ، مطبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م .
 - (٣٩) طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٢م ، (٢٢ جزءاً).
 - (٤٠) تحقيق : المشتشرق دوزي ، ليدن ، بريل ، ١٩٦١م .
 - (٤١) الفهرست ، ص ٨٨ .
 - (٤٢) الفهرست ، ص ١٣٩ .
 - (٤٣) الفهرست ، ص ٨٨ .

(٢) المطر في القرآن الكريم

وقد استخدم القرآن الكريم صور المطر والماء والسحاب والرعد استخداماً واسعاً دقيقاً فهو حياة وبعث، ومادة للحياة وأصل للموجودات، منه خلق كل شيء، وهو الرحمة والطهور والغيث والبركة، وهو مثل الحياة الفانية، ومادة الموت، وموضع النقمة والعذاب. . وهذا التصور للمطر جاء موافقاً لتصوير الفكر الجاهلي - كما سنرى - ومن أجل ذلك سأستعرض الآيات القرآنية الكريمة التي عرضت للمطر؛ لأنها ستعمق الفكرة التي سناقشها عندما أعرض لتصوير الجاهليين لفكرة المطر. وقد جعل القرآن الكريم نزول الغيث برهاناً على الإرادة الربانية القادرة على الإحياء والبعث من الموت:

قال تعالى (٤٤): ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقال أيضاً (٤٥): ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

وقال أيضاً (٤٦): ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾.

(٤٤) الأعراف: ٥٧.

(٤٥) البقرة: ١٦٤.

(٤٦) فاطر: ٩.

وقال أيضاً^(٤٧): ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

وقال أيضاً^(٤٨): ﴿وَلَوْ أَنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

وقال أيضاً^(٤٩): ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

وجاء الماء في القرآن الكريم أصلاً للموجودات ومادة للحياة؛ منه خَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ^(٥٠):

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رَجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾.

ومن الماء أنبت الله حدائق ذات بهجة ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾^(٥١) وأخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾^(٥٢) به تصبح الأرض مُخْضِرَةً ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضِرَةً﴾^(٥٣) منه شراب ومنه شجر وفيه نسيم الأنعام وبه ينبت الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾^(٥٤).

(٤٧) النحل: ٦٥.

(٤٨) العنكبوت: ٦٣.

(٤٩) الروم: ٢٤.

(٥٠) النور: ٤٥.

(٥١) النمل: ٦٠.

(٥٢) فاطر: ٢٧.

(٥٣) الحج: ٦٣.

(٥٤) النحل: ١٠.

وسَمَّى القرآن الكريم الماء ﴿رَحْمَةً﴾، قال تعالى (٥٥): ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾.

وَقَرْنَ الرَّحْمَةَ بِالْمَطَرِ فِي آيَةٍ أُخْرَى (٥٦): ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾.

وَقَرْنَ الْمَاءَ بِالطَّهَارَةِ وَالنَّقَاءِ:

قال تعالى (٥٧): ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾.

قال تعالى (٥٨): ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيَطْهَرَكُم بِهِ﴾.

ووصف الماء بالبركة:

قال تعالى (٥٩): ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾.

وضرب القرآن الكريم مثلاً للحياة الفانية بالغيث الذي يُنْبِتُ زَرْعًا رَائِقًا يُعْجِبُ الْكُفَّارَ، سرعان ما يَتَحَوَّلُ إِلَى هَشِيمٍ تَذْرُوهُ الرِّيحُ:

قال تعالى (٦٠): ﴿اعْلَمُوا أَنَّما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعٌ الْغُرُورِ﴾.

(٥٥) الفرقان: ٤٨.

(٥٦) الشورى: ٢٨.

(٥٧) الفرقان: ٤٨.

(٥٨) الأنفال: ١١.

(٥٩) الفرقان: ٩.

(٦٠) الحديد: ٢٠.

وقد جاءت صورة المطر من حيث هو عنصرٌ متناقض في «القرآن الكريم» واضحة وضوحاً تاماً، فهو مادة للحياة، ومادة للموت معاً، وكثيراً ما يُذكر المطر في «القرآن الكريم» في موضع الانتقام والعذاب، قال تعالى (٦١): ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا، فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

وقال تعالى (٦٢): ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ مُنْقُودٍ﴾.

وقال أيضاً (٦٣): ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾.

وقال أيضاً (٦٤): ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْتُ مَطَرَ السَّوْءِ﴾.

وقال أيضاً (٦٥): ﴿فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾.

ورسم القرآن الكريم صوراً مُرعبة للماء في «طوفان نوح» (٦٦)، وفي تصويره للصواعق الهائلة، والبرق الخاطف الذي يكاد يذهبُ بالابصار (٦٧).

وهاتان الصورتان المُتضادَّتان للمطر أبرزهما «القرآن الكريم» بوضوح تام: صورة الرِّحمة والطُّهر والنِّعمة والحياة، وصورة العَذَاب والنِّقمة والرَّعب والمَوْت.

(٦١) الأعراف: ٨٤.

(٦٢) هود: ٨٢.

(٦٣) الشعراء: ١٧٣، والأنفال: ٣٢.

(٦٤) الفرقان: ٤٠.

(٦٥) الأنفال: ٣٢.

(٦٦) انظر سورة هود.

(٦٧) النور: ٤٣، والبقرة: ١٩، والروم: ٢٤، والرعد: ١٣.

(٣) المَطَر والجَدْب

وصورة العَذَاب والنَّقْمَة والخوف والقتل تَمَثَّلُ بِالْجَدْبِ وَالْمَحَلِّ وَالْقَحْلِ الَّذِي يطبع شبه الجزيرة العربية بطوابع راسخة ثابتة في الذَّهْنِ، فيحيلُ حياتهم شقاءً، وعذاباً، وفقراً، وشُحاً، وجوعاً: لذلك كانت معاناة العربي من الطبيعة الكنود عظيمة، سواء في يسرها أم عسرها، فإنَّ أَجْدَبَتْ جاءت بالعذاب، وإنَّ أَمَطَرَتْ صَبَّتْ الموت الرُّؤَامَ، يشتدَّ بَرْدُهَا حتى لِيَجْمَدَ المطر على أهداب عيون الإبل^(٦٨)، ويتلظى حرّها حتى تكاد تزهق الأنفس من سعيها، وقد ينحبس الغيث سنوات متواليات وتنكشف السماء زمناً طويلاً عن زُرْقَةٍ رتيبة إلا من سحائب كالقُطُنِ متراحيات، وحشد من ضوء وغبار يثبت ويدوم، ويستمرُّ ما شاء الله أن يستمر. وذات يوم تنعقد الغيوم، وتنتفتح أبواب السماء، بعد طول تَرَقُّبٍ، وتسقط الأمطار على الأرض الظَّمْأى ما فيضرب عاليها، ويغمر سافلها^(٦٩).

وقد أدَّت فكرة الجَدْبِ وعُقْم الطبيعة إلى تعظيم المطر، وإلى تَطَوُّر «علم الأنواء»، لأنَّ سلامة تقديرهم للمطر، ومواقع سقوطه مسألة حياة أو موت. قال الجاحظ^(٧٠): «ولحاجته - يعني العربي - إلى الغيث، وفراره من الجَدْبِ، وضنّه

(٦٨) ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، مطبعة وزارة المعارف، الرياض، (دون تاريخ)، ص ٤١١.

(٦٩) د. عزة النص، المزاج الطبيعي لمنطقة نجد، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد الأول، السنة الأولى، ١٩٧٠م، ص ٨.

(٧٠) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة البابي =

بالحياة اضطرتة الحاجة إلى تعرّف شأن الغيث، ولأنّه في كل حال يرى السماء وما يجرى فيها من كواكب، ويرى التعاقب بينها، والنجوم الثابت فيها، وما يسير منها مجتمعاً، وما يسير منها فاردّاً، وما يكون منها راجعاً مستقيماً.

وليس الجذب في الصحراء العربية طارئاً في سنة من السنوات، فقد ارتبطت به دوماً حياة العرب ارتباطاً وثيقاً، ولعلّ النّواح من أجل المطر أبرز ألحان الحزن في الشعر الجاهلي، وفي الجذب تتحول الصحراء العقيم عندما تهب عليها رياح السموم جحيماً لا يطاق.

وقد ذكر «ديودور الصقلي» في القرن الأول قبل الميلاد، أنّ بلاد العرب في شمال اليمن إلى سوريا كان المطر يجودها غزيراً في فصل الصيف، وتجري بها أنهار كثيرة، فيزرع أهلوها في العام الواحد زرعَتين^(٧٢):

وربما التبس الأمر عليه فسَمّى الأودية المُحفلة بالماء أنهاراً. وقد عقد الهمداني فصلاً عن أودية السّراة ومسائل الماء فيها^(٧٢).

ووصف المسعودي الحجاز في عصره فقال: إنها أشجر بلاد العرب وأكثرها ماء^(٧٣).

ووصف الطبري اليمامة، فقال: واليمامة إذ ذلك من أخصب البلاد وأعمرها،

= الحلبي، القاهرة، (دون تاريخ)، ج ٦ ص ٣٠.
(٧١) ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر ١٩٦٩، ص ٣، وأحمد الخوفي (ت ١٩٨٥م)، أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر بالجيزة، ١٩٥٨، ص ٢٦.

(٧٢) الهمداني، الحسن بن محمد (٣٣٤هـ / ٩٤٦م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق: برفنسال، القاهرة ١٩٣٧م، ص ٧١ - ٧٨.

(٧٣) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ)، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة القاهرة، ١٩٧١م، ج ٢، ص ٨١.

وأكثرها خيراً وأشجاراً^(٧٤).

وتحدث الأزرقى في (تاريخ مكة) عن السيول التي داهمت مكة وأغرقتها، فذكر سيول وادي مكة في الجاهلية^(٧٥)، وسيول وادي مكة في الإسلام^(٧٦)، ووصف سيل الجحاف الذي أغرق مكة سنة ٨٠هـ^(٧٧).

وقال صاحب كتاب (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام)^(٧٨) نقلاً عن كتاب (إتحاف الوري بأخبار أم القرى) في حوادث سنة سبع عشرة: فيها جاء سيل عظيم يُعرف بسيل (أم نهشل) من أعلى مكة، من طريق الروم، فدخل المسجد الحرام، واقتلع مقام إبراهيم من موضعه، وذهب به حتى وُجد بأسفل مكة، وذهب السيل بـ (أم نهشل) بنت عبيدة بن سعد بن العاص بن أمية بن عبد شمس) فماتت فيه. . وكان سيلاً هائلاً.

وقد ألف السيد عبد الله بن جعفر بن علوي كتاباً سمّاه: (تذكرة المتذكر فيما جرى من السيل المتبحر)^(٧٩)، وصف فيه السيل العظيم الذي غمر مكة ودمرها في ٢٦ رمضان سنة ١١٥٣هـ، وقد استطرد المؤلف إلى ذكر أخبار السيول الكبيرة التي أغرقت مكة في العصور الغابرة.

فقد يكون مطر الرحمة مطر عذاب ونقمة، وهناك حقيقة تقول: إنَّ عدد من

(٧٤) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ٩ مج، ط ٤، دار المعارف بمصر، ١٩٧٩، ج ١، ص ٦٢٩.

(٧٥) الأزرقى، محمد بن عبد الله (ت ٢٥٠هـ)، تاريخ مكة، طبعة دار الأندلس، إسبانيا، (دون تاريخ)، ص ١٦٦.

(٧٦) المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٧٧) المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٧٨) قطب الدين الحنفي (؟؟)، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، المطبعة العثمانية، بمصر، ١٣٠٣، ص ٤٥٣.

(٧٩) منه نسخة خطية بالكتابة التيمورية في القاهرة بخط المؤلف سنة ١١٥٣هـ.

يموت في الصحراء غرقاً يفوق عدد من يموت فيها عطشاً^(٨٠).

وكما أنَّ الجَفَافَ يُجْدِبُ الصحراءَ، فَإِنَّ المطرَ يجرف كلَّ شيءٍ، فلا يبقى ولا يذر. والمطر حين يهطل لا يهطل دائماً رحيماً رقيقاً، فما أكثر ما ينهمر قوياً عاتياً، يجرف التربة ويحطم الخيام والشجر، ويتلف الزرع، ويغرق المنازل، ويشتت القطيع، ويحوّل الأرض إلى مسایل تجعل كلَّ عامرٍ دامر^(٨١).

وفي أخبار نجد كثيراً ما نسمع عن السيول الهائلة والأمطار المخيفة، والصواعق المدمّرة التي تقلع البيوت من جذورها، وتهلك السّوام والنّاس، وترك آثاراً من العُنف والدمار ظاهرة^(٨٢).

وقد وصف (جيمس ويللارد) هاتين الظاهرتين المتناقضتين: المَحَلَّ والسَّيْلَ في الصحراء الكبرى، فقال^(٨٣):

«مُنيت الصَّحْراء الكبرى بجفاف استمر عامين، سَفَع الأرض، فلم تسقط في البلاد نقطة من مطر طوال عام ١٨٦٧م، وفي العام الثاني تَدَفَّقَت الأمطار كالطُوفان تدفّقاً جرف التُّربة، ودمَّرَ كُلَّ أثر للنموِّ الزراعي، وأكملت الثلوج ما بدأه الجراد والجفاف والمطر، فما بقي شيء يؤكل سوى الأموات من بشر وحيوانات، ومات جوعاً خمس مجموع السكان المسلمين.

لقد كان المرء يلقي في كل خطوة تلك الهياكل السائرة: نساء يَضُمْنَ أطفالهنَّ الموتى إلى أئدائهنَّ الجافة، وأولاداً تركهم آباؤهم ليموتوا، وكلُّ شيء لَفَّه

(٨٠) جورج غيرستر، الصحراء الكبرى، ص ٩٤.

(٨١) عزة النص، المزاج الطبيعي لمنطقة نجد، مجلة كلية الآداب، المجلد الأول، السنة الأولى، جامعة الرياض، ١٩٧٠م، ص ١١.

(٨٢) ابن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، ص ١٤٢.

(٨٣) جيمس ويللارد، الصحراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ١٩٦٧م، ص ٤٠٧.

الصَّمْتُ الكَثِيبُ الذي تلقىه الروح الإسلامية على الموت والألام (!!!).

وقال^(٨٤): «ثم تأتي مشاهد الإجرام البالغ الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الحضارة (!!!) فهؤلاء آباء وأمّهات يذبحون أبناءهم ليأكلوهم ، وذاك أخ يقتل أخاه ، وقد اختفت كل المشاعر الإنسانية بنوع من الوحشية أخذت معه عيون الناس تلمع ببريق الشرِّ والتهديد» .

وقد نرى في وصف هذا الرّحالة مبالغة غير معقولة ؛ لكن الإحساس بقسوة الطبيعة في الصحراء العربية أمراً لا نستطيع إنكاره ، فصور الجَدْب والجفاف والعُقم محفورة في ذهن شعراء العربية حفراً ، وفي مخيلات الشعراء الجاهليين صور مرعبة ، ومناظر فظيعة لطوفان (نوح) المُدَمَّر ، والسيل العَرم الهائل في مأرب ؛ لكن هذه السيول ليست بشيء إذا قيست بسنوات الجذب العِجَاف التي حَلَّت بالحجاز وعروضها ، والتي وصفها (الهمداني) وصفاً مفصلاً^(٨٥) وندرة الماء ، والمطر النَّزْر ، والحرمان والجذب جعلهم يبالغون في تقدير الخصب ، ويقدسون مواطن المياه ومنابعها ، ويعتقدون فيها أسراراً غامضة ، وقوى خفية^(٨٦) .

(٨٤) المصدر نفسه ، ص ٤٠٧ .

(٨٥) الهمداني ، الحسن بن أحمد (٣٣٤هـ / ٩٤٦م) ، صفة جزيرة العرب ، ليدن ، ١٨٨٤م ، ص ٢١٤ .

(٨٦) نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، دار الإرشاد ، بيروت ، ١٩٧٠م ، ص ٤٥ .

(٤) الهاجرة والشتاء الجديد

وقد غني الشعراء بتصوير هجير الصحراء الذي يُميت أنفاس الرياح، ويُحيل الحياة إلى جماد وسكون، وعندما يَسْفَح المسافرين سكير الصحراء يكاد يشوي الوجوه، ويطبخ لحم النوق، ويترك الراحلين أنقاضاً على أنقاض، وأشباحاً على أشباح. قال علقمة الفحل (٨٧).

وقد عَلَوْتُ قَتَوَدَ الرَّحْلِ يَسْفَعُنِي يومٌ تجيءُ به الجَوَزا مَسْمُومٌ
حامٍ كَأَنَّ أَوَارَ النَّارِ شَامِلُهُ دون الثَّيابِ ورأس المَرءِ مَعْمُومٌ
وقال زهير بن أبي سلمى (٨٨).

وبلدةٍ لا ترام خائفة زوراء مُغبرة جوائِبُها
تسمعُ للجنِّ عازفين بها تضجُّ من رَهبة ثعالِبُها
يُصَعَّدُ من خوفها الفُؤاد ولا يرقد بعض الرُقَّاد صاحبُها
كَلَفْتُهَا عِرْماً عُدَّافَةً ذات هباب فَعِماً مَنَّاكِبُها

ويتكرر في الشعر الجاهلي منظر الحرِّ اللافح، وسموم الهاجرة التي تكاد تطبخ لحم المسافرين عندما تحيل الصحراء بمظاهرها جميعاً عناصر ثابتة:

(٨٧) علقمة الفحل، الديوان، شرح الأعلام الششمري، تحقيق: لطفي الصقال ودريه الخطيب،

دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٦٩، ص ٧٣.

(٨٨) زهير بن أبي سلمى (. . . - ٦٠٩م)، الديوان، صنعة: أبي العباس ثعلب، تقديم: أحمد

العدوي، دار الكتب المصرية، ١٩٤٤، ص ٢٦٥.

الصحراء تموت، والآرام ثقيل في كُنُسها، والحرباء لا تَريم، وليس هناك ما يَدُلُّ
على الحياة إلَّا خَفَقَ الآل على رؤوس الأكام والإبل الصابرة المثابرة:

قال عبدة بن الطبيب^(٨٩):

تهدي الرُّكاب سَلُوفٌ غيرُ غافلةٍ إذا تَوَقَّدَتِ الحُزَّانُ والمِيلُ
وقال الأعشى^(٩٠):

تَدَلَّتْ عليه الشمسُ حتَّى كأنَّها من الحرِّ تَرْمِي بالسكينة قُورها
وقال المتلمس الضبعي^(٩١):

وجناء قَدْ طَبَخَ الهواجر لَحْمَهَا وكأنَّ نِقَبَتَهَا أديمٌ أَمْلَسُ
وقال الأعشى^(٩٢):

ووديقة شهباء رُدَّ	ي أَكْمُهَا بَسْرَابُهَا
ركدت عليها يومها	شَمْسٌ يحرُّ شِهَابُهَا
حتى إذا ما أَوْقَدْتُ	فالجَمْرُ مثلُ تُرابِهَا
كَلَفْتُ عانسةً أَمو	نَّا في نَشَاطِ هِبَابِهَا

(٨٩) عبدة بن الطبيب (. . . - بعد ١٣هـ)، التبريزي يحيى بن علي (٤٢١-٥٠٢هـ)، شرح
المفضليات، تحقيق: علي البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٥٠١،
وسنشير لهذا المصدر لاحقاً بـ «المفضليات».

(٩٠) الأعشى الكبير (. . . - ٦٢٤م)، الديوان، تحقيق: محمد محمد حسين، مكتبة الآداب
بالجمايز، مصر، ١٩٥٠م، ص ٣٧٣.

(٩١) المتلمس، جرير بن عبد المسيح الضبعي، الديوان، تحقيق: كارل فولرس، ليزج،
١٩٠٣م، ص ١٩٢.

(٩٢) الأعشى الكبير، الديوان، ص ٢٥٥.

قال جورج غيرستر يصف الصحراء الكبرى^(٩٣): ولن أنسى ما حييت تلك الحرارة الرهيبة، ولا تلك القفزات الهائلة من الرمال التي تُحرّكها الرياح فتملاً الهواء بعشرات الآلاف من البلّورات الرملية الناعمة اللامعة، ولا تلك الحمائم التي شوتها الشمس الحارة المَجْنونة. وأدركت آنذاك أن الحياة - في الواحات على الرغم مما فيها من شقاء وتعاسة - تكتسب رَوْناً خاصاً عندما يرى الإنسان في محتواها الصحراء الصفراء القاحلة وهي تقف وراءها جامدة وقورة شاحبة.

وقد صور الشعر الجاهلي الجَدْبَ في الحياة العربية بصور فظيعة، وكثيراً ما يصفون الجوعى المقرورين، والعُفَاة الملهوفين ممَّنْ قَذَفَتْ بهم الصحراء في فم الموت يطرقون البيوت بحثاً عن الطعام. ويعرض الشعراء في لوحاتهم صوراً كثيرة للجَدْبِ والقَحْل، ويقرنونهما بالريح الحُرْجُف العاتية التي تَصُكُّ الوجوه صكّاً، مما يدفع الإبل القويّة أن تلوذّ بالحالين وبأشجار السّلم وأفنان العضاء، وفَحْلُ النوق عندما يَسْفَعُهُ الصُّرَادُ والصَّقِيع يتقدّم الشَّوْلُ راقصاً إلى الدَّفء^(٩٤).

وسمّوا السَّنة الجَدْبِيَّة «كَحْلاً» إمّا لخُضرة السّماء فيها وأنقشاع الغيم من سمائها، وإما لسواد الحياة فيها وسوء المعيشة وضنكها. وسمّوها أيضاً «ضَبْعاً»^(٩٥)

(٩٣) جورج غيرستر، الصحراء الكبرى، تعريب: خيرى حماد، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦١م، ص ١٤٦.

(٩٤) طرفة بن العبد، الديوان، بشرح الأعلام الشنتمري، تحقيق: لطفي الصقال، ودريّة الخطيب، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٥م، ص ١٣٠.

(٩٥) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الحيوان، ج ٦ ص ٤٤٦.

الضَّبْع: الأثنى من الضباع، والضَّبْع: السنة الشديدة المهلكة المجذبة، وفسروا بذلك قول عباس بن مرداس:

أبا خراشة أمّا أنت ذا نفرٍ فإنّ قومي لم تأكلهُم الضَّبْع
والضَّبْع: الشر، والضبع: الجور، والضبع: المطر الشديد؛ لأن سيله يخرج الضباع من وُجُرّها.

لأنها تَأْكُلُ الأخضر واليابس، ولا تُبْقِي ولا تَذَرُ.

قال عمرو بن قميئة (٩٦):

وَإِنْ صرَّحْتَ كَحُلٍّ وَهَبْتَ عَرِيَّةً
مَنْ الرِّيحِ لَمْ تَتْرُكْ لَذِي الْمَالِ مَرْفَدًا

وفي مثل هذه السنين العجفاء تجود النفوس الغنيّة والقلوب الكبيرة بما تملك
للجار والحليف وابن السبيل.

قال خفاف بن ندبة (٩٧):

إِذَا الْحَسَنَاءُ لَمْ تَرَحُضْ يَدَيْهَا وَلَمْ يَقْصِرْ لَهَا بَصَرٌ بِسِتْرِ
قَرَوْا أَضْيَافَهُمْ رَحًا بِيحٍّ تَجِيءُ بَعْبَقَرِيَّ الْوَدْقِ سُمْرِ
هُمْ الْأَيْسَارُ إِنْ قَحَطَتْ جُمَادَى بِكُلِّ صَبِيرٍ سَارِيَةٍ وَقَطْرِ

ويُتَّصَلُ الْجَدْبُ فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ بِفَضْلِ الشِّتَاءِ الَّذِي يُزْجِي الرِّيحَ الشَّامِيَةَ
التي تحصبهم بالصقيع، وتقذفهم بالسحاب العقيم.

قال المثقب العبدى (٩٨):

قال ابن الأثير: هو في الأصل الحيوان المعروف، والعرب تكني به عن سنة المجاعة.
والكَحْلُ: شدة المَحَل، والكَحْلُ: السنة الشديدة المُجْدبة، وقيل: هي معرفة لا تدخلها
الألف واللام، وكَحَلْتُهُم السنون: أصابتهن، وفي المثل: «بَاءت عَرَارِ بِكَحْلٍ»، إذا قُتِلَ
القاتل بمقتوله، وكَحَلَة: من أساء السماء، والمَحَلَة: الأرض.

(٩٦) عمرو بن قميئة، أبوكعب، (جاهلي قديم)، الديوان، تحقيق: كامل الصيرفي، مطابع دار
الكتاب العربي، مصر، ١٩٦٥م، ص ١٠.

(٩٧) خفاف بن ندبة السلمى الأنصارى، (توفي في خلافة عمر بن الخطاب)، شعره، تحقيق:
نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م، ص ٥٢.

(٩٨) المثقب العبدى، عائذ بن محسن، أو شأس بن عائذ، (. . . - ٥٨٧م)، الديوان، تحقيق:
حسن كامل الصيرفي، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٢٦٧.

إِذَا الرِّيحُ جَاءَتْ بِالْجَهَامِ تَشْلُهُ هَذَا إِلَهُ شَلِّ الْقِلَاصِ الطَّرَائِدِ
وَأَعْقَبَ نَوْءُ الْمَرْزَمِينَ بَغْبِرَةَ وَقَطَرَ قَلِيلُ الْمَاءِ بِاللَّيْلِ بَارِدِ
كَفَى حَاجَةَ الْأَضْيَافِ حَتَّى يُرِيحُهَا عَلَى الْحَيِّ مَنَّا كُلُّ أَرْوَعٍ مَاجِدِ
وَإِذَا أَسْنَتَ الْقَوْمَ تَمَدَّحُوا بِقَرَى الضُّيْفَانِ مِنْ شَحْمِ النُّوقِ السَّمِينَاتِ التَّامَكَاتِ .

قالت الخنساء (٩٩) :

فَمَنْ لِلضُّيْفِ إِنْ هَبَّتْ شِمَالُ مَزْعَزَعَةٌ تَجَاوِبُهَا صَبَاها
وَالْجَاءَ بَرْدُهَا الْأَشْوَالُ حُدْبًا إِلَى الْحُجَرَاتِ بَادِيَةً كُلاها
هَنَالِكَ لَوْ نَزَلَتْ بَالُ صَخْرٍ قَرَى الْأَضْيَافِ شَحْمًا مِنْ ذُرَاهَا

وقال عامر بن الطفيل (١٠٠) :

إِذَا سَنَةٌ عَزَّتْ وَطَالَ طَوَالُهَا وَأَقْحَطَ عَنْهَا الْقَطَرُ وَأَصْفَرَ عُودُهَا
وَجِدْنَا كِرَامًا لَا يُحَوِّلُ ضَيْفُنَا إِذَا جَفَّ فَوْقَ الْمَنْزِلَاتِ جَلِيدُهَا

وفي الجَدْبِ يُقْرُونَ الضُّيْفَانِ الْمُزْمِلِينَ، وَالْجَوْعَى الْمَعُوزِينَ، وَالْعُقَاةَ
الْمَلْهُوفِينَ نُوقًا لِحِمَاتِ ثَمِينَاتٍ؛ فَيَحِيلُونَ جَدْبَهُمْ خَصْبًا وَنَعِيمًا وَجوعَهُمْ شَبَعًا
وَرِيًّا، لَكِنْ هَذَا الْادِّعَاءُ لَمْ يَكُنْ دَائِمًا صَادِقًا؛ لِأَنَّ الْمَحْلَ وَالْقَحْطَ - يَجْعَلُ النُّفُوسَ
أَشَدَّ حَرَصًا وَاقْتِصَادًا وَخَوْفًا مِنَ الضَّبْعِ الْعَجُوزِ الَّتِي تَأْكُلُ الزَّرْعَ وَالضَّرْعَ، لِذَلِكَ كَانَ
الْجَدْبُ مَخِيفًا فِي الصَّحْرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ، فَتَفَاءَلُوا بِالْخَيْرِ وَسَمُّوا أَبْنَاءَهُمْ بِمَعَانِي الْمَطَرِ

(٩٩) الخنساء، تماضر بنت الشريد السلمي (. . . - ٢٤هـ)، شعرها، تحقيق: كرم البستاني، دار
صادر، بيروت، ١٩٦٣م، ص ١٤٠ .

(١٠٠) عامر بن الطفيل العامري، (توفي في حياة الرسول ﷺ)، الديوان، بشرح الأنباري،
تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٦٣، ص ٤٦ .

والماء: كالمنذر بن ماء السماء، وأخيه (المُتَمَطِّر) (١٠١) وسمُّوا (سحاباً) (١٠٢) و(حياً) (١٠٣)، وسمُّوا (مَطَرًا) أكثر من واحد: مطر اللَّيْثِي، ومطر بن هلال، ومطر بن عُكَّامِس السُّلَمِي، ومطر بن أبي سالم، ومطر بن عوف، ومطر بن طهمان، ومطر بن ميمون، ومطر بن فزارة الخارجي. ومن كناههم: أبو مطر وأبو الغيث، والحسين بن مطير شاعر عباسي معروف. وسمُّوا غَيْثًا وَغَوْثًا وَمُغَيْثًا وَغَيْثًا، والغَوْث: بَطْنٌ من طيء، وغوث: قبيلة من اليمن، وحيّ من الأزد - والغوث بن مرّفي مضر (١٠٤).

(١٠١) أبوتمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، تعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، ١٩٥٥، ٢ مج، ج ١ ص ٣٥.

(١٠٢) السيد محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م)، تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية بمصر، ١٣٠٦هـ، مادة (سحب).

(١٠٣) حسان بن ثابت الأنصاري (٠٠٠ - ٥٤هـ)، الديوان، تحقيق: سيد حنفي، الهيئة المصرية العامة ١٩٧٤م، ص ٧٧.

(١٠٤) ديوان الحماسة، ج ١ ص ٨٠، وتاج العروس، مادة (غوث).

(٥) الدلالة اللغوية

وكان الجَذْبُ في الحُسِّ اللُّغوي العربي يعني (العَيْب). قال سلامة بن جندل (١٠٥):

كنا نَحُلُّ إذا هَبَّتْ شَامِيَةٌ بَكُلِّ وادِّ حَطِيبِ البَطْنِ مَجْدُوبِ
(المَجْدُوبُ: المَذْمُومُ المعيب).

وأنشد أبو عمرو للكميت بن زيد قوله (١٠٦):

أبارق إنِّي لا أريد أذاكُم ولا ضَرْبُكُم ما لم تُعِينُوا على جَدْبِي
أي: عَيْبِي.

وقد استعمل اليعقوبي كلمة الصَّحْرَاءَ لتعني التُّرْبَةُ التي يَدْفِنُ الناسُ فيها موتاهم (١٠٧)، أما الماء فهو الكلمة الأساسية في لغة الصحراء، فهو: الحَيَا والجَدَا والجمال والشباب والخير والنَّعْمَةُ والخِصْبُ. وحيث لا تُوجد واحاتٌ في بعض المناطق الصحراوية يحصل البدو على الماء من باطن الأرض، وأحياناً يجدونه قريباً منها، ويسمونهُ: الثَّمَدُ والحِسي.

وبعد نزول المطر قد يحفظونه في بَيْضِ النِّعَامِ الفارغِ ويَحْبِثُونَهُ في الرَّمْلِ، وبذا

(١٠٥) سلامة بن جندل التميمي، (جاهلي قديم)، الديوان، تحقيق: فخر الدين قباوة، حلب ١٩٦٩م، ص ١١٩.

(١٠٦) سلامة بن جندل، الديوان ص ١٢١. ولم أجده في ديوان الكميت بن زيد (ت ١٢٦هـ / ٧٤٣م) شرح الهاشميات، تقديم: محمد الرافي، شركة التمدن الصناعية بمصر (د. ت).

(١٠٧) جورج غيرستر؛ الصحراء الكبرى ص ٩، ولم أجده هذا الاستعمال في كتب اليعقوبي المعروفة. انظر اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م) البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف ١٩٥٧، وتاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م.

يأمنون العطش أَيَّامَ القحط^(١٠٨).

وَأَتَّخِذَ الْمَطَرُ فِي أَذْهَانِهِمْ صُورَةَ الْمَغِيثِ مِنَ الْهَلَاكِ، فَسَمَّوهُ غَيْثًا، وَصُورَةَ أَصْلِ الْحَيَاةِ فَسَمَّوهُ حَيًّا، وَصُورَةَ الْمُنْجِي مِنَ الْعَذَابِ فَسَمَّوهُ رَحْمَةً.

وهو مادة للتطهير الحسِّي والمعنوي: قال طرفة^(١٠٩):

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَغْسِلْ مِنَ اللَّوْمِ عِرْضَهُ وَلَمْ يُنْقِهِ لَمْ يَغْنِ عَنْهُ بَهَاؤُهُ

والمطر يعني النعمة والخير، قال جويرية بن بدر^(١١٠):

لَعَلَّهُمْ أَنْ يَمْطُرُونِي بِنِعْمَةٍ كَمَا صَابَ مَاءُ الْمُزْنِ فِي الْبَلَدِ الْمَحْلِ

وقال حسان بن ثابت^(١١١):

وَنَدِمَانِ صَدَقِ تُمْطِرُ الْخَيْرَ كَفُّهُ إِذَا رَاحَ قِيَاضُ الْعَشِيَّاتِ خِضْرَمًا

(وَالْخِضْرَمُ هُنَا: الْجَوَادُ، مِنَ الْخِضْرَمِ وَهُوَ الْمَاءُ الْكَثِيرُ).

وقال حسان أيضاً:

وَمُسْتَمْطَرًّا فِي الْأَزْلِ أَصْبَحَ سَيِّئُهُ عَلَى مُعْتَفِيهِ دَائِمَ الْوَدْقِ مُنْهَلًا^(١١٢)

لَهُ كَفٌّ تَفِيضُ دَمًا وَكَفٌّ يُبَارَى جُودَهَا سَحَّ الشَّيَالِ^(١١٣)

كَمْ قَدْ وَلَدْنَا مِنْ كَرِيمٍ مَاجِدٍ دَامِيَ الْأَظْفَارِ أَوْ رِبْعٍ مُمَطَّرٍ^(١١٤)

(١٠٨) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ)، الأغاني، دار الكتب المصرية ١٩٢٧م، ج ١٨ ص ١٣٣.

(١٠٩) طرفة بن العبد، الديوان، ص ١٦١.

(١١٠) بنو تميم، شعرهم في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق: عبد الحميد المعيني، منشورات نادي القصيم الأدبي، السعودية، ١٩٨٢م، ص ٣٣٢.

(١١١) حسان بن ثابت: الديوان، ص ١٢٨.

(١١٢) المصدر السابق، ص ٢٧٤.

(١١٣) المصدر السابق، ص ٢٧٦. (١١٤) المصدر السابق، ص ٣٨٧.

والمطر قوةٌ عَظْمَى ، نافعة ، فيه معنى (البركة) والشفاء والحياة ؛ لذلك قال الشاعر(١١٥) :

وما العَيْشُ إِلَّا نَوْمَةٌ وَتَشْرِقُّ وَتَمُرُّ كَأَكْبَادِ الْحِرَارِ وَمَاءٌ
وقال عبيد بن الأبرص(١١٦) :

فذاك الماء لو أَنِّي شَرَبْتُ بِهِ إِذَا شَفَى كَبِدًا شَكَّاءَ مَكْلُومَةٍ
والماء يعني أيضاً: العِزَّ وَالْمَنَّةَ، والكَرَامَةَ، والشَّرَفَ. قال الحصين بن الحمام المُرِّي(١١٧) :

أُثْعَلِبَ لو كُنْتُمْ مَوَالِيَ مِثْلَهَا إِذَا لَمَنَعْنَا حَوْضَكُمْ أَنْ يَهْدَمَا
المطر شفاء الروح والنفس ، قال الممزق العبدى(١١٨) :

صَحَا من تصاييه الفؤاد المَشَوِّقُ وحن من الحَيِّ الجميع تَفَرُّقُ
وَأَصْبَحَ لَا يَشْفِي له من فؤاده قِطَارُ السَّحَابِ وَالرَّحِيقُ المُرَوِّقُ
والماء في الحِسِّ اللُّغوي العربي يعني : الغَيْثَ والحَيَا والرَّحْمَةَ والطَّهْرَ والنَّقَاءَ وسرَّ الحياة، وهو أيضاً: ماءُ الشَّبَابِ وماءُ الرُّقَابِ، وماءُ الجَمَالِ، ويعني أيضاً: النِّهَايَةَ المَحْتَوَمَةَ للحياة، لذلك قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي(١١٩) :

-
- (١١٥) أبو تمام، جيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، ج ٢ ص ٤٠٤ .
(١١٦) عبيد بن الأبرص (. . . - ٦٠٠م)، الديوان، تحقيق: حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ١٢٩ .
(١١٧) التبريزي، يحيى بن علي (٤٢١ - ٥٠٢هـ)، شرح المفضليات، تحقيق: علي البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٦٦ .
(١١٨) المصدر السابق، ص ٣٠١ .
(١١٩) البحترى، الوليد بن عبيد الطائي، الحماسة، تعليق: كمال مصطفى، المكتبة التجارية بمصر، ١٩٢٩م، ص ٤٧ .

« وَطَابَ الْمَوْتُ مِنْ شَرِّعٍ وَوَرِدَ »

وتَخَيَّلُوا الموت ماء ، فقال عنتره (١٢٠):

« إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنَهْلٌ »

وقالت الخنساء (١٢١):

« وَخَوْضُ الْمَوْتِ مَوْرُودٌ »

والمحاربون - كما يقول النابغة (١٢٢) - :

« يَتَسَاقَوْنَ الْمَنِيَّةَ »

ويَحْتَمِلُ الماء معنى : السَّعَادَةُ وَالْكَرَامَةُ وَالْعِزَّةُ وَالشَّرَفُ ، وطيب العَيْش . وقد عَبَّرَ

عن هذه المعاني كُلِّهَا عمرو بن كلثوم في بيته المشهور (١٢٣) :

وَأَنَا الشَّارِبُونَ الْمَاءَ صَفْوًا وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدْرًا وَطِينًا

وقد طبع الْجَذْبُ الشعرَ الجاهلي بِالْحَانِ مأساوية حزينة ، وأصبحت حيازة الماء

والسيطرة على مصادره مهمة شاقة يبذلون من أجلها الأرواح رخيصة . وقد عدَّ (أبو

ثمالة بن عازب الضَّبِّي) الماء (وطناً) يَذْخُرُ عنه الأعداء ، قال (١٢٤) :

رَدَّدْتُ لَضَبَّةً أَمْوَاهَا وَكَادَتْ بِلَادُهُمْ تُسْتَلَبُ

(١٢٠) الأَعْلَمُ الشُّتَمَرِي ، يوسف بن سليمان (ت ٥٧٦هـ) ، مختار الشعر الجاهلي ، نشر مصطفى

السقا ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٨٤م ، ص ٣٨٩ .

(١٢١) الخنساء ، تماضر بنت الشريد السلمي (. . . - ٢٤هـ) ، أنيس الجلساء ، ص ٢١ .

(١٢٢) الأَعْلَمُ الشُّتَمَرِي ، مختار الشعر الجاهلي ، ص ١٦١ .

(١٢٣) الخطيب التبريزي ، يحيى بن علي (٤٢١ - ٥٠٢هـ) ، شرح القصائد العشر ، مكتبة

صبيح ، القاهرة ، ١٣٦٧هـ ، ص ٣٥٩ .

(١٢٤) أبوتمام ، حبيب بن أوس الطائي ، ديوان الحساسة ، تعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ،

القاهرة ١٩٥٥م ، ص ٢٢٥ .

وكان النزاع على الماء من الأمور المألوفة في الحياة الجاهلية، ولا نبالغ إذا قلنا: إن أكثر حروب الجاهلية كانت من أجل الماء، فقد اقتتل (عَبَسَ وَكَلَبَ) على ماء يقال له: (عراعر)، فَقَتَلَتْ (عبس) من (كلب) جمعاً كثيراً، وفي هذا اليوم أنشد عنتر بن شداد قصيدته التي مطلعها (١٢٥):

ألا هل أتاهَا أنْ يومَ عراعر شفى سَقَمًا لو كانت النَّفْسُ تَشْفِي
ويشير (معاوية بن دومان في شعره إلى أسباب حرب (همدان) و(قضاة)، وكانت بسبب الماء، قال (١٢٦):

أراد طفيلٌ يَمْنَعُ الماءَ زَلَّةً ولم يك رأياً مَنْعُهُ الماءَ لو عَقَلُ
ففارقت البيضُ الخفافُ غُمودها ولاحت بأيديهم مصابيح كالشُّعْلُ
حسِبْتَ رجالاً أنْ تَجِفَّ حُلُوقُهَا وأنت على رِيٍّ وفي راحها الأسلُ
ومثل هذه الخصومات كثيرة في العصر الجاهلي (١٢٧):

ومن أجل الماء والكلاء عرفوا (نظام الحِمَى) إذ كان العزيزُ منهم إذا انتجع بلدًا مخصبًا أوفى بكلب على جبلٍ أو على نَشْرٍ من الأرض، ثم استعوى الكلب، ووقف له من يسمع منتهى صوته بالعواء، فحيث انتهى صوته حماه من كل ناحية لنفسه، ومنع الناس منه (١٢٨)، وفسروا بذلك المثل المعروف (أعزُّ من كليب وائل) (١٢٩).

(١٢٥) عنتر بن شداد العبسي (. . . - ٦١٤)، الديوان، تحقيق سيف الدين الكاتب، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨١م، ص ١٣٠.

(١٢٦) الهمدانيون، شعر همدان وأخبارها، جمع وتحقيق: حسن أبو ياسين، طبع دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م، ص ٣٠٨.

(١٢٧) أبو تمام، ديوان الحماسة، ج ١ ص ٨٧، و ٢٣٠، وج ٢ ص ٢٠٨.

(١٢٨) الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، بعناية محمد بهجة الأثري، ط ٢، المكتبة الأهلية بمصر، ١٩٢٤م، ج ٣ ص ٣٣.

(١٢٩) الميداني، أحمد بن محمد (٥١٨هـ)، مجمع الأمثال، طبع دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١م، ج ٣ ص ٣٢.

ولكليب حمى (ضَرِيَّة)، وفيه قبره، وهو أشهر الحميات وأُسَيرَها ذِكْراً. وقيل: هو حمى النَّير، قال ياقوت: وفيه قبر كليب بن وائل، وهو قرب (ضَرِيَّة) (١٣٠).

وسمى ياقوت الحموي أشهر الحميات في الجاهلية، وهي: حمى الرَبَذة، وضَرِيَّة، وفَيْد، والنَّير، وذِي الشَّرَى، والنَّقِيع (١٣١). ويرتبط الكلب بصاحب الحمى ارتباطاً يوحى باعتقاد جاهلي يؤدي إلى حُرمة الحِمَى وقديسيته.

قالوا: كان أحد ملوك حمير قد حمى حمى ولم يسمح لغير قومه بالرعي فيه، فأجذب (الراعي الهمداني) الشاعر، فحل فيه ورعاه، فبلغ ذلك صاحب الحِمَى، فبعث إليه جُنْداً من حمير، فطردهم الشاعر وهزمهم، وأنشد (١٣٢):

رَعَيْتُ حِمَى الْمَلِكِ الْمُتَّقَى فَرُمْتُ بِذَلِكَ أَمْرًا كَبِيرًا
فَأَسْمَنَ مِنَّا الْفَتَى مُهْرَهُ وَأَبْطَنَ ذُو الْمَالِ مِنَّا الْبَعِيرَا
فَوَجَّهَ فِي طَلْبِي حِمِيرًا فَوَلَّوْا غَدَاةَ تَقِينَا الظُّهُورَا
فَقَالُوا دَعُوا الْكَلْبَ يَرْعَى بِهِ فَقُلْتُ أَجْعَلُوا الْكَلْبَ كَلْبًا عَقُورَا

وكثيراً ما نرى العطشى - في الشعر الجاهلي - يهْجُمُونَ على الماء، والجوعى يصيحون، وهم يَتَحَدَّثُونَ أصحاب الحمى، فيبيحون حماهم، ويخلطون ماء الحِمَى بالذَّم. قال أوس بن حجر (١٣٣):

نُبِيحُ حِمَى ذِي الْعَزْحَيْنِ نُرِيدُهُ وَنَحْمِي حِمَانَا بِالْوَشِيحِ الْمُقُومِ

(١٣٠) ياقوت الحموي (٥٧٤-٦٢٦هـ)، معجم البلدان، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٥٥م، ج ٨، ص ٣٥٦.

(١٣١) المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٤٦، وج ٥ ص ٢٤٦، وج ٨ ص ٣١٢، و ٣٥٦، وابن منظور، جمال الدين بن جلال الدين الخزرجي (٦٣٠ - ٧٧١هـ)، لسان العرب، مادة (حمى).

(١٣٢) الهمدانيون، شعر همدان وأخبارها، ص ٢٥٦.

(١٣٣) أوس بن حجر (.. - قبيل الإسلام)، الديوان، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م، ص ١٢٤.

وقال عامر بن الطفيل (١٣٤):

ولكنني أحي جَاهَا وَأَتَقِي أَذَاهَا وَأُرْمِي مَنْ رَمَاهَا بِمَنْكَبٍ

وقال زيد بن عمرو التميمي (١٣٥):

ونرعى جَمَى الْأَقْوَامِ غَيْرَ مُحَرَّمٍ عَلَيْنَا وَلَا يُرعى هَمَانَا الَّذِي نَحْمِي

وقال سحيم بن وثيل (١٣٦):

وذادوا يَوْمَ طُخْفَةٍ عَنْ جَاهِهِمْ ذِيَادَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ النَّهَالِ

وربما اتخذ (الجمي) في الجاهلية الخاصة الروحية التي يتميز بها (التأب)، وهو المحرم أو المقدس الذي لا يجوز استباحته، أو الاعتداء عليه أو مسه (١٣٧).

(١٣٤) عامر بن الطفيل (. . - في عصر الرسول)، الديوان بشرح الأنباري، تحقيق: كرم

البستاني، دار صادر، بيروت، ١٩٦٣م، ص ١٣.

(١٣٥) بنو تميم: شعري تميم في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق: عبد الحميد المعيني، منشورات

نادي القصيم الأدبي، السعودية، ١٩٨٢م، ص ٢٥٥.

(١٣٦) المصدر السابق، ص ٢٦٦.

(١٣٧) حسن سعفان، علم الإنسان، طبعة مكتبة العرفان، بيروت، ١٩٦٦م، ص ٢٨١.

(٦) استطلاع المطر

ويأتي وصف المطر في الشعر الجاهلي ليعبر عن حاجات الأرواح العطشى لرحمة السماء، وكثيراً ما يكون تعبيراً جماعياً عن الرغبة في الطهر والنقاء والصفاء والقداسة، وهي رغبة تكون مستقلة عن الوعي الفردي الذاتي، وهي ليست وليدة العلم والإرادة الواعية؛ إنما هي وليدة الحدس الجماعي، والشعور القومي، والخيال البدوي القبلي، لذلك كان الموقف العاطفي العام في وصف المطر متوافقاً عند الشعراء الجاهليين؛ فالمعاني، والصور، والتراكيب، والمشاهد، والتعابير، والصيغ، والتشبيهات، والاستعارات، والأحداث لها حدود وأبعاد لا يكادون يتجاوزونها.

فالشعراء كلهم يستطلعون المطر، ويأرقون في ترقبه، ويعذبون في انتظاره، وينتحبون من أجله.

قال أبو ذؤيب الهذلي (١٣٨):

أَمْنَكَ بَرَقُ أَبَيْتِ اللَّيْلِ أَرْقُبُهُ كَأَنَّهُ فِي عَرَاضِ الشَّامِ مِصْبَاحُ
وَقَالَ أَيْضاً (١٣٩):

أَرْقُتُ لَهُ ذَاتَ الْعِشَاءِ كَأَنَّهُ مَخَارِيقُ يُدْعَى تَحْتَهُنَّ خَرِجُ
وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ (١٤٠):

(١٣٨) الهذليون، شرح أشعار الهذليين، ج ١ ص ١٦٧.

(١٣٩) المصدر السابق، ج ١ ص ١٢٨.

(١٤٠) عبيد بن الأبرص (.. - ٦٠٠م)، الديوان، تحقيق: حسين نصار، مصطفى البابي =

من عارض كبياض الصُّبح لَمَّاح
لُستَكفَّ بُعيدَ النَّومِ لَوَّاح

- يا من لبرق أبیت الليل أرقُبُهُ
- إني أرقْتُ ولم تأرق معي صاحي
وقال أيضاً (١٤١):

في مُكفَّهٍ وفي سوداء مَرُومَه

يا مَنْ لبرقِ أبیت الليل أرقُبُهُ
وقال أيضاً (١٤٢):

ذات العشاء في غمام غُرّ

صاح ترى برقاً بت أرقُبُهُ
وقال عبید بن الأبرص أيضاً (١٤٣):

تَلالاً في مُمْلأَةٍ غصاص

أرقْتُ لضوء برق في نَشاص
وقال امرؤ القيس (١٤٤):

كما تَكشَّف عنها البُلُقُ أَجْلالا
إذا قُلْتُ قد هَذَا اسْتَطَّارا
وبين إكامٍ بَعْدَ ما مُتَأَمَّل

- هل تأرقان لبرق بت أرقُبُهُ
- أرقْتُ له ونام أبو شريحٍ
- قَعَدْتُ له وصُحْبتي بين حامرٍ
وقال النابغة الذبياني (١٤٥):

يُضيء سَنَاهُ عن رُكامٍ مُنْضِدٍ

- أصاح ترى برقاً أريك وميضُهُ

= الخليلي، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٣٤.

(١٤١) عبید بن الأبرص، الديوان، ص ١٢٨.

(١٤٢) عبید بن الأبرص، الديوان، ص ٦٣.

(١٤٣) عبید بن الأبرص، الديوان، ص ٧٥.

(١٤٤) امرؤ القيس بن حجر الكندي (.. - ٥٤٠م)، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل

إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م، ص ٢٧١ وص ١٤٨ وص ٢٤.

(١٤٥) النابغة الذبياني، زياد بن معاوية (.. - ٦٠٤م)، الديوان، تحقيق: شكري فيصل، دار

الفكر، دمشق، ١٩٦٨، ص ٢٤٦، وص ١٨٧.

- أَرَقْتُ وَأَصْحَابِي قَعُودُ بَرَبُوءَةٍ لِبَرْقٍ تَلَالًا فِي تِهَامَةٍ لَامِعٍ
وقال خفاف بن ندبة (١٤٦):

- أَصَاحِ تَرَى الْبَرْقَ لَمْ يَغْتَمِضْ إِذَا زَعَزَعْتَهُ الْجَنُوبُ اسْتَطَارَا
- يَا هَلْ تَرَى الْبَرْقَ بَتُّ أَرْقُبُهُ فِي مُكْفَهَرٍ نَشَاصُهُ قَرْدُ
- فَدَعْ ذَا وَلَكِنْ هَلْ تَرَى ضَوْءَ بَارِقٍ يَضِيءُ حَبِيًّا فِي ذُرَى مُتَالِقِ
وقال طفيل الغنوي (١٤٧):

- أَصَاحِ تَرَى بَرْقًا أَرِيكَ وَمِيْضُهُ يُضِيءُ سِنَاهُ سُوقِ أَثَلٍ مُرْكَمِ
وقال سحيم عبد بني الحسحاس (١٤٨):

- أَصَاحِ تَرَى الْبَرْقَ لَمْ يَغْتَمِضْ يَضِيءُ كِفَافًا وَيَجْلُو كِفَافَا
- فَدَعْ ذَا وَلَكِنْ هَلْ تَرَى ضَوْءَ بَارِقٍ يَضِيءُ حَبِيًّا مُنْجِدًا مُتَعَالِيَا
وقال الأعشى الكبير (١٤٩):

- يَا مَنْ يَرَى عَارِضًا قَدْ بَتُّ أَرْقُبُهُ كَأَنَّمَا الْبَرْقُ فِي حَافَاتِهِ الشُّعْلُ
وقال لبید بن ربیعة (١٥٠):

(١٤٦) خفاف بن ندبة السلمي الأنصاري (ت في خلافة عمر بن الخطاب)، شعره، تحقيق:

نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م، ص ٨٧ وص ٨٥.

(١٤٧) الطفيل بن عوف الغنوي (؟)، الديوان، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب

الجديد، بيروت ١٩٦٨م، ص ٧٥.

(١٤٨) سحيم عبد بني الحسحاس الأسدي، (ت في خلافة عثمان)، الديوان، تحقيق: عبد العزيز

الميمني، دار الكتب المصرية ١٩٦٨م، ص ٤٦، وص ٣١.

(١٤٩) الأعشى الكبير، ميمون بن قيس (.. - ٦٢٤م)، الديوان، تحقيق: محمد محمد حسن،

مكتبة الآداب، مصر ١٩٥٠، ص ٩٣.

(١٥٠) لبید بن ربیعة العامري (٥٤٠ - ٦٦٥ - ٦٦٩م)، الديوان، تحقيق: د. إحسان عباس،

وزارة الإرشاد والأبناء، الكويت ١٩٦٢م، ص ٨٨، وص ٢٩.

- أصاح ترى بريقاً هبَّ وهناً
أرقت له وأنجد بعد هذء
- يا هل ترى البرق بت أرقبه
قعدت وحدي له وقال أبو
وقال المرقش الأصغر (١٥١):

أرقي الليل برق ناصب ولم يُعني على ذاك حيم
وقال حسان بن ثابت (١٥٢):

أرقت لتوماض البروق اللوامع ونحن نشاوى بين سلع وفارع
أرقت له حتى علمت مكانه بأكناف نخل فالتلاع الدوافع
ولست بحاجة إلى التذليل على أن الشاعر في الجاهلية كان واحداً من المسؤولين
عن صنع المطر وإنزاله، أو هو الحالب الذي يأرق حتى تدرناقة السماء (١٥٣)، فهذا أمر
صرح به أكثر الشعراء؛ لأن الشاعر القديم كان يقوم بدور الفنان المبدع، والساحر
المتنبئ، والفيلسوف الحكيم.

ويكاد الحديث عن الشهاد في مراقبة البرق والمطر بيننا الآخرين لا يكثر
يكون من الصور المكررة في الشعر الجاهلي؛ لأن هذه مهمة الشاعر الساحر: صانع
المطر (١٥٤).

(١٥١) التبريزي، يحيى بن علي (٤٢١ - ٥٠٢ هـ)، شرح المفضليات، تحقيق: علي البجاوي، دار
نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٧٧ م، ص ٢٤٨.

(١٥٢) حسان بن ثابت الأنصاري (. . - ٥٥٤ هـ)، الديوان، ص ٢٧٨.

(١٥٣) أنور أبو سويلم، الإبل في الشعر الجاهلي، دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣ م، ٢ مج، ج ١
ص ١٧٠.

ونصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى، عمان - الأردن،
١٩٧٦ م، ص ٦٨.

(١٥٤) نصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص ٦٨.

(٧) طقوس الاستمطار

ونحس - ونحن نقرأ الشعر الجاهلي في المطر - تلك الحمى التي تتتاب الشاعر وهو يرقب هذا الحدث الكوني العظيم : المطر، ويتتبع سُقوطه، والأماكن التي سالت بها رحمته، وكأنها كان نزول المطر نتيجة لترقبه وصلواته وسهره وأرقه ومتابعته وتأمله .

وقد استخدم العرب - دون غيرهم من الأمم - النار طقساً سحرياً لإنزال المطر، وسموها «نار الاستمطار»، ولهم فيها أساطير وحكايات وأشعار (١٥٥) . وقد أوهمنا الشعراء بهذا الطقس السحري، فأشعلوا النار في السحب المتراكمة على هيئة برق يلمع ؛ فالبرق :

«كمصباح الشَّعِيلَةِ في الدُّبَال» (١٥٦) .

أو «كما نَوَّرَ المصباح للعُجْم أمرهم» (١٥٧) .

(١٥٥) الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة مصطفى البايي الحلبي، القاهرة (دون تاريخ)، ٨ مج، ج ٤ ص ٤٦٦ . وأبو الريحان البيروني، محمد بن أحمد (ت ٤٤٠هـ)، الآثار الباقية من القرون الخالية، طبعة ليبزج ١٩٢٣م، ص ٢٢٨ . والنويري، شهاب الدين (ت ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٩، ٢٢ مج، ج ١، ص ١٠٩ . والقلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر (دون تاريخ)، ج ١ ص ٤٠٩ . وأمية بن أبي الصلت الثقفي (٨ هـ / ٦٢٩م)، الديوان، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٧م، ص ٢١٣ .

(١٥٦) لبید بن ربیعہ العامري (٥٤٠م - ٦٦٥ - ٦٦٩م)، الديوان، ص ٨٨ .

(١٥٧) الهذليون، شرح أشعار الهذليين، ج ١ ص ١٢٨ من قصيدة لأبي ذؤيب الهذلي .

و«كأنما البرق في حافاته الشُّعْل» (١٥٨) .

و«يلوح كأنه مصباحُ بانٍ» (١٥٩) .

و«البرق يحترق غاباً يُضَرِّمُهُ حريقُهُ» (١٦٠) .

ويفصح بعض الشعراء عن الدلالة الدينية في مراقبة البرق والمطر، فالمطر استُنزِلَ بفعل ابتهالات ذلك السيد المدبر الموقر المهيب:

«الراهب المتعبد» أو «الحَبْرُ الْمُتَهَجِّدُ» ؛ لذلك كان سَنَاهُ ك:

«مصاييح راهب أَهَانَ السَّلِيْطَ فِي الدُّبَالِ الْمُفْتَلِّ» (١٦١) .

والبرق «أَغَرَّ كَمَصْبَاحِ الْيَهُودِ دُلُوجُ» (١٦٢) .

(٨) صورة المطر في الفكر الجاهلي

والمطر حَدَث كوني عظيم، لا يَدِرُّ إلا بعد جُهد إنساني كبير، ومراقبة مُضنية، وسهر مؤلم.

ولا يولد المطر إلا بعد إلحاق وإخصاب وتزاوج؛ رياح الصَّبَا الرقيقة أو الرياح الجنوبية المُخصبة تُلقح الشُّبب العَجفاء فيمتلئ بطنها بالمطر. وتتم الولادة العسيرة بعد تعب، ونَصَب، وسَهَر، وعذاب، وتَضَرُّع، وتوسل، وأدعية، وابتهالات، فيدر الضَّرْع العظيم بروح الحياة، وتحلب الرياح السحاب حلباً، أو تُمرِّيه مَرِيّاً، كما يحلب الأجير النوق، برفق وريث وتؤدة، يُسُّ لها حتى تَدِرَّ عروق ضروعها.

قال عبيد بن الأبرص (١٦٣):

جَوْنٌ تُكَرِّرُهُ الصَّبَا وَهَنًا وَتَمْرِيه خَرِيقُهُ
مَرِيَّ العَسِيفِ عِشَارُهُ حَتَّى إِذَا دَرَّتْ عُروُوقُهُ

(١٥٨) الأعشى الكبير، ميمون بن قيس (.. - ٦٢٤م)، الديوان، ص ٩٣.

(١٥٩) عمرو بن معديكرب الزبيدي (.. - ٢١هـ / ٦٤٣م)، شعره، تحقيق: مطاع الطرابيشي،

مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٤م، ص ١٦٤.

(١٦٠) عبيد بن الأبرص (.. - ٦٠٠م)، الديوان، ص ٨٩.

(١٦١) امرؤ القيس بن حجر الكندي (.. - ٥٤٠م)، الديوان، ص ٤٤.

(١٦٢) أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، ج ١ ص ١٢٨.

(١٦٣) عبيد بن الأبرص (.. - ٦٠٠م)، الديوان، ص ٨٩.

وقال امرؤ القيس (١٦٤) :

- أَبَسْتُ بِهِ الرِّيحَ فَاسْتَاقَهَا وَحَلَّتْ عَزَالِيَهُ وَالْجُلُودَا
- رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثَمَّ انْتَحَى فِيهِ شُؤْبُوبُ جَنُوبٍ مِنْ فَجَرٍ

وقال عمرو بن قميئة (١٦٥) :

مُتَحَلِّبٌ تَهْوَى الْجَنُوبَ بِهِ فَتَكَادُ يَعْدِلُهُ وَيَنْجَفِلُ

وقال طفيل الغنوي (١٦٦) :

أَبَسْتُ بِهِ رِيحَ الْجَنُوبِ فَأَسْعَدْتُ رَوَايَا لَهُ بِالْمَاءِ لَمَّا تَصَرَّمُ

وقال سحيم (١٦٧) :

مَرَّتْهُ الصَّبَا وَانْتَحَتْهُ الْجَنُوبُ بُوْتُ تَطْحَرُ عَنْهُ جَهَامًا خَفَافًا

وقال خفاف بن ندبة (١٦٨) :

إِذَا مَا مَرَّتْهُ رِيحُ يَمَانِيَّةٍ يَرُدُّ رِيْعَانَهُ إِلَى نَضْدِ

وَيُعَبِّرُ «عمر بن معديكرب» عن هذه الفكرة تعبيراً رمزياً دقيقاً، إذ يشبه البرق عندما يلمع في عتمة السُحب بمصباح رجل يمانى بنى بعرسه، قال (١٦٩) :

أَلَمْ تَأْرُقْ لَذَا الْبَرْقِ الْيَمَانِي يَلُوحُ كَأَنَّهُ مَصْبَاحُ بَانِ

(١٦٤) امرؤ القيس بن حجر الكندي (. . - ٥٤٠م)، الديوان، ص ٢٥٢، وص ١٤٤.

(١٦٥) عمرو بن قميئة (جاهلي قديم)، الديوان، ص ٩٤.

(١٦٦) الطفيل بن عوف الغنوي، الديوان، ص ١٦٦.

(١٦٧) سحيم عبد بني الحسحاس، (ت في خلافة عثمان)، الديوان، ص ٨٥.

(١٦٨) خفاف بن ندبة السلمي، (ت في خلافة عمر)، شعره، ص ٨٥.

(١٦٩) عمرو بن معديكرب الزبيدي (. . - ٢١هـ / ٦٤٣م)، شعره، حققه: مطاع الطرايشي،

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٧٤م، ص ١٦٤.

وَبَعْدَ الْإِخْصَابِ وَالْإِلْقَاحِ تَأْتِي الْوَلَادَةُ سَهْلَةً ميسورة، قال سبيع بن الخطيم التيمي (١٧٠):

حَلَّتْ بِهِ بَعْدَ الْهُدُوِّ نَطَاقُهَا مِسْعٌ مُسَهِّلَةُ التَّجَاجِ زُخُوفٌ (١٧١)
ولا نستطيع أن نلغي من أذهاننا فكرة إخصاب السُّحْبِ وولادة المطر في هذه الصورة التي يرسمها أيضاً «سحيم عبد بني الحسحاس»؛ فالنوق يصيبها المخاض أثناءه، ويلدن بعد أن تُشَقَّ «السَّابِياء» عن رأس الفصيل كما تفتق السماء بالمطر، قال (١٧٢):

لَهُ فُرْقٌ جَوْنٌ يُنْتَجَنُ حَوْلَهُ يُفَقِّتُنَ بِالْمَيْثِ الدَّمَائِ السَّوَابِيَا (١٧٣)
ويتلو البرق رعدٌ يهزُّ الكون هزّاً، فيثير القلق والتوجُّس والخوف والأرق، والرَّعد في الفكر الميثوبي (١٧٤) ليس شحنات كهربائية - كما يقول علماء الطبيعة - إنما هو فحلٌّ هائج يهدر فتتبعه إنائه، قال أبو ذؤيب الهذلي (١٧٥):

يَجْشُرُ رَعْدًا كَهَذْرِ الْفَحْلِ تَتَّبِعُهُ أَذْمٌ تَعَطَّفُ حَوْلَ الْفَحْلِ ضَحْضَاحٍ
فَهْنٌ صُعْرٌ إِلَى هَذْرِ الْفَنِيقِ وَلَمْ يَجْفُرْ وَلَمْ يُسَلِّهِ عَنْهُنَّ الْقَاحُ (١٧٦)
وهذا التشبيه له دلالة رمزية على فكرة الإخصاب والإلقاح وولادة المطر. قال

(١٧٠) المفضليات، ص ٣٧٤.

(١٧١) النطاق: شقة تلبسها المرأة تشد بها وسطها.

المسح: ريح الجنوب أو الشمال. زخوف: تزحف ببطء.

(١٧٢) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص ٣١.

(١٧٣) الفُرْق: جمع فارق، وهي الناقة التي يصيبها المخاض فتند في الأرض لتضع، الميث والدماث: الأرض اللينة. السابياء: الماء الذي يكون على رأس الولد.

(١٧٤) الفكر الميثوبي: صانع الأساطير، منحوت من الميثولوجيا.

(١٧٥) أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، ج ١ ص ١٦٧.

(١٧٦) يجفر: تذهب غلمته.

سحيم (١٧٧):

يُكْبُ العِضَاءَ لِأَذْقَانِهَا كَكَبِّ الْفَنِيقِ اللَّقَاحِ الْعِجَافَا
وأحياناً نسمع في الشُّحْبِ أصوات النوق العشار الحوامل المتلبدة الشعر، أوتلك
التي تدفع بفُضْلَانِهَا خوفاً، وتدعوهم بحناجر مبحوحة حيناً، قال عبيد بن
الأبرص (١٧٨):

كَأَنَّ فِيهِ عِشَاراً جِلَّةً شُرْفَاً شُعْثاً لَهَا مِيمٌ قَدْ هَمَّتْ بِإِرْشَاحِ
بُحَا حَنَاجِرِهَا هُذْلاً مَشَافِرُهَا تَسِيمٌ أَوْلَادَهَا فِي قَرْقَرٍ ضَاحِي
إِرَادَةِ الْإِخْصَابِ وَاضِحَةً هُنَا، وَالشُّعْرَاءُ تَحْدُوهُمْ رَغْبَةً مَلْحَةً لَتَلْقِي الْمَطْرَكِي
تَخْصِبُ الْأَرْضَ، وَتَخْصِبُ النُّوقَ، فَيَعِمُّ الْأَمْنُ وَالسَّلَامُ وَالِاسْتِقْرَارُ، وَيَتَبَعِدُ شَبَحُ
الْجُوعِ وَالْمَرَضِ وَالْمَوْتِ. وَالْقَعُودُ لِلْمَطَرِ وَتَرْقُبُهُ، وَاسْتِخْدَامُ الطَّلَاسِمِ لِمُاسْتِزَالِهِ،
وَالْجُهُودُ الَّتِي تَبْذُلُ مِنْ أَجْلِهِ تَتَحَقَّقُ، وَيَنْتَصِرُ الشَّاعِرُ، وَدَلَائِلُ فَوْزِ الشَّاعِرِ فِي تَرْقُبِهِ
وَتَوْسُّلَاتِهِ وَطُقُوسِهِ هِيَ نَفْسُهَا دَلَائِلُ فَوْزِ الْمَيَاسِرِ عِنْدَمَا تَلْمَعُ أَكْفُهُ بِالنَّجَاحِ وَالِانْتِصَارِ:
قال امرؤ القيس (١٧٩):

وَتَخْرُجُ مِنْهُ لَامِعَاتُ كَأَنَّهَا أَكْفٌ تَلْقَى الْفَوْزَ عِنْدَ الْمَفِيزِ
ويعبر امرؤ القيس عن هذه الفكرة بصورة أخرى، فيقول (١٨٠):

أَصَاحُ تَرَى بَرْقاً أَرِيكَ وَمِضْهَ كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلٍ
يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحَ رَاهِبٍ أَهَانَ السَّلِيْطَ فِي الذُّبَالِ الْمُفْتَلِّ

(١٧٧) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص ٤٦.

(١٧٨) عبيد بن الأبرص (.. - ٦٠٠م)، الديوان، ص ٣٤، من قصيدة منسوبة أيضاً لأوس بن حجر، الديوان، ص ١٧.

(١٧٩) امرؤ القيس بن حجر (.. - ٥٤٠م)، الديوان، ص ٧٢.

(١٨٠) المصدر السابق، ص ٢٤.

البرق يُشبهه في تحركه تحرك اليدين ، أو مصاييح الرهبان التي يُصَبُّ الزيت عليها، وبعبارة أخرى: حينها هياً الراهب المصباح سقط المطر، فالمطر استجابة لدعوات راهب عظيم، ويمكن أن نرى تقلب الكفين سمة من سماته أيضاً، ويبدو أن مصباح الراهب وتقلب الكفين أعانا على ولادة المطر، فالولادة ظاهرة في قول امرئ القيس: إن السحاب متراكم، يشبه أعلاه الإكليل، وقد لمع البرق وتلألأ في أثنائه. هذه صورة واضحة الدلالة على فعل الانبثاق العظيم، وليس عندي شك في أن المعنى الروحي لولادة المطر قد فهمه شعراء العربية (١٨١).

ويتابع الشعراء بشوق ولهفة نزول المطر، فتتحقق الأمنيات، ويصح التقدير، ويصيب التنبؤ، فالزن الثقل يَبْرُكُ «بَيْنَ تَضَارِعٍ وَشَابَةِ» (١٨٢). ويحلُّ بَرَكُهُ «بِأَسْفَلِ ذِي رَيْدٍ» (١٨٣).

ويضيق به «عَرَضُ خَيْمٍ، فَجُفَافٍ، فَيْسُرٍ» (١٨٤)، و«تِيَاءٍ، وَجِبِلُّ أَبَانَ، وَصَحْرَاءِ الْغَبِيطِ، وَقَطَنَ، وَالسُّتَارِ، وَيَذْبُلُ، وَيَيْسَانُ» (١٨٥). والمطر جَادَ «شَرُورًا فَالسُّتَارِ»، وَأَصَابَ «جِبِلَّ يَعَارٍ» (١٨٦). وَأَسْفَفَ عَلَى «الْأَفْلَاجِ وَتَحَارِمِ سَمْسَمٍ» (١٨٧).

(١٨١) مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، ليبيا، (دون تاريخ)، ص ١٢٦ وما بعدها.

(١٨٢) أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، ج ١ ص ١٢٨.

(١٨٣) عبيد بن الأبرص (.. - ٦٠٠م)، الديوان، ص ٦٣.

(١٨٤) امر القيس بن حجر، الديوان، ص ١٤٦.

(١٨٥) المصدر السابق، ص ٢٤.

(١٨٦) خفاف بن ندبة السلمي، الأصمعيات، تحقيق: عبد السلام هارون، وأحمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦.

(١٨٧) الطفيل الغنوي، الديوان، ص ٧٥.

وَحَطَّ بَرْكُهُ «بذي بَقَرٍ»^(١٨٨)، ومر على الأَجبال «أَجبال طَيِّءٍ»^(١٨٩).

وجاد سواريه «بالجَوْ فالأَمَرات، فبضارج، فقصيمة»^(١٩٠).

ومسقطه على «نمار، فبطن الحال، فالعسجدية، فالأبلاء، فالرَّجل»^(١٩١).

وأصبح راسياً بـ «صَاحَة، والأَعراض، وأُثال، والبَقَّار»^(١٩٢).

وَرَوَى «ضَارِجاً، فذات خَيْم، فَحَزَّة، فالدافع من قنان»^(١٩٣).

وتتردد أسماء الأماكن التي جادها المطر في الشعر الجاهلي تردداً واسعاً، ويحددها الشعراء تحديداً - يبدو في ظاهره - دقيقاً، وكأنها يسعى الشاعر الجاهلي لإنزال المطر في الجزيرة كلها، ويسرف الشعراء الجاهليون في تتبع الأماكن التي جرفتها السيول وأغرقتها، أو تلك التي حط بها المطر بركه، وكأنها يستوعب قلب الشاعر كل مكان في الجزيرة العربية، وتبدو المواضع المتناثرة المتباعدة مؤلفة تأليفاً عاطفياً في روح الشاعر، ومنظمة تنظيماً دقيقاً في ذهنه، مما يدل على أن الشاعر الجاهلي كان ينظر إلى الكون نظرة كلية شمولية، لا نظرة جزئية فردية ضيقة.

وكانت الولادة العظمى، والحدث الكوني الهائل؛ تدفَّق المطر فأحدث انقلاباً وتغييراً؛ فأحيا، وأهلك، وأغرق، ودَمَّر، وشَرَّد، وأرَعَب، وطَهَّر، وأنبت، وهَدَّم.

قال امرؤ القيس^(١٩٤):

وأضحى يَسُحُّ الماء عن كلِّ فَيْقَةٍ يَكُبُّ على الأَذقان دَوَحَ الكَنهَيْلِ

(١٨٨) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص ٤٦.

(١٨٩) المصدر السابق، ص ٣١.

(١٩٠) الأسود بن يعفر، الأصمعيات، ص ٢١٩.

(١٩١) الأعشى الكبير (.. - ٦٢٤م)، الديوان، ص ٩٣.

(١٩٢) لبيد بن ربيعة العامري (٥٤٠م - ٦٦٥ - ٦٦٩م)، الديوان ص ٨٨ - ٩٣.

(١٩٣) عمرو بن معديكرب الزبيدي (.. - ٢١هـ / ٦٤٣م)، شعره، ص ١٦٤.

(١٩٤) امرؤ القيس بن حجر، الديوان، ص ٢٤.

وتيماء لم يترك بها جذع نخلةٍ ولا أطماً إلا مشيداً بجندل

وقال سحيم عبد بني الحسحاس (١٩٥):

يكبُّ العضاء لأذقانها ككبُّ الفنيق اللقاح العجافا

وقال لبيد بن ربيعة (١٩٦):

أقول وصوبه مني بعيد يحطُّ الشث من قُلل الجبال
أما الضباب التي احترق دماغها من حرِّ الصحراء، عندما يفاجئها المطر،
تخرج من جحورها مذعورة، وتبحث عن ملجأ أكثر أمناً.

قال امرؤ القيس (١٩٧):

- وترى الضبَّ خفيفاً ماهراً ثانياً برثنه ما ينعفر
- وأضحى يسح الماء عن كل فيقة يحورُ الضباب في صفاصف بيض

وقال خفاف (١٩٨):

كأن الضباب بالصحارى عشيّة رجال دَعَاها مُستَضيف لمُوسق
والماء المتدفق يحطُّ الوحوش من ذراها (١٩٩)، ويُغرق الثيران الوحشية (٢٠٠)، ويُحدر
العُصم من الجبال إلى السهول (٢٠١)، ويستخرج الذئب من حجره والعقاب من

(١٩٥) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص ٤٦.

(١٩٦) لبيد بن ربيعة العامري (٥٤٠ م - ٦٦٥ - ٦٦٩ م)، الديوان، ص ٨٨.

(١٩٧) امرؤ القيس بن حجر (.. - ٥٤٠ م)، الديوان ص ٤٤، وص ٧٢.

(١٩٨) خفاف بن ندبة السلمي، الأصمعيات، ص ٢٥.

(١٩٩) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، ص ٨٨.

(٢٠٠) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص ٢٩.

(٢٠١) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، ص ٢٩.

وكرها^(٢٠٢)، ويهتك بيوت البقر الوحشي^(٢٠٣)، فتبكي الضفادع وتنق وترجع لحناً حزيناً^(٢٠٤).

وينشر المطر في الأرض بروداً مُنمّمة من نسج بُصرى والمدائن^(٢٠٥).

وتتزين الصحراء العارية بوشي عبّقري من النور والزهر والعشب^(٢٠٦).

وتتحول الطبيعة رسماً بديعاً ولوحةً بألوان زاهية كألوان الهوادج والرحال^(٢٠٧)،

فتأتي الوحوش تحج إلى موضع المطر، قال سحيم عبد بني الحسحاس^(٢٠٨):

كَأَنَّ الْوَحُوشَ بِهِ عَسَقْلًا نَصَادَفَ فِي قَرْنٍ حَجٍّ دِيَاْفَا^(٢٠٩)

وليس هناك ما هو أكثر جاذبية من وصف المطر في الشعر الجاهلي، لأن المطر أهم ما أقلق الشاعر الجاهلي وأحزنه، ولأن المطر - في الصحراء الكنود العقيم - أغلى من الدرّ، وأنفع من العسجد، ولأن المطر أجمل ما في حياة العربي وأقساه، فكان ينبع إلهامه، وسرّفه وسخره، ولأن المطر يأتي من «مصادر» غامضة بالنسبة إليه، فلا يستطيع توجيهه، أو التحكم فيه، أو السيطرة عليه، فقد يأتي رحيماً رفيقاً، فيكون له نعمة ورحمة، وقد يأتي عنيفاً رهيباً، فيكون له نقمة وعذاباً. . ولأن موقف الشاعر من المطر دائماً موقف التذلل والتضرّع ممزوجاً بالعشق والوجد، والرغبة والرغبة.

(٢٠٢) خفاف بن ندبة السلمي، الأصمعيات، ص ٢٥.

(٢٠٣) سلامة بن جندل، الديوان، ص ١٣٦.

(٢٠٤) أبو فؤاد الهذلي، شرح أشعار الهذليين، ج ١ ص ١٢٨.

(٢٠٥) سلامة بن جندل، الديوان، ص ١٣٦.

(٢٠٦) ليبد بن ربيعة، الديوان، ص ١١.

(٢٠٧) ليبد بن ربيعة، الديوان، ص ١١.

(٢٠٨) سحيم، الديوان، ص ٤٦.

(٢٠٩) عسقلان: سوق كانت النصارى تحجه كل سنة في الجاهلية. دياف: موضع في الجزيرة

العربية، والدياف: فحل النوق أيضاً.

ولأن المطريّ تصل اتّصالاً متيناً بوجوده، ووجود نعمه وماشيته، ويعني بالنسبة إليه
 نحو الحياة وتجديدها، والخلاص والتطهير، ويعني أيضاً البقاء أو الفناء، والحياة أو
 الموت.

يقول لبيد بن ربيعة (٢١٠):

<p>كمصباح الشَّعِيلَةِ في الذُّبَالِ وَأَصْحَابِي عَلَى شُعْبِ الرُّحَالِ قِيَاماً بِالْحِرَابِ وَبِالْإِلَالِ وَأَنْوَاحاً عَلَيْهِنَّ الْمَالِ مُجَوِّفَةً تَذُبُّ عَنِ السُّخَالِ وَسَالِ بِهِ الْخَمَائِلُ فِي الرِّمَالِ كَانَ وَعُوهَا رُمُكُ الْجَمَالِ وَأَيْسَرُهُ عَلَى كُورِي أَثَالِ سَرِيعاً صَوْبُهُ سَرِبُ الْعَزَالِ مِنَ الْبَقَارِ كَالْعَمِدِ الثَّفَالِ يُحِطُّ الشَّتُّ مِنْ قُلُلِ الْجِبَالِ نَمِيراً وَالْقَبَائِلُ مِنْ هَلَالِ بِلَا وَبِلَا، سُمِّيَ، وَلَا وَبَالَ (٢١١)</p>	<p>أَصَاحُ تَرَى بَرِيقاً هَبَّ وَهْنَا أَرِقْتُ لَهُ وَأَنْجَدُ بَعْدَ هَذِهِ يُضِيءُ رِبَابُهُ فِي الْمُزْنِ حُبْشاً كَانَ مُصَفَّحَاتٍ فِي ذُرَاهِ فَأَفْرَعَ فِي الرِّبَابِ يَقُودُ بُلُقَا وَأَصْبَحَ رَاسِياً بِرُضَامِ دَهْرٍ وَحَطَّ وَحُوشَ صَاحَةٍ مِنْ ذُرَاهَا عَلَى الْأَعْرَاضِ أَيْمَنْ جَانِبِيهِ وَأَرْدَفَ مُزْنُهُ الْمَلْحِينَ وَبِلَا فَبَاتَ السَّيْلُ يَرْكَبُ جَانِبِيهِ أَقُولُ، وَصَوْبُهُ مِنِّي بَعِيدُ سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى رَعْوُهُ مَرْبَعاً وَتَضَيَّفُوهُ</p>
--	--

(٢١٠) لبيد بن ربيعة، الديوان، ص ٨٨ - ٩٣.

(٢١١) هب: لمع. الشعيلة: النار. الذُّبَالَة: الفتيلة. أنجد: ارتفع في نجد. الرباب: السحاب
 المعلق. الإلال: الحراب. المُصَفَّحَات: الإبل التي صفحت عن أولادها، أي عزلت عنها.
 المآلي: الخرق. أفرع: هبط. الرباب: موضع. تذب: ترمع. الرضام: حجارة. صاحة:
 جبل. رمك: سود. الأعراض: القرى. أثال: اسم جبل. وبلاً: مطراً. الغزالي: مصب
 المزادة. العمدة: الذي يشتكي سنامه. الثفال: البطيء الذي لا ينبعث. البقار: واد. =

لا نستطيع أن نلغي من ذهننا - ونحن نقرأ هذه الأبيات - صورة النار السحرية التي كان يشعلها عرب الجاهلية لاستئزال المطر. . لذلك كان الشاعر «يشعل المصباح» ويأرق ويقلق وينتظر، والقوم يستطلعون على «شعب الرّحال» متحفّزين متعبين متوثّبين، لكنّ أملهم في سقوط المطر كان كبيراً.

وقد نرى النواح من أجل المطر في صورة تلك النساء النائحات المُلثَّات اللاتي قد بلّ الدَّمْعُ أو المطر أثوابهنّ الرّتّة، أو أولئك الحبّشان السّحرة الذين يريدون أن يستنزلوا المطر غنوة بقسيّهم وجراهم.

ونرى البكاء من أجل المطر في صورة تلك النوق المجذبة التي عُزلت عن أولادها كي لا تهزل وتضعف، فهي لذلك تضحّج وتُخَوّر وتستغيث وتتوسّل.

والمطر يغسل الأرض ويطهرها، ويغيّر معالمها؛ فيحطّ الوحوش من الدّري، ويسحق الشّجر من قُلل الجبال، ويكون سيولاً عاتية، لا تُبقي ولا تذر.

وتُطلّ من بُعد الجبال شامخة صامدة في وجه هذا الطّوفان الكوني المدّمّر، الذي أروى ودّمّر، وأسقى وهتك، وأنبت وأغرق، والذي يُكسِبُ الإنسان صفاءً ونقاءً وطُهرًا، ويكسِبُ الموجودات رونقاً وحياة وشباباً.

= الشث: شجر من شجر السراة. مجد: أم كلاب وكعب وعامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، سمي: أراد سماء.

الفصل الثاني

الاستسقاء في السعد والجاهلي

الاستسقاء بالنجوم - التحكم في المطر بوساطة السحر - حجر المطر

الفرس والمطر - الاستحمام والمطر - غسل الثياب والمطر

طقوس أخرى - بيوت الله والمطر - الاستسقاء بالأنبياء والأولياء

والقديسين - الاستسقاء بالموتى - صانع المطر - الشعراء والمطر

النار السحرية والمطر - نور الوحش والمطر

(١) الاستسقاء بالنجوم

وقف الشاعر الجاهلي من المطر موقف التذلل والتضرُّع ، وموقف العشق والوجد ، والرَّغبة والرَّهبة ، وأحسَّ القلق والأرق والهيبة والخوف ، والتَّوتر والسُّهاد ، وهويترقب سقوط المطر في عتمة الليل ، وأخذته الفرحة والنَّشوة وهويستقبل المطر المنثور كالدر . وقد يأتي المطر رحيماً رفيقاً فيكون له نعمة ورحمة ، وقد يأتي عنيفاً رهيباً فيكون له نقمة وعذاباً ، ولعل جانب العُنف والغضب كان أكثر شيوعاً من جانب الرِّفق والرحمة ، إذ يتكرَّر في الشعر الجاهلي منظر المطر وهو يحيل الكَوْن طُوفاناً مدمراً ، وسيولاً عارمة ، وانقلاباً كونياً يهدم ويقلع ويُغرق ويُدمر من جهة ، ويحيي وينبت وينعش ويُفرح من جهة أخرى^(١).

-
- (١) انظر شعرهم في ذلك : أبو ذؤيب الهذلي ، شرح أشعار الهذليين ، تحقيق : عبد الستار فراج ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، ج ١ ص ١٢٨ وما بعدها .
وعبيد بن الأبرص ، الديوان ، تحقيق : د . حسن نصار ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٧م ، ص ٧٢ - ٧٦ ، وص ٣٤ .
وأوس بن حجر ، الديوان ، تحقيق : د . محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٧م ، ص ١٣ - ١٧ .
وامروء القيس ، الديوان ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ ، ص ٢٤ ، وص ١٤٤ .
وديوان لبيد بن ربيعة ، تحقيق : د . إحسان عباس ، وزارة الإرشاد ، الكويت ، ١٩٦٢م ، ص ٢٩ ، وص ٨٨ ، وص ١١١ .
وديوان سحيم عبد بني الحسحاس ، تحقيق : عبد العزيز الميمني ، دار الكتب المصرية ، =

غير أن وطأة القحط والمحل رهيبة مفزعة، إذ أن انحباس المطر يحيل الحياة في الصحراء العربية شقاء وعذاباً وشحاً وجوعاً وفقراً ورُعباً، وما إن يأتي شَبَحُ القحط في الصحراء العقيم حتى يخيّم في القلوب الدُّعْر والخوف، والهلع والفزع، وتلمع العيون بالشرّ والتهديد... الفقير يتحفّز للغارة، والغنيّ يستعدُّ للهجرة، وذئاب الصحراء تحيل الأمن حرباً لا تنتهي .

لذلك سعى الإذنان القديم إلى استرضاء القوى الخفية التي تتحكم في سقوط المطر، وإلى التوسُّل والتضرُّع والتذلُّل، والبكاء والتعاويد، والسحر، وتقديم القرابين، والصلوات .

وكان الاستسقاء بالنجوم من أهمّ معتقدات الجاهليين، فقد جعلوا المطر فعلاً للكواكب وحادثاً عنها، ونسبوا الأمطار والرياح إلى السَّاقط والطارع من النجوم، وأضافوا الغيث إلى الكواكب، فقالوا مطرنا بنوء كذا . . . قال ابن سيده^(٢) :

«وإنما جاء حمدهم بعض الأنواء وذمهم بعضاً من قبَل مواقع الأمطار التي تكون في أيامها، فأَيُّ كوكب جاء وقت نَوّته، فصادف المطر الذي يكون فيه من الزمان ومن البلد موافقة ونجع، فتبين خيره ونفعه، حمدوا ذلك النوء، وأضافوا حمده إلى الكواكب، ونوّهوا به، وإلا يكن ذلك ذمّوه، وسمّوا نوءه به، حتى كان الفعل في ذلك فعل الكواكب، ولما جرّبوا هذه الأمور في القديم، وطال اختبارهم لها، فوجدوها ثابتة في مراتبها، ألزموها الكواكب ذلك» .

وهذا التعليل يتناسى التراث الدّيني الجاهلي الذي كانت عبادة الكواكب فيه

= ١٩٦٨م، ص ٣١، و ص ٤٦ .

وسلامة بن جندل، الديوان، تحقيق: فخر الدين قباوة، طبعة حلب، ١٩٦٩م، ص ١٣٦ .

(٢) ابن سيده، كتاب الأنواء، ص ٨٢، ضمن كتاب المخصص، طبع المكتب التجاري، بيروت، (دون تاريخ) .

جزءاً أساسياً من ذلك المعتقد، ومن ثمَّ كان إيمانهم بأنَّ المطر من صنع الأنواء^(٣)، لذلك جاء في الحديث النبوي الشريف: «ثلاث من أمور الجاهلية: الطَّعن في الأنساب، والنِّياحة، والاستسقاء بالأنواء»^(٤).

والنَّوء يرتبط في اعتقادهم بفعل الكواكب المؤثِّرة، فهي التي تصنع السحاب وترسل الرياح وتأتي بالمطر، كما قال بشر بن أبي خازم الأسدي^(٥):

جاءت له الدَّلُّ والشَّعْرى ونَوَّؤُهما بكلِّ أسْحَمَ داني الودق مرتجف
وقد ربط «الأسود بن يعفر» بين همومه ومصائبه ومشكلاته وبين يوم مولده وما فيه من أنواء، قال^(٦):

ولدت بحادي النِّجم يتلو قرينه وبالقلب قلب العقرب المتوقِّد
فنوء الدبران أو المجدح مذموم، ويسمى أيضاً «الحادي» و«الراعي»، وفي المثل:
«إذا طلعت الدبران، ييست الغدران، وتوقَّدت الحزان، وكرهت النيران»، وإنَّما ذموا بعض الأنواء لعقمها وشدة بردها وقلة مطرها. ومن شر الأنواء: البطين، والهنعة، والهنعة أو (الجوزاء)، والدبران أو (الحادي)، والزُّباني، والإكليل، والقلب، والشَّوْلة وهي في برج «العقرب»، ومن الأنواء المحمودة الخيرة: الشرطان، والثريا،

(٣) الأنواء المحمودة بالمطر، هي: الشرطان، والثريا، والشعريان، والمرزمان، والسمكان، ونوء الزباني، والإكليل، والقلب، والسعود الأربعة: الذابح وبلع والأخبية والسعود، ونوء الخوت، والجنبة. ابن قتيبة، الأنواء في مواسم العرب، طبع حيدرآباد، الدكن، الهند، ١٩٥٦م، ص ٣٢ وما بعدها، وابن الأجدابي، الأزمنة والأنواء، تحقيق: عزة حسن، دمشق، ١٩٦٤م، ج ٢ ص ٢٥٤ وما بعدها.

(٤) ابن الأجدابي، الأزمنة والأنواء: ج ١ ص ١٣٦، ومحمد السفاريني الحنبلي، ثلاثيات مسند الإمام أحمد، ج ٢ ص ٩٣٣، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٣٨٠هـ.

(٥) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، تحقيق: د. عزة حسن، دمشق، ١٩٦٠م، ص ٥٧.

(٦) الأسود بن يعفر النهشلي (.. - ٦٠٠م)، الديوان، تحقيق: نوري القيسي، بغداد، ١٩٧٠م، ص ٢٢.

والشعريان، والسماكان، والنعائم، والبلدة، والسُعود الأربعة: الذابح وبلع والأخبية والسعود، وفرعا كوكبة الدلو الأعلى والأسفل، ونوء الحوت. . وإِنَّها حمدوها لغزارة أمطارها، وطيب هوائها، وكثرة خيراتها وثمارها.

وفي المعتقد الجاهلي كان للكواكب الدور الأول في تقرير مصير الناس والتحكُّم في حياتهم ورزقهم، وإرسال السحب والمطر، ولا ريب أنَّ الصِّلَة واضحة بين هذا المعتقد وبين الجبرية الفلكية البابلية^(٧).

وتحول هذا الاعتقاد الغيبي إلى علم سماه «طاش كبري زاده» بـ «علم نزول الغيث»، قال^(٨): «وهو علم يتعرَّف به كيفية الاستدلال على المطر بأحوال البروق والسحب والرياح، وأخصُّ الناس بهذا العلم العرب، لاشتداد حاجتهم إلى الغيث التي بها حصول معائشهم من السقي والرعي، ودليله السَّحب بحسب مواضعها أو رِقَّتْها وكثافتها، أو ألوانها، وكيفية أحوال الرياح والبروق».

وكان يصاحب هذا العلم طقوس شعبية، وممارسات خاصة عند عامة الناس فيها شعوذة وسحر، وقد أشار الزبيدي إلى دعاء الصبيان في البادية إذا استسقوا وهو «المُطَيَّرِي»، قال ابن شميل: من دعاء صبيان الأعراب إذا رأوا حالاً للمطر: «مُطَيَّرِي»^(٩).

(٧) د. نوري القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٦٤ -

٦٦، ومصطفى الجوزو، من الأساطير العربية والخرافات، ص ٢٨.

(٨) طاش كبري زاده، مفتاح السعادة، ج ١ ص ٣٥٦.

(٩) الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية بمصر، ١٣٠٦هـ، مادة (مطر).

(٢) التحكم في المطر بوساطة السحر

وقد وقف الإنسان منذ القدم أمام الظواهر الكونية متأملاً متفكراً متوتراً، محاولاً جهده السيطرة عليها بتجاربه ومعارفه، وبسحره وابتهالاته وتوسلاته .

وفي المجتمعات القديمة يعدّ «صانع المطر» من أهم الشخصيات، وكثيراً ما توجد طبقة خاصة من السحرة، يتولى أفرادها مهمة السيطرة على الرياح والتحكم في نزول الأمطار، مستخدمين أساليب تستند غالباً إلى مبدأ السحر التشاكلي «المحاكاة»^(١٠)، فإذا أرادوا مثلاً أن يسقط المطر قاموا بمحاكاة سقوطه برش الماء، أو

(١٠) إذا حللنا مبادئ الفكر التي يقوم عليها السحر، فإنه يحتمل أن نجدها تنحصر في مبدئين اثنين :

الأول: أن الشبيه يُنتج الشبيه، أو أن المعلول يشبه علته .

والثاني: أن الأشياء التي كانت متصلة في وقت ما، تستمر في التأثير بعضها في بعض من بعيد بعد أن تنفصل فيزيقياً .

ويمكن أن نسمي المبدأ الأول: «قانون التشابه»، وأن نسمي المبدأ الثاني: «قانون الاتصال» أو «التلامس» .

وعلى ذلك يمكن أن نسمي التعاويذ والطلّاسم التي تقوم على قانون التشابه «السحر التشاكلي» أو «سحر المحاكاة» بينما نسمي تلك التي تستند إلى قانون الاتصال أو التلامس «السحر الاتصالي» .

وإذا حللنا الحالات المختلفة للسحر التعاطفي سوف نجد أنها تطبيقات خاطئة لأحد القانونين الأساسيين للفكر الإنساني، وهما تداعي المعاني عن طريق التشابه، وتداعي المعاني عن طريق التجاوز والاتصال في المكان والزمان، فالتداعي الخاطيء للمعاني أو الأفكار المتصلة يؤدي إلى السحر الاتصالي .

انظر جيمس فريزر، الغصن الذهبي، الهيئة المصرية العامة، ١٩٧١م، ج ١ ص ١٠٤

محاكاة تجمع الغيوم والسحب، أمّا إذا أرادوا إيقافه، وإحداث الجذب، فإنهم يتفادون الاقتراب من الماء، ويعمدون إلى الدّفء، وإلى النار^(١١)

وتعتقد أكثر الشعوب القديمة بوجود آلهة تتصرف في الظواهر الجوية، وتثير العاصفة، وتنزل الأمطار، ففي إفريقيا الاستوائية يعتقد السكان بـ «كانج تنج» الذي يسكن في السماء، وينزل الغيث، و«تورا» يرسل الصاعقة، و«أزونجو» يخاطب البشر بالرعد مبشراً بسقوط المطر^(١٢).

وفي المعتقدات الفينيقية القديمة آمنوا بـ «بعل» المعتلي السحاب، إله البرق والرّعد، الذي يمنح الأمطار الطيبة في موسمها، فتخضر الأرض، ويفرح الناس^(١٣). وفي سبيل القديمة كانوا يقدّمون لكوكب الزهرة (عثر) كثيراً من القرابين من أجل الاستسقاء^(١٤).

وكان العُباد يتوسّلون إلى الآلهة القديمة من أجل المطر، لكن الإنسان القديم كان ينظر إلى المطر من حيث هوقوة كونية يمكن أن تُستدعى دونها وساطة الآلهة، بالجهود الإنساني المحض، وبالتعاون والسحر والطلّسّمات والتنبؤ، والساحر البدائي لا يعرف سوى الجانب العملي من السحر، وهو لا يحلل العمليات الذهنية التي تقوم عليها أفعاله وممارساته، كما أنه لا يُشغل نفسه بالتأمّل والتفكير في المبادئ المجردة التي تنطوي عليها تصرفاته^(١٥)، إنما كان يُعنى بالنتيجة التي يؤمن إيماناً مطلقاً بحتمية حصولها.

(١١) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ج ١ ص ٢٥٠، وهذا الاعتقاد مخالف للاعتقاد العربي الذي يعتمد إشعال النار وسيلة للاستمطار.

(١٢) طه الهاشمي: تاريخ الأديان، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٣م، ص ١٦١.

(١٣) عبد الحميد زايد، من أساطير الشرق الأدنى القديم، مجلة عالم الفكر، العدد الثالث، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٥، ص ٢١٠.

(١٤) ديتلف نيلسن، التاريخ العربي القديم، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٨، ص ١٣٨.

(١٥) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ج ١ ص ١٠٦.

(أ) حجر المطر

وقد أورد القزويني في مؤلفه المشهور «آثار البلاد وأخبار العباد» بعض الأساليب السحرية التي تستخدمها شعوب الشرق للسيطرة على السحب والتحكُّم في نزول المطر، فقال:

الترك يجلبون المطر والثلج متى شاءوا بحجارة لديهم، فإذا أرادوا المطر حركوا منه شيئاً، فينشأ الغيم، ويوافي المطر، وإن أرادوا الثلج زادوا في تحريكها، فيوافيهم الثلج والبرَد^(١٦).

وفي بلاد الترك جبل إذا اجتاز عليه الغنم شُدَّت أرجلها بالصوف لئلا تصطك حجارةً فيعقبها المطر^(١٧).

والترك يستمطرون المطر بالحجر الذي يرمونه في الماء^(١٨). وهذه الممارسات لها علاقة بإشعال النار، لأن قَذْح الحجارة يؤدي إلى النار، والنار استخدمت في طقوس العبادة منذ القدم^(١٩).

وقال القزويني: ومن عجائب الدنيا أرض بين كرمان وجاريج إذا احتك بعض أحجارها ببعض يأتي مطر عظيم، وهذا شيء مشهور عندهم، حتى إنَّ مَنْ اجتازها يَتَنَكَّب عنها كيلا تحتك تلك الحجارة، فيأتي مطر يهلك الناس والدواب^(٢٠).

(١٦) القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص ٥١٥.

(١٧) المصدر السابق، ص ٥١٦.

(١٨) المصدر السابق، ص ٥٩٠.

(١٩) جيمس فريزر، أدونيس، ترجمة جبرا إبراهيم، دار الصراع الفكري، بيروت، ١٩٥٧م، ص ٩٢ و ١١٩.

والنويري: نهاية الإرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، (دون تاريخ)، ج ١ ص ١٠٥.

(٢٠) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٤٧.

في «طليطلة» (حجر المطر) وهو ما أخبر به بعض المغاربة أنَّ بقرب «طليطلة» حجر إذا أراد القوم المطر أقاموا يَحْكُونَهُ فلا يزال يأتي بالمطر إلى أن يلقوه، وكلما أرادوا المطر فعلوا ذلك (٢١).

وأخبر عن هذا الحجر طاش كبري زاده، فقال (٢٢):

إنَّ عند الأتراك في الجبال حجارةً جالبةً للمطر، وهم يعرفونها ويلقونها في الماء، ويعملون بعضاً من الأعمال شبيهةً أعمالِ السَّحر، ويتكلَّمون بكلماتٍ مُتضمَّنة للكفر.

هكذا سمعت مَنْ رأى هذا العمل من الأتراك، قال: فينزل المطر في الحال، حتى إنَّ رأس الفرس تحت الثلج والمطر، ونصفه الآخر تحت الشمس. وأشار «شيخ الربوة» إلى (حجر الماء) نقلاً عن أرسطو، قال: هو حجر أبيض، إذا شدَّته على سرة المستسقى ليلاً وترك إلى الصُّباح، ثمَّ جُعِلَ في الشمس قَطَرَتْ منه قطرات من الماء (٢٣).

وحكى صاحب «تحفة الغرائب» أنَّ بَارِضَ أرمينية بيت نار له سطح وميزاب من النحاس، وتحت الميزاب حوض كبير من الرُّخام، وفي البيت مجاورون، كلُّما قَلَّ المطر بتلك الناحية أوقدوا نارهم، وغسلوا سطح البيت بماء نجس، حتى ينصب من الميزاب إلى الحوض، ثم يرشون البيت بذلك الماء النجس، فعند ذلك تُسْتَرَّ السماء بالغيام وتُمطر حتى يُغْسَلَ السطح والميزاب والحوض، ويمتلىء من الماء الطاهر (٢٤).

وهذه الأساليب السحرية تظهر غالباً في المجالات التي تظهر فيها عناصر الاحتمال

(٢١) القزويني، آثار البلاد، ص ٥٤٦.

(٢٢) طاش كبري زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، الهند (دون تاريخ)، ج ١ ص ٣٥٦.

(٢٣) شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع ليبزج، ١٩٢٣ م، ص ٧٥.

(٢٤) القزويني، آثار البلاد، ص ٤٩٦.

والطوارئ، كما تبرز فيها العلاقة بين الأمل والخوف، والسحر يختفي حيث يكون الهدف مضموناً، وحيث تتم السيطرة على الأعمال، وتقوى ممارسة السحر عندما يبرز عنصر الخطر. والسحر يسمح للإنسان القديم الاحتفاظ بآتزانه العاطفي والذهني والعصبي في ظروف صعبة، ولو خلت حياته من الممارسات السحرية لتعرض إلى الانهيار النفسي والقلق والتوتر، والشعور بالكراهية (٢٥).

وقد شاعت هذه الممارسات السحرية في كل أنحاء العالم، ويبدو أن السحر التشاكلي أو التشبيهي كان من أكثر الممارسات السحرية استخداماً لجلب المطر، وهذه التعويذة تعتمد تقليد البرق والرعد وتمثيل السحب وسقوط المطر، وشاع استخدامها في روسيا واليابان وأستراليا وأفريقيا (٢٦).

(٢٥) د. قيس النوري، الأساطير وعلم الأجناس، دار الكتب، الموصل ١٩٨١، ص ١١٢.
(٢٦) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، الهيئة المصرية العامة ١٩٧١م، ج ١ ص ٢٨٨.

(ب) الفرس والمطر

وتحدث القزويني عن طريقة أخرى في الاستسقاء شاعت عند الصينيين، قال :
في الصين قرية عندها غدير فيه ماء، في كل سنة يجتمع أهل القرية ويلقون فرساً في
ذلك الغدير، والناس يقفون على أطرافه، كلما أراد الفرس الخروج من الماء منعوه،
وما دامت الفرس في الماء يأتيهم المطر، فإذا مطروا قدر كفائتهم، وامتلأ الغدير أخرجوا
الفرس وذبحوه على قُلة الجبل، وتركوه حتى تأكله الطير، فإن لم يفعلوا ذلك في شيء
من السنين لم يُمطروا^(٢٧).

وهذه العلاقة السحرية بين الفرس وسقوط المطر كانت واضحة في عقل الشاعر
العربي، لذلك اقترن وصفهم للخيال بالمطر، وكثيراً ما نرى في صورة الخيل المتوترة
المتحفزة التي تربط بسرعة صورة الغيث المسترسل المنسكب الذي يتلقاه الإنسان
بخوفٍ وتهيب، كقولهم :

- فأتبع آثار الشياهِ وليدنا كشؤبوب غيثٍ يحفش الأكم وابله^(٢٨)
- وأدركهنّ ثانياً من عنانه كغيث العشيّ الأقهب المتودّق^(٢٩)
- وولّى كشؤبوب العشيّ بوابلٍ ونحرجن من جعدٍ ثراه منصّب^(٣٠)

(٢٧) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٥٤.

(٢٨) زهير بن ابن سلمى، الديوان، دار الكتب المصرية ١٩٤٤م، ص ١٣٥.

الشؤبوب: الدفعة من المطر. يحفش: يخرج ويسيل. الأكم: جمع الأكمة.

(٢٩) امرؤ القيس، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م،

ص ١٧٤.

الأقهب: الذي لونه الفهبة أي السواد، المتودّق: المحفل بالودق وهو المطر.

(٣٠) المصدر السابق، ص ٥٠، الجعد: الشديد النداءة، المنصب: المرتفع المنتصب، الشؤبوب: دفعة المطر.

- فَاتَّبَعَ آثَارَ الشَّيْءِ بِصَادِقٍ حَثِيثَ كَغَيْثِ الرَّائِحِ الْمُتَحَلِّبِ (٣١)
- وَهَضْنَ الْحَصَا حَتَّى كَانَ رُضَاضَهُ ذُرَى بَرْدٍ مِنْ وَابِلٍ مُتَحَلِّبٍ (٣٢)
- طَوَّتَهُ الْمَنَايَا فَوْقَ جَرْدَاءِ شَطْبَةٍ تَدِفُّ دَفِيفَ الرَّائِحِ الْمُتَمَطَّرِ (٣٣)
- وَخَيْلٍ كَأَسْرَابِ الْقَطَا قَدْ وَرَعَتْهَا لَهَا سَبَلٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلْمَعُ (٣٤)
- تَظَلُّ جِيَادُنَا مَتَمَطَّرَاتٍ تَلَطَّطُمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النَّسَاءِ (٣٥)
- فالشعراء كلهم يعتمدون في وصفهم للخيل على فكرة المطر، ويُكُونون في أوصافهم عالماً أشبه ما يكون بعالم المطر. . شُؤْبُوبُ غَيْثٍ، شُؤْبُوبُ الْعَشِيِّ، الْغَيْثُ الْمُتَحَلِّبُ، الْبَرْدُ، الْوَابِلُ الْمُتَحَلِّبُ، دَفِيفُ الرَّائِحِ الْمُتَحَلِّبُ، لَهَا سَبَلٌ (مطر)،

(٣١) علقمة الفحل، الديوان، تحقيق: لطفي الصقال، دار الكتاب العربي، حلب ١٩٦٩م، ص ٩٤.

المتحلب: المطر المنصب. الرائح: الطائر يعود إلى موضعه.

(٣٢) الطفيل الغنوي، الديوان، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٨م، ص ٢٦.

الوهضن: شدة الوطى. . رضاءة: ما ترضض منه وتكسر. ذرى برد: أعالیه.

(٣٣) ليبد بن ربيعة العامري، الديوان، تحقيق: إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأبناء، الكويت ١٩٦٢م، ص ٤٩.

الشطبة: الطويلة. الدف: طيران قريب من الأرض. المتمطر: أصابه مطر. الرائح: الطائر الذي يعود إلى موضعه.

(٣٤) مجمع بن هلال، الديوان الحياصة لأبي تمام، تعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة ١٩٥٥م، ج ١ ص ٢٩٧.

وزعتها: كفتها لتجتمع. السبل: المطر.

(٣٥) حسان بن ثابت الأنصاري، الديوان، تحقيق: سيد حنفي، الهيئة المصرية العامة، مصر ١٩٧٤م، ص ٧٣.

متمطرات: خارجات من جمهور الخيل في سرعتها، من تمطر الفرس أمام الخيل: إذا سبقها خارجاً منها.

مُتَمَطَّرَات . . . وقد اعتمد امرؤ القيس في وصفه المشهور للفرس على فكرة السَّيْل، فشَبَّهَ الفرس بالصَّخْرة التي سقط بها السَّيْل من قِمة عالية، ويبدو السَّيْل في هذه العبارة - إلى حد ما - أهم من الصخرة نفسها، ثم أثبت فكرة السيل مرة أخرى في قوله:

كُمَيْت يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالٍ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُتَنَزِّلِ
وأشد من ذلك غرابة أنَّ امرأ القيس جعل كل ما يتعلق بفرسه جزءاً من هذا السيل . . . فهو مُسَيِّحٌ وسابح ودريز . . . وكلها تُؤَكِّفُ عالماً واحداً أقرب ما يكون إلى عالم المطر (٣٦).

(٣٦) د . مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب (دون تاريخ) ص ٧٨ وما بعدها.

(ج) الاستحمام والمطر

وأشار جيمس فريزر إلى طقوس عرب أفريقيا في الاستسقاء إذ يلجأ الناس إلى الاستحمام وسيلة سحرية لجلب المطر، وقد يلقون بأحد رجال الدين - سواء أرضي أم لم يرض - في أحد الينابيع للتغلب على الجذب (٣٧).

وقد أشار المؤرخ اليوناني «ديوكاسيوس» إلى طقوس صانع المطر عند الرومان، بأن يستحم في العراء. وهذا الطقس يمارس إلى اليوم (٣٨).

وهذه الرُقَى السحرية من قبيل السحر «التشاكلي» أو «التشبيهي»، ومن الثابت أن هناك عادة ما زالت مُتَّبَعَة في أوروبا في عصر جيمس فريزر (أواخر القرن التاسع عشر) لاستنزال المطر، وهي أن يُكسَى شخص بأوراق الشَّجَر ثم يصبُّ الماء عليه، وهذا الشخص بلا ريب يمثل الزرع، كما أن عادة صبِّ الماء على آخر ما يُحصَد من سنابل يراد منها استنزال المطر على الحقول في السَّنة التالية (٣٩).

(٣٧) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ص ٢٧٠.

(٣٨) جيمس ويللارد: الصحراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ١٩٦٧م، ص ٤٢.

(٣٩) جيمس فريزر، أدونيس، ص ١٥٧، (سبق ذكره).

(د) غسل الثياب والمطر

وتحدث «الجاحظ» عن (غسل الثياب) وسيلة سحرية لنزول المطر في أبيات رواها عن «سعد المطر» قال فيها^(٤٠):

دَعِ المواعيدَ لا تَعْرِضْ لَوُجْهِتِهَا إِنَّ المواعيدَ مقرونٌ بها المَطَرُ
إِنَّ المواعيدَ والأعيادَ قد مُنينا منه بأنكر ما يُمنى به بَشَرُ
أَمَّا الثياب فلا يَغْرُزُكَ إِنْ غُسِلَتْ صَحْوٌ قديمٌ ولا شمسٌ ولا قَمَرُ
وروى التيفاشي أبياتاً أخرى تؤكد الاعتقاد بهذا الطقس السحري، قال شاعر^(٤١):

قد قلت إذ خرجوا لكي يَسْتَمْطِروا لا تَقْنَطُوا وآسْتَمْطِروا بثيابي
لو في حزيран هممتُ بَغَسْلِهَا غَطَّى ضياءُ الشمسِ جَوْنَ سَحَابِ
ونفهم من قول «إسماعيل بن حمدوية» أنَّ غسل الثياب تعويذة سحرية يُستدعى بها المطر، قال^(٤٢):

وفي ظَنِّهم أَنَّ قَدْ أُجِيبَ دُعَاؤُهُمْ وما عَلِمُوا أَنِّي غَسَلْتُ ثِيَابِي
وفي بعض قرى ألمانيا يُعمل لآخر عنقود ذُرَّة دُمِّيَّة في هيئة امرأة ثم تُغمر بالماء كما لو كانت تُبَلَّل بالمطر، وهذا الرش بالماء هو نوعٌ من المطر السحري^(٤٣).

(٤٠) الجاحظ، البرصان والعرجان، تحقيق: محمد مرسى الخولى، الاعتصام، القاهرة ١٩٧٦م، ص ٨٥، والثعالبي، ثمار القلوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر، ١٩٦٥، ص ١٠٤.

(٤١) التيفاشي، سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠م، ص ٢٨٤.

(٤٢) ابن شاعر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣ و ١٩٧٤م، ج ١ ص ١٧٣ - ١٧٧، وسرور النفس ص ٢٨٣.

(٤٣) د. قيس النوري، الأساطير وعلم الأجناس، ٤٧، (سبق ذكره).

(هـ) طقوس أخرى

وفي أمريكا الوسطى يقتن إله المطر أسطوريا بالنمر الأمريكي الموجود في غاباتها، وهناك كثير من التماثيل الصغيرة التي تُمثِّل هذا الاقتران^(٤٤).

وعندما تُجهض المرأة تتوقع «قبائل البانتو» أن تهب الرياح العاصفة المدمِّرة، ذات الحرارة العالية، وتنقطع الأمطار عن السقوط، ويسود الجفاف^(٤٥)، وربما كان هذا ما يشير إليه خفاف بن ندبة السُّلمي في شعره، قال^(٤٦):

إذا الحَسَناء لم تَرَحُضْ يَدَيِها ولم يُقْصِرْ لَهَا بَصَرٌ بِسِترِ
قَرَوْا أَضْيَافَهُمْ رَبْحاً يَبُحُّ نَجِيءٌ بَعْبُقَرِيٍّ الْوَدْقِ سُمُرِ
هُمْ الْأَيْسَارُ إِنْ قَحَطَتْ جُمَادَى بَكْلٌ صَبِيرٌ سَارِيَةٌ وَقَطَرِ^(٤٧)

فاجهاض الحسناء يعني الجفاف والجذب وانقطاع المطر.

(٤٤) د. قيس النوري، الأساطير وعلم الأجناس، ص ١١٧، (سبق ذكره).

(٤٥) المصدر السابق، ص ٨٧.

(٤٦) شعر خفاف بن ندبة، تحقيق: د. نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م، ص ٥٢.

(٤٧) لم ترحض يديها: لم تغسلها؛ لأنها أجهضت أولئفاس. لم يقصر لها بصريستر: لم تمنع من الخروج، ولم تحبس في البيت. البُحُّ: قُدْح الميسر. الرَّبَح: الفصل. الصبير: السحاب الأبيض.

(و) بيوت الله والمطر

وكان العرب يفزعون إلى بيت الله الحرام عند الأزمات، وتروى الأخبار أنَّ المطر انحبس عن قوم «عاد» وابتلاهم الله بالقَحْطِ ثلاث سنين استجابةً لدعوة «هود» عليه السلام، فأجمع القوم أمرهم على المسير إلى بيت الله الحرام يستسقون الغيث.

وكان الناس في ذلك الزَّمان إذا نزلت بهم فادحةٌ، أو نابتهم نائبةٌ، أوجهدهم قحط أو غيره، فزَعُوا إلى الله فيأتون إلى البلد الحرام يطلبون من الله حوائجهم.

فلما أجمعوا على المسير إلى «مكة» ليستسقوا بها، جهزوا من عَظَمائِهِمْ، وأشرفهم، وذوي أحسابهم سبعين رجلاً، ساروا حتى أتوا «مكة» فنزلوا على (بكر بن معاوية) زعيم العماليق، يأكلون الخبز واللحم، ويشربون الخمر، ونسوا أمرهم، فذكَّروهم (بكر بن معاوية) بقومهم، وما جاءوا من أجله، فلاذوا بالكعبة يدعون ويتضرَّعون، يتقدمهم زعيمهم «قيل بن عنز» فقال: جئت أطلب القطر، الذي يُنبِتُ الشَّجرَ، ويكثر الثمر، ويحيي البشر، ويصلح به قومي وبلادي.

ثم لاذ «لقمان بن عاد» بالكعبة ودعا وتَضَرَّعَ، فنودي: قد أجبت دعوتك، وأعطيت سُؤلك، ولا سبيل إلى الخلود، واختر إن شئت بقاء سبع بقرات عُفْرِ في جبل وَعَرٍ، لا يمسُّهن ذُعُر. وإن شئت بقاء سبع نوياتٍ من تمرٍ مستودعات في صَخْرٍ، لا يمسُّهن ندى ولا قَطَر. وإن شئت بقاء سبعة أنسر، كلما هلك نسر عقب بعده نسر. قال: فكان أن اختار سبعة أنسر.

فأرسل الله - تعالى - على قومه سحابة سوداء عَقِمَتْ من الرَّحمة، ولقحت بالعذاب بريح صرصر عاتية (٤٨).

(٤٨) وهب بن منبه، كتاب التيجان في ملوك حير، طبع وزارة المعارف العثمانية، الهند، ١٣٤٧ هـ، ص ٣٢٥. وفي هذا الخبر رواية أخرى ذكرها الطبري في تاريخ الرسل والملوك، =

قال تعالى (٤٩):

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا . . ﴾ .

= دار المعارف، بمصر، ١٩٦٧م، ج ١ ص ٢١٩ وما بعدها.
(٤٩) الأحقاف: ٢٤ وما بعدها.

(س) الاستسقاء بالأنبياء والأولياء والقديسين

وعندما جاء الإسلام، واجه الرسول ﷺ مشكلة القحط والجفاف، وسُئل أكثر من مرة أن يأتيهم بالغيث. ويروى أن قريشاً أصابتهم سنة حتى فحَصَّت كل شيء، حتى أكلوا الجيف والميتة، حتى إن أحدهم كان يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدُّخان من الجوع.

فقال للرسول يوم الجمعة: يا رسول الله، قحط المطر، وأجذبت الأرض، وهلك المال.

قال أنس: فرفع يديه حتى رأيت بياض ابطيه، فاستسقى، ولقد رفع يديه وما نرى في السماء سحابة فما قضينا الصلاة حتى إنَّ قريب الدَّار الشاب ليَهْمُهُ الرجوع إلى أهله.

وكان الرسول ﷺ قد تَضَرَّع إلى الله وقال في الاستسقاء: «اللهم اسقنا غيثاً، مغيثاً، هنيئاً، مريئاً، غَدَقاً، مُجَلِّلاً، سَحّاً، عامّاً، طبَقاً، دائماً.

اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين.

اللهم إنَّ بالعباد والبلاد من اللأواء، والجَهْد، والضَّنْكَ ما لا نشكوه إلا إليك.

اللهم أنبت لنا الزَّرع، وأدرِّ لنا الضَّرْع، واسقنا من بركات السماء، وأنزل علينا من بركاتك.

اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعُري، واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه غيرك (٥٠).

(٥٠) انظر أبونعيم الأصفهاني، دلائل النبوة، طبع عالم الكتب، بيروت، (دون تاريخ)، ص ١٦٠. والتيفاشي، سرور النفس بمدرّك الحواس الخمس، ص ٢٨٢، (سبق ذكره). ومحمد السفاريني الحنبلي، شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي، دمشق، =

وفي الرسول ﷺ قال أبو طالب بن عبد المطلب (٥١):

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ربيعُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ
وفي أخبار لبيد بن ربيعة العامري أنه وفد على الرسول، وقومه يعانون المجاعة،
وطلب إليه أن يدعوهم بالسُّقيا، وهذه المجاعة هي السبب في تفرُّق (بني عامر) وفي
ذلك قال لبيد يخاطب الرسول (٥٢):

أَتَيْنَاكَ وَالْعَذَاءُ يَذْمِي لَبَانَهَا وَقَدْ ذَهَلَتْ أُمُّ الصَّبِيِّ عَنِ الطُّفْلِ
فَإِنْ تَذُعُ بِالسُّقْيَا وَبِالْعَفْوِ تُرْسِلُ السَّاءَ لَنَا، وَالْأَمْرُ يَبْقَى عَلَى الْأَصْلِ
وقد أجمع جمهور الأئمة والفقهاء، على أنه يُستحبُّ الاستشفاع بأهل الصلاح
والتقوى، وأهل بيت النبوة في الاستسقاء، ولما صعد (عمر بن الخطاب) قابضاً على
يد (العباس) يوم الاستسقاء، ولم يزد على الدُّعاء والاستغفار، فقبل له: إِنَّكَ لَمْ
تَسْتَسْقِ، وَإِنَّمَا كُنْتَ تَسْتَغْفِرُ.

قال: قد استسقيت بمجاديح السماء (٥٣) ذهب إلى قوله تعالى (٥٤): ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾.

وروي أن (العباس) قال يوم استسقى (عمر بن الخطاب) به:

اللَّهُمَّ، إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بِلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا يُكْشَفُ إِلَّا بِتَوْبَةٍ، وَقَدْ تَوَجَّهَ الْقَوْمُ إِلَيْكَ

١٣٨٠هـ، ج ١ ص ٦٤٨ و ص ٦٦٢. والحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، دار الفكر،

بيروت، ١٩٧٨م، ج ٣، ص ١٠٧.

(٥١) ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، شرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني،
القاهرة، (دون تاريخ)، ص ٢٠٤.

(٥٢) لبيد بن ربيعة، الديوان، ص ٢٧٧، (سبق ذكره).

(٥٣) المجدح: نجم من النجوم كانت العرب تزعم أنه يمطر، يجعلونه من الأنواء، يريد أن
الاستغفار هو ما يستسقى به.

(٥٤) نوح: ١١.

بالذنوب، ونواصينا بالتوبة، فاسْقِنَا الْغَيْثَ(٥٥).

وفي حديث امرأة أبي الأسود الدؤلي لمعاوية بن أبي سفيان، قالت(٥٦):
«إِنَّ اللَّهَ جَعَلَكَ خَلِيفَةً فِي الْبِلَادِ، وَرَقِيْباً عَلَى الْعِبَادِ، يُسْتَسْقَى بِكَ الْمَطَرُ،
وَيُسْتَنْبَتُ بِكَ الشَّجَرُ. . .».

وكان عرب البادية إذا جاءهم قحط يتوسَّلون إلى الله تعالى بـ «محمد بن
المنكدر» فيُسَقَّون الغيث(٥٧).

ويروى أنَّ «الوليد بن القعقاع» كان عاملاً على بعض الشام، وكان يَسْتَسْقِي في
كل خطبة. . فيمطرون، فقام إليه شيخ من أهل حمص، فقال: أصلح الله الأمير إذن
تُفسد «الْقَطَانِي» يعني: الحبوب(٥٨).

وقد استمرَّ الاعتقاد بقدرَّة الأولياء وأصحاب التقي والقديسين والمتصوِّفين على
إنزال المطر حتى عصور متأخرة، فمن الممارسات القديمة التي شاعت عند قبائل
صحراء شمال أفريقية أنَّ الجفاف عندما يهدِّد حياتهم يُلقون أحد الشيوخ الروحانيين في
بركة ماء اعتقاداً منهم أنَّ ذلك سيؤدِّي إلى نزول المطر(٥٩).

وُحَدِّثْنَا «جورج غير ستر» عن قصة فاتح مدينة «سيدارته» الذي استدعى خَزَنَةَ
الآبار، وأمرهم بتنظيف البئر الأصلية في «سيدارته» لكن ضغط الماء كان شديداً،
فتوسَّلوا إلى أولياء الله السبعة المرابطين في المنطقة أن يستخدموا قُوَاهُ الغيبية في تخفيف
قوة الماء، وقد تمكَّن الأولياء من ذلك، ولكنهم لم يستطيعوا أن يعيدوا الماء إلى ما كان

(٥٥) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مصر، ١٩٦٨، ج ٣ ص ٢٧٩. وابن

قتيبة، عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٣، ج ٢ ص ٢٧٩.

(٥٦) أحمد بن أبي طاهر، بلاغات النساء، النجف الأشرف، العراق، ١٣٦١هـ، ص ٤٧.

(٥٧) المُقَرِّي، المختار من نوادر الأخبار، مخطوط دار الكتب المصرية، ورقة ١٦.

(٥٨) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٤ ص ١٩، (سبق ذكره).

(٥٩) د. قيس النوري، الأساطير وعلم الأجناس، دار الكتب، الموصل، ١٩٨١م، ص ١٥١.

عليه، فغضب السلطان، وأمر بقطع رؤوسهم^(٦٠).

ووصف فريزر مثل هذه الممارسات السحرية، ففي (بالرمو) بصقلية ألقى الناس بالقدّيس يوسف في إحدى الحداثق، وأقسموا أن يتركوه في الشمس إلى أن يأتي إليهم بالمطر.

وفي (ليكاتا) لقي القدّيس أنجيلوز معاملة سيئة، فقد تركه الناس دون ملابس، وسبّوه وقيدوه بالحديد، وهدّوه بالغرق أو الشنق إذا لم يأتيهم بالمطر، وكانوا يصيحون وهم يلوحون بأيديهم: «المطر أو حبل المشنقة»^(٦١).

ويروي عبد الرحمن عزام باشا قصة ذلك المعبود البشري الذي يُقدّسه الزوج - في مطلع القرن العشرين - في جبل النوبة، ويقدمون له القرابين والهدايا كي يأتيهم بالمطر، فإن أبى تحقيق مطالبهم، بالغوا في دعائه واسترضائه، حتى إذا يئسوا منه سجنوه، وربما قتلوه^(٦٢).

(٦٠) جورج غير ستر، الصحراء الكبرى، تعريب: خيرى حماد، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦٠، ص ١٥٠.

(٦١) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ج ١ ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٦٢) عبد الرحمن عزام، الرسالة الخالدة، ص ٦ - ٧.

(ج) الاستسقاء بالموتى

وللموتى أهمية كبيرة في الاستسقاء، فقد آمنت أكثر الشعوب بوجود حياة ما في القبر، وأن روح الميت تعي وتفعل وتُفَكِّر، وتؤثّر في الآخرين وتتأثر بتصرفاتهم.

وقد اعتقد عرب الجاهلية بـ «الهامة» و«الصدى» وقالوا: هو طير يخرج من رأس القتيل يصيح ويزق يطلب الثأر، فلا يهدأ ولا يسكن ولا تطمئن الروح حتى تُسقى من دم القاتل.

وسقوا القبور بدماء الخيل والنوق التي تُعَقَّر على القبور ليركبها الميت يوم الحشر.

واستسقوا بعظام الموتى، وهذه الشعيرة من المعتقدات الشائعة عند العبرانيين أيضاً، فقد آمنوا بأن المطر ينزل بواسطة الطقوس السحرية التي تُجرى على عظام الموتى، خاصة عظام الأمراء الذين كثيراً ما يُنتظر منهم أن ينزلوا المطر وهم أحياء (٦٣).

وحين يشتدّ الجُذْب عند قبائل (الديري) في أواسط أستراليا يتوسّل الرجال إلى أرواح أسلافهم القدامى أن يهبوهم القدرة على إسقاط الأمطار الغزيرة لاعتقادهم أن السحب ما هي إلا أجسام تتولد فيها الأمطار بفضل الطقوس التي يمارسونها، وبفضل أرواح الأجداد (٦٤).

أما قبائل (خليج ديلاج) فيغمرون بالماء قبور أسلافهم - خاصة - قبور التوائم وسيلة سحرية لجلب المطر (٦٥).

ويعتقد الصينيون أنه إذا تركت جثة شخص ميت دونما دفن، فإنّ روحه تنزعج من المطر بالطريقة نفسها التي ينزعج بها الشخص الحي حين تفاجئه الأمطار الغزيرة،

(٦٣) جيمس فريزر، أدونيس، دار الصراع الفكري، بيروت، ١٩٥٧م، ص ٢٣.

(٦٤) جيمي فريزر، الغصن الذهبي، ص ٢٥٥.

(٦٥) المصدر السابق، ص ٢٧٣.

لذلك فإنَّ هذه الأرواح البائسة تعمل ما في وسعها لتمنع المطر من السقوط . ومن هنا كانت السلطات الصينية تهتمُّ أشدَّ الاهتمام في أوقات الجذب بدفن العظام الجافة للموتى الذين لم يُدْفَنوا من قبل لوضع حدٍّ للبلاء^(٦٦) .

وهذه الطقوس السحرية كانت تُمارس عند العرب منذ القدم . قال ابن قتيبة^(٦٧) : إنَّ عظام (سلمان بن ربيعة الباهلي) كانت عند أهل (بلنجر) في تابوت ، إذا احتبس عليهم المطر ، أخرجوها فاستسقوا بها فسُقوا .

قال عبد الرحمن بن جمانة الباهلي في قبر (سلمان) وقبر (قتيبة بن مسلم الباهلي)^(٦٨) .

إن لنا قبرين: قبر بلنجر وقبراً بصين آستان يا لك من قبر فأما الذي بالصّين عمّت فتوحه وسلمانٌ يُستسقى بها سبل القطر وقال ابن خلكان في ترجمته لأبي بكر بن فورك: المتكلم ، الأصولي ، الأديب ، الواعظ ، الأصبهاني^(٦٩) .

«دُفن بالحيرة ، ومشهده بها ظاهرٌ، يُزار ويُستسقى به ، وتُجاب الدعوة عنده» .
ووصف القزويني قبر أبي أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ الموجود في القسطنطينية ، قال^(٧٠) :

«ترتبه معظمة عند النصارى ، يكشفون سُقْفها عند الاستسقاء إذا قحطوا

(٦٦) المصدر السابق ، ص ٢٧٥ .

(٦٧) ابن قتيبة ، كتاب المعازف ، تحقيق : ثروت عكاشة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ م ، ص ٤٣٣ . والجاحظ ، البرصان والعرجان ، ص ٢٠٩ .

(٦٨) الجاحظ ، البرصان والعرجان ، تحقيق : د . محمد مرسى الخولي ، ص ٢٠٩ .

(٦٩) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، طبع بيروت ، ١٩٧٢ م ، ج ٤ ص ٢٧٢ . وانظر الخبر أيضاً عند القزويني ، آثار البلاد ، ص ٢٩٧ .

(٧٠) القزويني ، آثار البلاد ، ص ٦٠٦ .

فِيْغَاثُونَ».

ويتكرّر في الشعر الجاهلي الدُّعاء بسُقيا القبور: إمّا إرضاءً للهامة والصّدى،
لتهدأ الروح الحائرة وتستقر، وإمّا لاعتقادهم بأن الموتى يمارسون حياة عادية في القبر،
فيعطشون ويشربون.

قال أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كلفة^(٧١):

لا زال مِسْكُ وَرِيحَانٍ لَهُ أَرْجُ على صداك بصافي اللّون سلسال
يسقي صداك وتُمساه ومُصْبِحُهُ رفهاً ورَمْسُكَ مَحْفُوفٌ بأَظْلال
وقال أيضاً^(٧٢):

لا زال ريحانٌ وفَغْوٌ ناضِرٌ يجري عليك بمُسْبِلٍ هَطَّالٍ
وقال النابغة يرثي النعمان بن الحارث بن أبي شمّر الغساني^(٧٣):

سقى الغيث قبراً بين بُصرى وجاسم بغيثٍ من الوسمي قَطْرٌ ووايلُ
ولا زال ريحانٌ ومِسْكٌ وعنبرُ على منتهاه ديمةٌ ثمّ هاطِلُ
وقال حاتم الطائي^(٧٤):

أماويٌّ إِنْ يُصْبِحَ صَداي بِقَفْرة من الأرض لا ماءً لديّ ولا خَرُ
ترى أَنَّ ما أَهْلَكَ لَمْ يَكُ ضَرَّني وأنَّ يَدَيَّ ما بَخِلْتُ به صِفْرُ

(٧١) أوس بن حجر، الديوان، تحقيق: د. محمد نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م، ص ١٠٥.

(٧٢) أوس بن حجر، الديوان، (دار صادر بيروت ١٩٦٧م)، ص ١٠٨.

(٧٣) النابغة الذبياني، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ص ١٢١.

(٧٤) حاتم الطائي، الديوان، تحقيق: عادل سليمان جمال، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ١١.

وقال حاتم يرثي ملحان بن سعد بن حشرج^(٧٥).

فلا آنفك رمس بين أضرع فاللوى
وقالت الخنساء ترثي صخرأ:

- سقى الإله ضريحاً جن أعظمه
وروحه بغزير المزن هطال^(٧٦)
- سقى جدثاً، أكناف غمرة دونه
من الغيث ديمات الريع ووابله^(٧٧)
- أسقى الإله ضريحه
من صوب دائمة الرهائم^(٧٨)
- سقى الله أرضاً أصبحت قد حوتها
من المستهلات السحاب الغوايا^(٧٩)
- سقى لقبرك من قبر ولا برحت
جود الرواعد تسقيه وتحتلب^(٨٠)
- ربيع هلاك وماوى ندى
حين يخاف الناس قحط القطار
أسقى بلاداً ضمنت قبره
صوب مرابيع الغيوث السوار
وما سؤالي ذاك إلا لكي
يسقاه هام بالروي في القفار^(٨١)

وقال قيس بن الخطيم يرثي ربيعة بن مكدّم^(٨٢):

فسقى الغواي رمسك ابن مكدّم
من صوب كل مجلجل وكاف

(٧٥) المصدر السابق، ص ٢٨٢.

(٧٦) شعرها، تحقيق: أكرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٦٣م، ص ١٠٩.

(٧٧) المصدر السابق، ص ١٢٦.

(٧٨) المصدر السابق، ص ١٣٤.

(٧٩) المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٨٠) المصدر السابق، ص ١٣.

(٨١) المصدر السابق، ص ٦٨.

(٨٢) حسان بن ثابت، الديوان، ص ٣٩٢، (سبق ذكره)، والبيت ينسب لقيس بن الخطيم،

ولرجل من بني الحارث بن الخزرج من الأنصار.

وقال قيس بن عاصم يلوم خالد بن مالك الذي لم يأخذ بثأر أخيه ربعي قتيل
(يوم فلج) وهو يوم انتصرت فيه تميم على بكر بن وائل (٨٣).

فما بالُ أصداءٍ بفَلَجٍ غريبةٍ تُنادي مع الأطلال يا لابن حَنْظَلٍ
صوادي لا مولى عزيز يجيها ولا أَسْرَةٌ تُسقي صداها بمَنْهَلٍ
وقال أحدهم يرثي امرأته (٨٤):

سقى جدثاً تَضَمَّنَ أمَّ عمرو بنخلة ما آستهلَّ من الغمام
وما للأرض أَسْتَسْقِي ولكن لأصداءٍ أقمن بها وهام
وربما كان الدُّعاء بسُقيا الرُّوح الماء عوضاً عن سقيا الدم الذي تطلبه الهامة
وتصيح من أجله.

وقد يعني سقيا القبر إعادة الحياة فيه، لأن الماء في الحس العربي يعني الحياة
والرحمة والبعث والنقاء والطُّهر والخلاص وطيب العيش. . وهم يريدون معاني الماء
لساكني القبور، ولعل الدعاء بسُقيا الرُّبْع والظُّل الذي اندثر وانمحى لا يبعد كثيراً
عن معنى الدُّعاء بسقيا القبور، لأن الظلل الذي انطمس واندثرومات يريدون له
رحمة وتطهيراً وحياة.

قال امرؤ القيس (٨٥):

- سقى دار هند حيث شطَّت بها النوى أَحْمُ الذُّرى داني الرِّباب ثخين
- فأسقي به أُختي ضعيفة إذ نأت وإذ بُعِدَ المزار غير القريض

(٨٣) قيس بن عاصم، شعربي تميم في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق: د. عبد الحميد المعيني،

منشورات نادي القصيم الأدبي، السعودية، ١٩٨٢م، ص ١٨٤.

(٨٤) عبد الكريم النهشلي القيرواني، الممتع في علم الشعر وعمله، تحقيق: د. منجي الكعبي،

طبع الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس ١٩٧٨م، ص ٢٦٤.

(٨٥) امرؤ القيس، الديوان، ص ٢٨٢ وص ٧٣، سبق ذكره.

وقال عبيد بن الأبرص (٨٦) :

سَقَى الرَّبَابُ مُجْلِجُلُ الدَّ أَكْنَافَ لَمَّاحٍ بُرُوقُهُ
وقال أوس بن حجر (٨٧) :

سَقَى دِيَارَ بَنِي عَوْفٍ وَسَاكِنَهَا وَدَارَ عُلُقْمَةَ الْخَيْرِ بْنِ صَبَّاحٍ
وقال عمرو بن قميئة (٨٨) :

فَسَقَى مَنَازِلَهَا وَحِلَّتْهَا قَرَدُ الرَّبَابِ لَصَوْتِهِ زَجَلُ
وقال المثقب العبدى (٨٩) :

سَقَى تِلْكَ مِنْ دَارِ وَمَنْ حَلَّ رَبْعَهَا ذِهَابُ الْغَوَادِي : وَبَلُّهَا وَمُذِمُّهَا
وقال النابغة (٩٠) :

سَقَى دَارَ سُعْدَى حَيْثُ حَلَّتْ بِهَا النُّوَى فَأَفْعَمَ مِنْهَا كُلَّ رَبْعٍ وَفَذَفَدِ
وقال عنتره بن شداد (٩١) :

- سَقَتْكَ يَا عَلمَ السَّعْدِيِّ غَادِيَةٌ مِنْ السَّحَابِ وَرَوَّى رَبْعَكَ الْمَطَرُ

(٨٦) عبيد بن الأبرص، الديوان، تحقيق : د. حسين نصار، مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٨٩.

(٨٧) أوس بن حجر، الديوان، ص ١٨، سبق ذكره.

(٨٨) عمرو بن قميئة، الديوان، تحقيق : حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٩٤.

(٨٩) المثقب العبدى، الديوان، تحقيق : حسن كامل الصيرفي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٢٣٤.

(٩٠) النابغة الذبياني، الديوان، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ص ٢١٢.

(٩١) عنتره بن شداد، الديوان، تحقيق : عبد المنعم شليبي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، =

- سقى الخيام التي نُصبِن على شَرَبَةِ الأنس وإبل المطر
- فسقتك يا أرض الشَّرَبَةِ مُزَنَّةٌ مُنْهَلَّةٌ يروى ثراك هُمُوعُهَا
وقال طرفة بن العبد(٩٢):

فسقى بلادك غير مفسدِها صوب الربيع وديمةٌ تَهْمَى
وقال علقمة الفحل(٩٣):

فلا تعدلي بيني وبين مُغَمَّرٍ سقتك روايا المَزْن حين تصوبُ
سقاك يمانٍ ذو حبيٍّ وعارضُ تروحُ به جُنَحَ العشي جَنُوبُ
وقال عروة بن الورد(٩٤):

سقى سلمى، وأين ديار سلمى إذا حَلَّت مجاورة السرير
وقال سحيم عبد بني الحسحاس(٩٥):

أغاضِرَ حياك الإله وأُسْقِيتَ بلادك صوب الرائح المتحيرُ
وقد استمر الدعاء بسقيا ديار الحبيب في الشعر العربي حتى عصر المدن
والقصور(٩٦).

= دون تاريخ، ص ٨٠ وص ٨٩ وص ١٠١.

(٩٢) طرفة بن العبد، الديوان، تحقيق: لطفي الصقّال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٥م، ص ١٤٦.

(٩٣) علقمة الفحل، الديوان، تحقيق: لطفي الصقّال، دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٦٩م، ص ٣٤.

(٩٤) عروة بن الورد، ديوانه، تحقيق: أكرم البستاني، وعيسى سابا، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م، ص ٣١.

(٩٥) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص ٥٢، سبق ذكره.

(٩٦) أنظر: ديوان جرير، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، طبع دار المعارف بمصر، (دون تاريخ)، =

ولا نستبعد أن يكون الدعاء بسقيا الأطلال والقبور بقايا تراث ديني قديم كان أصلاً «طقساً سحرياً» يمارس على عظام الموتى ، التي استخدمها العرب في استدعاء المطر، ومن ثم ارتبط نزول المطر بالأرض الخراب ، والقبور الموحشة .

= ص ٢٦٨ وص ٢٢٣ وص ٣٧٩ . والآمدي ، الموازنة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٣ م . ج ١ ، ص ٤٦٣ و ٤٦٦ و ٥٣٣ .

(٣) صانع المطر

وفي الفكر الميثوبي (صانع الأساطير) يسود الاعتقاد بوجود قوى سحرية عند الأشخاص الروحيين يقدرّون بها على استدعاء المطر، كالأولياء والملوك والقديسين والشعراء.

ويعتبر (صانع المطر) زعيماً دينياً روحياً عند القبائل التي تعرف هذا النظام، وفي بعض الحالات تنحصر هذه الوظيفة الروحية في يد إحدى عشائر القبيلة.

وفي الحبشة توجد وظيفة (الألفاي) الذي يؤمن الناس بقدرته على صنع المطر، ويسترضونه بالفاكهة والملابس، وإذا خاب أمل الناس فيه، وتعرّضت البلاد لجفاف خطير، فإن (الألفاي) يرجم حتى الموت^(٩٧).

وقرب مصب نهر الكونغويسكن ملك المطر والعواصف الذي يتمتع بالقدرة على استئزال المطر في الوقت المناسب، ويسترضيه الناس بالأبقار والدُّرة، عساه يجعل ماء السماء المبارك ينهمر على المراعي. فإذا لم يَسْقُط المطر من السماء تجمع الناس، وطلبوا من الملك أن يعطيهم المطر، فإذا استمرت السماء صافية بقروا بطنه التي يعتقدون أنه يحفظ فيها العواصف^(٩٨).

وهذه المسألة شائعة في المجتمعات الرعوية والزراعية، حيث الامتزاج شديد بين الظن الغيبي، والمعرفة الزراعية.

(٩٧) فريزر، الغصن الذهبي، ج ١، ص ٣٧٧.

(٩٨) فريزر، الغصن الذهبي، ص ٣٧٦.

وقد نظر ابن خلدون إلى حرفة الزراعة نظرة ممزوجة بالطقوس السحرية، قال (٩٩): هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات من حيث تنميته ونشوؤه بالسقي والعلاج، ومن حيث خواصه وروحانيته، ومشكلة الروحانيات للكواكب والهيكل، والمستعمل ذلك كله في باب السحر.

وفي الشعر الجاهلي نلاحظ الاعتقاد بالقوى الروحية، والقدرات السحرية على استئزال المطر عند بعض الأشخاص والملوك والكهان.

قال النابغة يمدح أحد ملوك آل جفنة (١٠٠):

جربت أبيض يستسقى الغمام به من آل جفنة في عز وفي كرم
وقال أيضاً يمدح النعمان بن الحارث الأصغر (١٠١):

سنة آبائهم ما هم هم خير من يزرع صوب الغمام
وقال الأعشى في هودة بن علي الحنفي (١٠٢):

أغرأبلج يستسقى الغمام به لوصارع الناس عن أحلامهم صرعا
وقال علباء بن أرقم في النعمان بن المنذر (١٠٣):

وإن يد النعمان ليست بكزة ولكن سماء تمطر الوابل والدائم
واستمر الاعتقاد في العصور الإسلامية بقدرة الخلفاء على التحكم في المطر، قال

(٩٩) ابن خلدون، أبوزيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨)، المقدمة، مطبعة مصطفى محمد مصر، (دون تاريخ)، ص ٥٤١.

(١٠٠) النابغة، الديوان، ص ٢٠١، سبق ذكره.

(١٠١) المصدر السابق، ص ١٦٦.

(١٠٢) الأعشى الكبير، الديوان ص ١٤٣، سبق ذكره.

(١٠٣) الأصمعيات، تحقيق: عبد السلام هارون، وأحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦م، ص ١٥٩.

الفرزدق (١٠٤):

أعجبُ الناس أن أضحكتُ سيدهم خليفة الله يُستسقى به المطرُ
وفي الشعر الجاهلي يُقرَن الممدوح دائماً بالمطر، وهناك إشارات كثيرة لواجبات
الممدوحين في قومهم، وأهم واجباتهم: استدعاء المطر وإنزاله.
قال زهير بن أبي سلمى (١٠٥):

فاستمطروا الخير من كَفِّهِ إِنَّهَا بسببه يَتَرَوَى منها البُعْدُ
مبارك البيت ميمونٌ نقيبته جَزُلُ المواهب مَنْ يُعْطِي كَمَنْ يَعِدُ
فالناس فوجان في معروفه شَرَعُ فمنهم صادرٌ أو قاربٌ يَرِدُ
ما زال في سببه سَجَلٌ يعمُّهُمْ ما دام في الأرض من أوتادها وَتَدُ
وقال زهير أيضاً (١٠٦):

- أغرَّ أبيضُ فياضٍ يُفَكِّكُ عن أيدي العُناة وعن أعناقها الرِّبَقَا
- وأبيضُ فياضٍ يدها غمامةٌ على معتفيه ما تُغِبُّ نَوَافِلُهُ
- أليس بفياضٍ يدها غمامةٌ ثِمَالِ اليتامى في السنين مُحْمَدِ
وقال بشر بن أبي خازم الأسدي (١٠٧):

متحلَّب الكفَّين غير غُضْبَةٍ جَزُلُ المواهب مُخْلِفٌ ما يُثْلِفُ

(١٠٤) الفرزدق، الديوان، تحقيق: إسماعيل الصاوي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، دون تاريخ، ص ٣٦١.

(١٠٥) زهير بن أبي سلمى، الديوان، سبق ذكره، ص ٢٨١.

(١٠٦) المصدر السابق، ص ٥٢ و ص ١٣٩ و ص ٢٣٣.

(١٠٧) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، تحقيق: د. عزة حسن، طبع مديرية إحياء التراث القديم، دمشق ١٩٦٠م، ص ١٥٥.

وقال الأعشى (١٠٨):

أنا لدى ملكٍ بِشَبِّ وَةٍ ما تَغِبُّ له النَّوافِلُ
مُتَحَلِّبِ الكَفِّينِ مُدَّ لَ البَدْرِ قَوَّالِ وفاعِلُ

وقال أيضاً يمدح الأسود بن المنذر اللخمي (١٠٩):

عنده الحِزْمُ والتُّقَى وأسا الصَّرَّ عَ وَحَلُّ لُضْلَعِ الأثقالِ
أَرْجَحِيٍّ صَلَّتْ يَظُلُّ له القَوُّ مُمْ رَكوداً قِيامَهُمُ للهِلالِ
رَبِّ حَيٍّ أَسْقَاهُمُ آخرَ الدهرِ رَ وَحِيٍّ سَقَاهُمُ بسِجَالِ

وليست التشبيهات المتكررة في الشعر الجاهلي بالمطر من قبيل المبالغة والمجاز وتحسين الصورة، إنما هي تعبير عن الرغبة في المطر، وتعبير عن التوتر والقلق الذي يعانيه الإنسان الجاهلي من انحباس المطر، وهذا التوتر ليس وليد الإرادة الواعية، إنما هو وليد الحدس الجماعي والشعور العام، والرغبة في ماء الحياة.

وربما كانت الأوصاف السابقة للمدوحين رواسب قديمة توحى بمهمة شيخ القبيلة: فهو قائد عسكري، وزعيم قبلي، ومصلح اجتماعي من جهة، وهو كاهن القبيلة ومتنبئها وزعيمها الروحي من جهة ثانية. . ومن مهمات الزعيم الروحي تلبية حاجة الأمة بالتعاون والسحر، وأهم حاجاتها: المطر.

(١٠٨) الأعشى الكبير، الديوان، تحقيق: محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجاميز، مصر،

١٩٥٠م، ص ٣٨٣.

(١٠٩) المصدر السابق، ص ٤٥.

(٤) الشعراء والمطر

و(للشعراء) في المجتمع الجاهلي أهمية بالغة، فهم الزعماء الروحيون، لهم صلة بالإلهام، وبالعالم الأرواح المُلهمَة الذي يذهب بهم في فنون الشعر كلَّ مذهب، وقد نسبوا أنفسهم إلى وادي الجن (عَبَقَر) وكان منهم متنبِّئون وعرافون وسحرة وكهان.

ومن يستعرض الشعر الجاهلي يجد الشعراء الجاهليين معنيين عناية مباشرة بسقوط المطر، فالشعراء كلهم يحسون القلق والتوتر وهم يترقبون المطر ويسهرون في عتمة الليل ينتظرون البرق والريح. والكلُّ يُعَذَّب من أجل المطر، ويتحفَّز ويأرق ويقلق ويسهد، وينتظر ويترصَّد، وتأتي أمثال هذه العبارات الدالة على القلق والتوتر بكثرة في الشعر الجاهلي:

(أَمْنَكْ بَرَقَ أَبَيْتُ اللَّيْلَ أَرْقُبُهُ) (١١٠)

(أَرْقُتُ لَهُ ذَاتَ الْعِشَاءِ) (١١١)

(يَا مَنْ لَبَرِقِ أَبَيْتُ اللَّيْلَ أَرْقُبُهُ) (١١٢)

(إِنِّي أَرْقُتُ وَلَمْ تَأْرُقْ مَعِيَ صَاحِ) (١١٣)

(١١٠) أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، ج ١ ص ١٦٧، سبق ذكره.

(١١١) المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٨.

(١١٢) عبید بن الأبرص، الديوان، ص ٣٤، سبق ذكره.

(١١٣) المصدر السابق، ص ٣٤.

- (يا من لبرق أبیت الليل أرقُبُهُ) (١١٤)
 (صاح ترى برقاً بث أرقبه) (١١٥)
 (هل تأرقان لبرق بث أرقبه) (١١٦)
 (أرقت له ونام أبو شريح) (١١٧)
 (قعدت له وصحبتني بين حامر) (١١٨)
 (أصاح ترى برقاً أريك وميضه) (١١٩)
 (أرقت وأصحابي قعود برَبْوَةٍ) (١٢٠)

نحس ونحن نقرأ الشعر الجاهلي في المطر تلك الحُمَيَّا وذلك الوجد الممزوج بالأرق، وتلك النشوة المتوترة التي تتتاب الشاعر وهو يرصد تحرك الحدث العظيم، وهو يتابع سقوطه في الظلام الحالك، وكأنما جاء نزول المطر عُنْوَةً بفعل ترقبه وصلواته وسهره، وتهجده، وسحره ومتابعته وتأمله.

ويبدو أن الشاعر الجاهلي - دون شعراء الأمم - تلقى على كاهله مسؤولية صنع المطر، لأن هذه المهمة هي مهمة الشاعر الساحر: صانع المطر (١٢١).

(١١٤) المصدر السابق، ص ١٢٨.

(١١٥) المصدر السابق، ص ٦٣.

(١١٦) امرؤ القيس، الديوان، ص ٢٨١، (سبق ذكره).

(١١٧) المصدر السابق، ص ١٤٨.

(١١٨) امرؤ القيس، الديوان، ص ٢٤، (سبق ذكره).

(١١٩) النابغة الذبياني، الديوان، ص ٢٤٦، (سبق ذكره).

(١٢٠) المصدر السابق، ص ١٨٧.

(١٢١) نصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى، عمان ١٩٧٦م، ص ٦٨ وما بعدها.

قال عنتره بن شداد(١٢٢):

وإن كان لوني مُعْتِمًا فَخَصَائِلِي بياضٌ ومن كَفْيٍ يُسْتَنْزَلُ القَطْرُ
أعتقد أن قول عنتره ليس من قبيل المجاز، لأنه يعبر عن حقيقة مُجَسَّدة محسوسة،
آمن بها الإنسان القديم وصدقها سواء أقبلناها أم لم نقبلها، لأن المطر - في العُرف
الجاهلي - نتيجة للفعل الإنساني المحض يأتي عنوة بفعل السحر والصلاة والقوة.

وقال امرؤ القيس بعد أن وصف المطر الذي تابعه وراقبه(١٢٣):

سَقَيْتُ به جَبَلِي طِيءً وَحَيًّا بنخلةً مَنَّا حَرِيداً
فالفعل (سقيت) لا يحتمل المجاز، لأنه يعبر عن حقيقة آمن بها، وعن رؤية
مباشرة في تصور نزول المطر عند الجاهليين.

(١٢٢) عنتره بن شداد، الديوان، ص ٨٩، (سبق ذكره).

(١٢٣) امرؤ القيس، الديوان، ص ٢٥٣، (سبق ذكره).

(٥) طقوس العرب في الاستسقاء

(أ) النار السحرية والمطر

وقد استخدم العرب - دون غيرهم من الأمم - النار طقساً سحرياً للاستسقاء، فكانوا إذا تابعت عليهم الأزمات، وركد عليهم البلاء، واشتد الجذب، واحتاجوا إلى الاستمطار، اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر، ثم عقدوا في أذناها وبين عراقيها السَّلْع والعُشْر^(١٢٤) ثم صَعَدُوا بها في جبل وعر، وأشعلوا فيها النيران، وضَجُّوا بالدُّعاء والتَّضرع، فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقيا^(١٢٥).

(١٢٤) السَّلْع: نبات، وقيل: شجر مرّ، وقيل: إنه سمّ، له ورقة صغيرة شاكّة كأنها الزغب، وهو بقلة تنفرش كأنها راحة الكلب.

والعُشْر: من كبار شجر العضاة، وهو ذو صمغ حلو وحراق مثل القطن، يقتدح به، وهو عريض الورق يخرج من شعبه، ومواضع زهره سكر فيه شيء من المرارة، يقال له: سكر العشر، وله نور كالدفلى مشرق حسن المنظر.

انظر: اللسان، مادة (سَلْع) و(عشر)، وحاشية كتاب النبات والشجر، للاصمعي، تحقيق أوغست هافنر، طبع بيروت، ١٩٠٨.

(١٢٥) الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة البايي الحلبي، مصر، (دون تاريخ)، ج ١ ص ٣٦٦. والنويري، نهاية الأرب، ج ١ ص ١٠٩. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ١ ص ٤٠٩.

لذلك قال أمية بن أبي الصلت يصف هذه الطقوس (١٢٦):

سنة أزيمة تخيل بالنّا
إذ يسفون بالدقيق وكانوا
ويسوقون باقراً يطرد السه
عاقدين النيران في شكر الأذ
فاشتوت كلّها فهاج عليهم
فراها الإله ترشّم بالقط
فسقاها نشأصه واكف الغي
س ترى للعضاء فيها صريرا
قبل لا يأكلون شيئاً فطيراً
ل مهازيل خشية أن تبورا
ناب عمداً كيما تهيج البحورا
ثم هاجت إلى صبر صبرا
ر وأمسى جناهم ممطورا
ث منه إذ راوعوه الكبيراً
وأنشد القحذمي للورل الطائي يسفه من يعتمدون هذه التعاويذ السحرية
لجلب المطر (١٢٧):

لا درّ درّ رجال خاب سعيهم
أجاعل أنت بيقوا مُسلّة
يستمطرون لدى الأزمات بالعُشر
ذريعة لك بين الله والمطر
وتشير بعض المصادر إلى أنهم يُصعدون البقر في الجبل الوعر إلى جهة الغرب
دون الجهات الأخرى (١٢٨).

وعلل جواد علي إضرام النيران في أذنان البقر بأن ذلك إنما فعلوه على سبيل
التفاؤل، فالنار إشارة إلى البرق، والبرق مجلبة للمطر (١٢٩).

واستنتج بناء على ذلك أحد الدارسين أن هذا الطقس تمثيل لهذه الظاهرة

(١٢٦) المصادر السابقة، وأمّية بن أبي الصلت، حياته وشعره، بهجة الحديشي، وزارة الإعلام،
العراق، ١٩٧٥م، ص ٢١٣.

(١٢٧) الجاحظ، الحيوان، ج ٤ ص ٤٦٧، وصبح الأعشى، ص ٤٠٩.

(١٢٨) النوبري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٢م، ج ١
ص ١٠٩.

(١٢٩) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، طبع بغداد، ١٩٧٨م، ج ٥ ص ٣٤١.

الطبيعية بكل أحداثها، حيث يُمثّل الدُخان تراكم السحب، وألسنة النار تمثل البرق، وهبوط الأبقار يشير إلى التفاؤل بنتيجة هذا الطقس، واستجابة للصلاة، والواسطة الإلهية هي النيران والأبقار الوحشية (١٣٠).

يذكر المؤرخ العربي (المقريري) طقساً سحرياً لمنع سقوط المطر كان شائعاً في بعض قبائل البدوي (حضر موت) وهي قبيلة (القمر)، فقد كان الناس هناك يقطعون غصن شجرة (معينة) في الصحراء، ويشعلون فيه النار، ثم يرشون الماء بعد ذلك على الخشب المشتعل، فيقل هبوط المطر حتى يتوقف تماماً مثلما تحتفي المياه التي ترش على الخشب المتوهج.

وفي بعض القبائل في (ماينبور) يارسون طقوساً مماثلة، ولكن لتحقيق هدف مناقض تماماً: أي إسقاط المطر.

فقد كانوا يحرقون الخشب على قبر رجل مات محروقاً، ثم يطفئون تلك النار بالماء، وينتظرون سقوط المطر الذي يُبَلِّلُ الجسم المحروق.

وفيما عدا العرب فإن كثيراً من الشعوب الأخرى كانت تستخدم النار وسيلة لمنع سقوط المطر (١٣١).

وروى القزويني عن مسعر بن مهلهل، قال (١٣٢):

أهل الرِّي إذا دامت عليهم الأمطار وتأذوا منها صَبُّوا لبن الماعز على النار، فانقطعت. قال: جَرَّبْتُ هذا مراراً فوجدته صحيحاً.

النار لها مكانة مرموقة في المعتقدات الجاهلية، فقد اعتقدوا فيها قوة سحرية

(١٣٠) د. علي البطل، الصورة الفنية في الشعر العربي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١٣١.

(١٣١) فريزر، الغصن الذهبي، ج ١ ص ٢٥٤، (سبق ذكره).

(١٣٢) القزويني، آثار البلاد، ص ٣٤٥، (سبق ذكره).

وأوقدوها في الحلف المقدس، وأشهروا بها الغادرين، وربما جاءت عبادتهم للأصنام الحجرية لأن النار لا تقدر على إحراقها وإفنائها.

وقد عبد بعض العرب (تميم وغيرها) النار بطقوس خاصة، فهم يحفرون أخدوداً مربعاً في الأرض، ويضرمون فيه النار، ثم يطرحون فيها الطعام والشراب واللباس والجواهر تقرباً إليها وحرّموا إلقاء النفوس فيها (١٣٣).

أما الساميون القدماء فكانوا يضحون بأنفسهم وأولادهم حرقاً في النار المقدسة، فقد ضحّى (ميشا) ملك مؤاب بابنه البكر في هب النار.

وانتحر الملك الأشوري (سردنابالس) الذي أسس طرسوس في محرقة هائلة.

والنار في اعتقاد الفرس المبجلين لها هي الشكل الدنيوي للنور الإلهي الأزلي الخالد، الذي لا يحده زمان ولا مكان.

وكان الأقدمون يعدّون النار مُطَهِّراً قوياً، لأنها تلتهم الجسد الفاني ولا يبقى من الإنسان إلا الروح الإلهية الخالدة (١٣٤).

وكانت الوثنية الفينيقية تُقدّم الضحايا البشرية للنار، وقد يقدمون أعزّ أبنائهم قرابين تلتهمهم نار الآلهة (١٣٥).

وقد استسقى الفرس بالنار، قال البيروني في تفسير (عيد أفريجكان) أي (عيد صبّ الماء) عند الفرس (١٣٦):

السبب فيه أن القطر احتبس في زمن «فيروز جد أنوشروان»، وأجذب الناس، ففتح الشاه خزائنه للناس حتى نفدت، واستدان من أموال بيوت النيران، ثم سار

(١٣٣) النويري، نهاية الأرب، ج ١ ص ١٠٥، (سبق ذكره).

(١٣٤) جيمس فريزر، أودنيس، ص ٩٢ و ص ١١٩ و ص ١٢٢ و ص ١٢٥، (سبق ذكره).

(١٣٥) أمين مدني، التاريخ العربي وبدايته، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ص ٣٥٨.

(١٣٦) البيروني، الآثار الباقية من القرون الخالية، طبع لبيزج، ١٩٢٣ م، ص ٢٢٨.

إلى بيت النار بفارس، فصلّى وسجد واستسقى .

ووجد السّدنة والهرابذة لم يُسلّموا عليه تسليم الملوك، فأقبل على النار، وضمّ اللهب إلى صدره ثلاث مرّات ضمّ الصديق صديقه عند المُساءلة، وبلغ اللهب لحيته ولم تحترق، ثم دعا واستسقى، وتوجه نحو مدينة (دارا)، فأقبلت سحابة لم يعهد قبلها غزارة حتى جرت المياه في السرادق والخيام . . وكان كل إنسان من السرور الذي لحقه من ذلك أن صبّ على صاحبه الماء، وصار هذه اليوم عيداً في إيران كلها .

فالنار التي تمنح المطر، ولعل العرب قد ضحوا بالبقر فداءً لأنفسهم وأولادهم تقريباً من الآلهة، لذلك كانوا يصعدون على رؤوس الجبال لتكون الآلهة قريبة منهم تسمع شكواهم وترى توسلاتهم .

وكان أولى الناس بفداء نفسه الزعيم الروحي، أو الملك . . ولعله هو الذي يضحى بأبقاره لإرضاء الآلهة . أما الفقراء وعامة الشعب فهم ينتظرون من الزعيم أن يأتي بالمطر، فإن لم يستطع ذلك، فلا زعامة له عليهم .

وقد ارتبط المطر في الحس اللغوي العربي بالنار ارتباطاً دقيقاً، وهذا الارتباط له دلالة رمزية على المعنى الروحي للنار، فسموا المطر ودّقاً والنار وديقة (١٣٧) .

(١٣٧) انظر: اللسان، مادة (ودق) .

(ب) ثور الوحش والمطر

ويرتبط بالنار الأبقار والثيران التي يُصَعَّد بها في الجبال - سواء أكانت أهلية أم وحشية-.

أما علاقة البقر بالمطر من حيث هي رمز يدل عليه، ومن حيث هي تعويذة سحرية يُسْتَدْعَى بها المطر، فهي علاقة قديمة، إذ تُثَلِّل البقرة قوَّة تتحكم في السحب وتنزل المطر، وتحيل الفراعنة السماء بقرة والمطريدر من ثدييها العظيمنتين. وما عادة استسقاء العرب بالبقر إلا مخلفات عبادة الثور وما يرمز إليه من الخصب والإرواء.

ويبدو أن النار المضرمة في حطب السَّلَع والعُشْر ما هي إلا تطوُّر لطقوس واحتفالات قديمة تتصل بهذا الإله (الثور) (١٣٨).

وتأتي صورة الثور في الشعر الجاهلي (١٣٩) مقرونة بالنار دائماً، فهو شهاب ثاقب متوقد، وهو جذوة نار مستعرة، أولهب منير مُتَضَرِّم، أو حريق مشتعل متأجج.

قال امرؤ القيس (١٤٠):

فَأَدْبَرَ يَكْسُوها الرُّغَامَ كَأَنه عَلَى الصَّمْصَدِ وَالْأَكَامِ جَذْوَةُ مُقْبِسٍ
فَأَذْرَكْنَه يَأْخُذْنَ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا كَمَا شَبَّرَقَ الْوَلْدَانِ ثَوْبَ الْمُقَدَّسِ

وقال أبو ذؤيب الهذلي (١٤١):

من وحش حَوْضِي يُرَاعِي الْوَحْشَ مَبْتَقِلًا كَأَنه كَوْكَبٌ فِي الْجَوِّ مُنْحَرِدِ

(١٣٨) عبد الجبار المطليبي، مواقف في الأدب والنقد، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م، ص ١٠٧.

(١٣٩) سافر للثور بحثاً خاصاً لأهميته في المعتقد الجاهلي، خاصة مسألة الاستمطار.

(١٤٠) امرؤ القيس، الديوان ص ١٠٢ - ١٠٣، (سبق ذكره).

(١٤١) شرح أشعار الهذليين، ج ١ ص ٦٠، (سبق ذكره).

وقال النابغة (١٤٢):

مُولِي الرِّيحِ رَوَّاقِيهِ وَجَبَّهَتْهُ
كَالْهَبْرِ قَتِي تَنْحَى يَنْفُخُ الْفَحْمَا

وقال ضابيء بن الحارث البرجمي (١٤٣):

شَدِيدُ سَوَادِ الْحَاجِبِينَ كَأَنَّمَا
أُسِفَتْ صَلَى نَارٍ فَأَصْبَحَ أَكْهَلَا

وقال أوس بن حجر (١٤٤):

وَانْقَضَّ كَالدَّرِّيِّ يَتَّبِعُهُ نَقْعٌ يَثُورُ تَخَالُهُ طُنْبَا
يَخْفَى وَأَحْيَانًا يَلُوحُ كَمَا رَفَعَ الْمُنِيرُ بَكْفَهُ لَهَبَا

وتأتي صورة الثور في الشعر الجاهلي مُتَّصِلَةً بالمطر والريح والعاصفة التي تحصبه بالبرد والمطر، فبييت ليله مؤرِّقاً - كالشاعر الجاهلي تماماً - يقاسي الظلمة والريح والماء الدافق، لكنه يلوذ بالأرطاة كراهب منعزل متعبد يتأمل المطر ويفكر بالنور ويتنظر الأمل ويقاسي الهموم، ويدفع الهواجس.

وفي كل القصائد التي تصف الثور الوحشي تصف معه المطر (١٤٥) الذي ينثال على منته كالدرّينما هو في سُموٍّ وتعالٍ وطَّهر، يبدو عليه التوتر والقلق، لكنه يبذل الجهد، ويتابع المطر، ويتأمل منفرداً، يتهجّد في عتمة الظلام، ويبتهل، ويتوسّل ويكاد يصلي في محرابه أو كناسه، كراهب متبتّل انطوى على نفسه يتأملها.

(١٤٢) النابغة، الديوان، ص ٦٥، (سبق ذكره).

(١٤٣) الأصمعيّات، ص ١٨٣، (سبق ذكره).

(١٤٤) أوس بن حجر، الديوان، ص ٣ - ٤، (سبق ذكره).

(١٤٥) امرؤ القيس، الديوان ص ١٠٢. النابغة، الديوان، ص ١٨ وص ٦٥ وص ٢١٥. المثقب

العبدى، الديوان، ص ٣٥ و ٤٩. وعبيد بن الأبرص، الديوان ص ٤٤ و ١٧ و ١١١.

زهير، الديوان ٤٢ و ٥٧ و ٢٧٥. طرفة، الديوان ص ١٨٥. أوس بن حجر، الديوان

ص ٢. بشر بن أبي خازم، الديوان ص ٥١ وص ٨٢ وص ٥٥. الأعشى، الديوان ص ٢٤٩

و ٣١٥ و ٣٣١ و ٣٦١.

وما إن تنكشف الظلمة ويأتي النور وتتم ولادة المطر، تظهر علامات البشر والرضى والانتصار والزهو على مَحْيَا الثور، فينطلق محبوراً جذلاً كالشهاب الثاقب، أو كجذوة مُقْبَس، أو كالسيف الصقيل.

هذا الارتباط القديم بين الثور والمطر يتضح تماماً في الشعر الجاهلي عندما تُسَرَّد قصة الثور الوحشي، لأن الثور رمز مشهور من رموز المطر، ولعل تسميتنا للنبات والزرع الذي يسقى بماء السماء (بَعْلًا) من الاعتقادات القديمة التي تتصل بقدسية الثور وما يرمز إليه من الخصب والمطر لأن من أسماء الثور (بعلاً) (١٤٦)، والبَعْلُ: الربُّ والمالك والسيد وصانع المطر.

(١٤٦) اللسان، مادة (بعل).

خلاصة الفصل الثاني ونتائجه

تناولت في هذا البحث موضوع الاستسقاء في الشعر الجاهلي في ضوء الدراسات الميثولوجية الحديثة، وعرضت لوسائل الإنسان القديم للتحكم في المطر بواسطة السحر، فتحدثت عن حجر المطر، ودور الفرس في الاستسقاء، وعن طقوس الاستحمام وغسل الثياب في جلب المطر، ثم التضرع للأماكن المقدسة والأولياء والقديسين، والاستسقاء بعظام الموتى ودور الشعراء في الاستسقاء.

ورأيت أن الدعاء بسقيا الأطلال والقبور ما هو إلا بقايا تراث ديني قديم كان أصلاً طقساً سحرياً يُمارس على عظام الموتى، ووجدت أن الشاعر القديم كان يؤمن بقدرته على صنع المطر واستنزاله بفعل شعره وصلاته وابتهالاته. . وأنه كان يرى في ممدوحه القدرة على استدعاء المطر واستنزال الخير.

وعرضت لتصوّر الجاهليين للنار والثور، ورأيت أن الشعر الجاهلي قد مثّل إيمان الجاهليين في قدرة هذين الطلّسمين على استنزال المطر، ودللت على ذلك بتحليل نماذج شعرية في صفة الثور الوحشي.

الفصل الثالث

صُورَةُ الْمَطَرِ فِي الْوَقْفَةِ الْطَلَلِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ

التفسير الواقعي - التفسير النفسي - التفسير الفلسفي

التفسير الرمزي - التفسير البنيوي - فكرة المطر في الوقفة الطللية

صورة المطر في الوقفة الطللية الجاهلية

شغلت الوقفة الطللية في الشعر الجاهلي الباحثين والنقاد المعاصرين ، فوقفوا أمام هذه الظاهرة الفنية مشدودين مفتونين تارة ، ومتأملين تارة أخرى . . فالطلل كان من بواعث قلق الشاعر الجاهلي وتوتره وأرقه ، وكان من بواعث أرق الباحثين وحيرتهم ، لأن وصف الأطلال لم يكن واحداً ؛ ففيه الحبُّ والشَّجَن ، والألم والحسرة ، والاستقرار والرحيل ، والتذكُّر والتذكُّرى ، والماضي والحاضر ، واللذة واللوعة . . ومشاعر الإنسان ، وهموم الجماعة ، وفيه الرغبة والرغبة ، والتجربة الفردية وتراث القبيلة ، ومعاني الحياة والبقاء ، والزوال والفناء ، وفيه كثيرٌ من الرموز التي تُغري دارسي الشعر الجاهلي على الكشف عنها ، وتتسع الوقفة الطللية لكثير من التفسيرات والتأويلات التي تتفق ومذاهب النقاد المُحدِّثين الفكرية والنقدية ، والتي تُمكنهم من أن يسقطوا على الشاعر الجاهلي همومهم وهموم عصرهم ، وما يعتقدون ، ومن هنا اختلفت آراؤهم في تفسيرها ، وتباينت أفكارهم في تحليلها . ويمكن أن نلاحظ خمسة اتجاهات كبرى في تفسير الوقفة الطللية ، هي :

١ - التفسير الواقعي .

٢ - التفسير النفسي .

٣ - التفسير الفلسفي .

٤ - التفسير الرمزي .

٥ - التفسير البنيوي .

والوقفة الطللية خصة رَحْبة، تَتَّسع لكلِّ المناهج السابقة في التفسير والتحليل، وتستوعب كثيراً من الاتجاهات الفكرية، لأنها أخصب تجارب الإنسان العربي الجاهلي وأقربها إلى نفسه وقلبه وعقله وأدناها من حياته وثقافته وتراثه.

ومن هنا كانت صعوبة هذا البحث؛ لأنَّ منهجاً واحداً من المناهج السابقة سيبقى قاصراً عن النفاذ إلى أسرار الطلل، فالتفسير الواقعي قاصر؛ لأن واقع الشعر مُتَمَيِّز عن واقع الحياة، وهو من جانب آخر يُعَبِّرُ عن الواقع. . أو هو رؤية له، يعبر عن قضايا الواقع تعبيراً رمزياً فيه كشف نفسي، واستبطان فلسفي لأفكار الشاعر وطموحاته وهمومه. . ومن ثَمَّ كان التفسير الرمزي، منفصلاً عن واقع الحياة، ليس إلا ضرباً من الوهم والتَّخمين، وكذلك الأمر بالنسبة للمنهج النفسي والفلسفي. . فالشاعر يصنع صوره ومشاهد من واقع الحياة لكنه يُعَدِّلُ في هذه الصُّور والمشاهد، ويحوِّرها ويغيِّرُها لتكونَ قادرةً على حَمْلِ أفكاره والتعبير عن آرائه وتجاربه وخبرته ومشاعره.

وعلى الرغم من بروز «فكرة المطر» في الوقفة الطللية من حيث هي واقع أهم الشاعر الجاهلي وأحزنه وأقلقته، ومن حيث هي رمز شعري ساق من أجلها مشاهد واسعة ولوحات كثيرة حَمَلَهَا همومه، وطموحه، ومشاكله، وأشجانه، وفلسفته، وآراءه، فقد أهملها أكثر الدارسين، ولم يعنوا بالكشف عن دورها في توجيه الوقفة الطللية وتفسيرها، لذلك كان اختياري لهذا البحث على كثرة ما كُتِبَ عنه، وعلى تعدُّد مناهج الدارسين السابقين فيه.

وقد رأى كثير من الباحثين في الوقفة الطللية نزعة فردية، ومشكلة خاصة، ورؤية ذاتية. . على الرغم من وضوح وحدة التصوُّر في الوقفة الطللية، ووحدة التفكير الجمعي. .

ثم إنني نظرت إلى القصيدة الجاهلية من حيث هي بناء فني متكامل، ومن حيث هي وحدة عضوية مُتَّصِلة الأجزاء، ف «التفكير في المطر» في الوقفة الطللية يستمر في

وصف المرأة عندما يُعبرون عن شوقهم إلى المطر ببناء صورة متحدة بين الشجر العذب والمطر الطيب، أو عندما يكون الظعن الراحلة، ويختارون لدموعهم شبهاً بماء الناقة السانية التي تستخرج الماء من البئر العميقة وتُحوّل الصحراء إلى جداول رقراقة.

ويبقى «التفكير في المطر» عندما يصفون رحلة الشاعر الجاهلي في الصحراء الظَّمْأى . . فالإبل تشمُّ الماء وتتوقَّع المطر، وتستقر بجانب مورد الماء الذي رحلوا من أجله، ومن أجله رحلت المرأة، وأقفرت الديار، وتحوّلت أطلالاً ييباً.

ولا يني الشعراء الجاهليون يكررون وقوفهم على الأطلال، ييكونها أحربكاء، ويصفون أحجارها الصَّم التي أوحشت من ساكنيها، وأثافيها السُّفَع المحترقة التي عدا حدثان الزمان عليها عدو الذئاب، ودمنها المتبقية المتناثرة، ونؤيها المتهدّم الدَّارس، وحيواناتها التي تجوس قيعانها وترودها آمنة مطمئنة، وتعاور الأمطار العاصفة عليها، والرياح المتدائبة لها، وما تحمله من سَفْي وتراب وحَصباء فتزيدها طموساً واندثاراً.

وصوروا خرس هذه الديار، وصممها، وطموسها، وانمحاءها، وخرابها، ووحشتها، وتآبدها، وتعطيها من ساكنيها، وشكوا من الزمان وغدره وعُرامه وشراسته، وأحسوا الغربة والضياح، وتحسروا على الوطن الأم وعصر الصِّبا والفتوة والشباب وما فيه من ذكريات جميلة، ومُتَع لذيدة، وبثوا أحزانهم وأشواقهم وآلامهم وتخيلاتهم عن الحياة الدَّارسة، وسر الموت.

وتكاد المقدمة الطللية تكون من لوازم القصيدة الطويلة في الشعر الجاهلي، إذ تأتي الوقفة الطللية حاضرة في أغلب قصائد الشعر الجاهلي (الأنموذج) ما عدا قصائد الرثاء والحماسة والهجاء وشعر الصعاليك وشعر المرأة^(١).

(١) عرف شعراء الجاهلية مقدمات أخرى منها: وصف الطيف وخيال المحبوبة، وذكر الشراب والغلمان والتوجع من الشيب وانقضاء الشباب، والتغزل بالمحبوبة ووصفها. انظر تفصيل ذلك =

ويلتزم الشعراء في الوقفة الطللية - في ظاهر الأمر - حدوداً ضيقة شديدة الضيق ، ورسوماً واضحة شديدة الوضوح ، وأساليب متقاربة شديدة التقارب .

وتكاد ، موافقهم وأحداثهم ومشاهدهم وصورهم ومعانيهم وتعبيرهم وتجاربهم وتقاليدهم تتشابه تشابهاً يوحى بصور هذا الأدب عن عقل متّحد ، وفكر جماعي منظم ، فالمعاني والصور والتعبير والتراكيب تبدو أناشيد جماعية أبدعها عقل الأمة ، ونظمها ضميرها .

قال امرؤ القيس (٢) :

قفا نَبْكُ من ذكرى حبيبٍ ومَنْزِلِ	بسقَطِ اللَّوى بين الدَّخولِ فَحَوْمَلِ
فتوضَّحَ فالمِقْرة لم يَعْفُ رَسْمُها	لما نَسَجَتْها من جنوبٍ وشَمَالِ
ترى بَعْرَ الأرامِ في عَرَصَاتِها	وقيعانها ، كأنه حَبٌّ فَلْفَلِ
وقفتُ بها حتى إذا ما تردَّدت	عمايةً محزونٍ بشوقٍ مُوَكَّلِ
ففاضت دموعُ العَيْنِ مني صَبابة	على النَّحرِ حتى بَلَ دَمْعِي مِجْمَلِ
وقوفاً بها صَحْبِي عَلَيَّ مطيُّهم	يقولون : لا تَهْلِكِ أَسَى ، وَتَجْمَلِ
وإنَّ شَفائي عِبرةٌ مُهْراقةٌ	وهل عند رَسْمِ دارسٍ من مُعوَلِ
كأنِّي غداةَ البَينِ ، يومَ تحمَّلوا	لدى سَمُراتِ الحَيِّ ناقِفٌ حَنْظَلِ

= عند ، د. حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية (دار المعارف بمصر ١٩٧٠) .

(٢) امرؤ القيس بن حجر الكندي (. . . - ٥٤٠) ، الديوان ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ م ، ص ٨ - ٩ .

السقط : منقطع الرمل . اللوى : حيث يلتوي ويرق . الدخول وحومل : بلدان وكذلك توضح والمقرة . يعف : يدرس . الأرام : الظباء البيض . المطي : الابل ، السمر : شجر أم غيلان . الناقف : المستخرج حب الحنظل . المعول : العويل والبكاء . الصبابة : رقة الشوق . والمحمل : سير يحمل به السيف .

وقال زهير بن أبي سلمى (٣):

أَمِنْ أُمٍّ أَوْفَى دَمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ
دِيَارَ لَهَا بِالرُّقْمَتَيْنِ، كَأَنَّهَا
بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خَلْفَةً
وَقَفْتُ بِهَا، مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ حِجَّةً
أَثَافِي سَفْعاً فِي مَعْرَسِ مَرْجَلٍ
فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا
تَبْصُرَ خَلِيلِي، هَلْ تَرَى مِنْ ظِعَائِنِ
عَلَوْنَ بَانِطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ
وَفِيهِنَّ مَلَهَى لِللطيفِ وَمَنْظَرٍ
بَكْرَنْ بُكُوراً، وَاسْتَحَرَنْ بِسُحْرَةٍ
جَعَلَن الْقَنَانُ عَنْ يَمِينٍ وَحَزْنُهُ
ظَهَرَنْ مِنَ السُّوبَانِ يعلون مَتْنَهُ
كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ
فَلَمَّا وَرَدَنْ الْمَاءَ زُرْقاً جِمَامُهُ

بَحْوَمانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمَتَشَلِّمْ
مَرَّاجِعُ وَشَمِّ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمٍ
وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمٍ
فَلَأَيَّاءُ عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوْهُمِي
وَنُؤْيَاءُ كَحَوْضِ الْجُدِّ لَمْ يَتَشَلِّمْ
أَلَا أَنْعَمَ صَبَاحاً أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمَ
تَحْمَلْنَ بِالْعَلِيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثَمِ
وَرَادِ حَوَاشِيهَا، مُشَاكِهَةَ الدَّمِ
أَنْيَقَ لَعَيْنِ النَّاظِرِ الْمُتَوَسِّمِ
فَهُنَّ، وَوَادِي الرَّسِّ، كَالْيَدِ فِي الْقَمِ
وَكَمْ بِالْقَنَانِ مِنْ مُحِلٍّ وَمُحْرَمِ
عَلَيْهِنَّ دَلُّ النَّاعِمِ الْمُتَنَعِّمِ
نَزَلْنَ بِهِ حُبُّ الْقَنَانِ لَمْ يُحْطَمْ
وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ

(٣) زهير بن أبي سلمى (. . . - ٦٠٩) ، الديوان بشرح ثعلب ، مصورة عن دار الكتب المصرية ،
الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ م ، ص ١٦ وما بعدها .
حومانة : موضع بالعالية . لم تكلم : لم تبين . الدمنة : آثار الديار وما سودوا . النواشر : عصب
الذراع . العين : البقر الوحش . الأرام : الأطباء . خلفه : إذا مضى فوج جاء فوج آخر .
أطلاؤها : الطلا : ولد البقرة والظبية . لأياً : بعد جهد وبطء . السفعة : سواد تحالطه حمرة .
جذم الحوض : حَرْفَةٌ وأصله . الجُدُّ : البثر . المعرَّس : موضوع هجوع القوم ليلاً . وراد : لون
الورد . الكِلَّة : الستر . حواشيها : نواحيها . مشاكهة : مشابهة . المتوسم : الناظر الذي يتفرس
في نظره . القنان : جبل لبني أسد . السويان : واد . ظهرون منه : خرجن منه . قشيب : جديد .
مفام : قد وسع وزيد فيه ليتسع . القنا : شجر . العهن : الصوف . الحمام : ما اجتمع من الماء . =

وقال لبيد بن ربيعة^(٤) :

أَلَمْ تَلِمْ عَلَى الدَّمَنِ الْخَوَالِي لَسَلِمَى بِالْمَذَانِبِ فَالْقُفَالِ
فَجَنْبِي صَوَارٍ فَنِعَافٍ قُوٌّ خَوَالِدَ مَا تَحَدَّثُ بِالزَّوَالِ
تَحْمَلُ أَهْلَهَا إِلَّا عِرَاراً وَعَزَفاً بَعْدَ أَحْيَاءٍ حِلَالِ
وَحَيْطاً مِنْ خَوَاضِبٍ مُؤَلَّفَاتٍ كَأَنَّ رِئَالَهَا أَرْقُ الْإِفَالِ
تَحْمَلُ أَهْلَهَا وَأَجَدَّ فِيهَا نِعَاجُ الصَّيْفِ أَخْبِيَةِ الظُّلَالِ
وَقَفْتُ بِهِنَّ، حَتَّى قَالَ صَحْبِي : جَزَعْتُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِالنُّوَالِ

المعاني والتراكيب والصُّور في الوقفات الطللية السابقة تتردد عند الشعراء الآخرين^(٥) تردداً يدل على وحدة التصوُّر في الفكر الجاهلي، فالوقوف بالطلُّ «بعد عشرين حجة»، و«معرفته بعد التوهم»، و«تشبيه النوى بالحوض»، و«ثبات الطلُّ بالوشم المنمَّم في المعصم»، و«الدُّعاء للربيع بالسلامة»، وغير ذلك من التعبيرات المكررة لا يمكن أن تصدر إلا عن «لا وعي» جمعي، وروح متحدة، فقول زهير: «أمن أم أوفى» أنشودة جماعية يُرتلُّها الشعراء ويكررونها في قصائدهم:

قال المرقش الأصغر^(٦):

- = المتخيم، المقيم. الحاضر: الذين حضروا الماء.
- (٤) لبيد بن ربيعة العامري (٥٤٠م - ١٦٦٥ أو ٦٦٩م)، الديوان، تحقيق: إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأبناء، الكويت، ١٩٦٢م، ص ٧٣.
- الخوالي: التي مضى عليها الأمد. المذانب والقفال وصوار ونعاف: أمكنة. العزف: أصوات الجن وهزيمهم. الخيط: القطيع. الخواضب: النعام المخضبة أرجله وقت التزاوج أو من أكل الربيع. الرثال: أولاد النعام. أرق الأفال: حيران الإبل السود.
- (٥) انظر: عبد المنعم الزبيدي، مقدمة لدراسة الشعر الجاهلي، منشورات جامعة قاريونس، ليبيا، (دون تاريخ)، ص ٢٣٨.
- (٦) التبريزي، يحيى بن علي (٤٢١هـ - ٥٠٢هـ)، شرح المفضليات. تحقيق: علي البجاوي، دار =

«أَمِنْ رَسْمِ دَارِ مَاءٍ عَيْنِيكَ يَسْفَحُ»

وقال عوف بن عطية^(٧):

«أَمِنْ آلِ مِيٍّ عَرَفَتِ الدَّيَارَا»

وقال ربيعة بن مقروم الضبي^(٨):

«أَمِنْ آلِ هَنْدٍ عَرَفَتِ الرُّسُومَا»

وقال زهير بن أبي سلمى^(٩):

«أَمِنْ آلِ لَيْلَى عَرَفَتِ الطُّلُولَا»

وقال خدّاش بن زهير^(١٠):

«أَمِنْ رَسْمِ أَطْلَالٍ بِتَوْضَحٍ كَالسَّطْرِ»

وقال المرقش الأكبر^(١١):

«أَمِنْ آلِ أَسْمَاءِ الطُّلُولِ الدَّوَارِسْ»

وقال امرؤ القيس^(١٢):

«أَمِنْ ذِكْرِ نَبْهَانِيَّةٍ حَلَّ أَهْلُهَا»

= نهضة مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٤١ وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد
هكذا: التبريزي، المفضليات.

(٧) التبريزي، المفضليات، ص ٤١٢.

(٨) التبريزي، المفضليات، ص ١٨١.

(٩) زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص ١٩٣.

(١٠) أبوزيد القرشي، محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب، ٢ مج، تحقيق البجاوي،
مطبعة لجنة البيان، مصر، (دون تاريخ)، ج ٢ ص ٥١٥.

(١١) التبريزي، المفضليات، ص ٢٢٤.

(١٢) امرؤ القيس، الديوان، ص ٨٨.

وقال النابغة الذبياني^(١٣):

«أَمَّنْ آلَ مِيَّةَ رَائِحُ أَوْ مُغْتَدِي»

ويأتي تشبيه الطَّلُّ بالوشم المَرْجَع في مِعْصَمِ عِذْرَاءٍ تَعْوِذَةً سَحَرِيَّةً تَحْمِي الطَّلَّ
من الزَّوَالِ والاندثار:

قال طرفة^(١٤):

لَحَوْلَةٍ أَطْلَالٌ بِرَقَّةٍ ثَهَمَدٌ تَلَوُّحٌ كِبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

وقال عبد الله بن سلمة^(١٥):

أَمَسْتُ بِمَسْتَنِّ الرِّيحِ مَغِيلَةً كَالْوَشْمِ رُجَّعٌ فِي الْيَدِ الْمُنْكَوسِ

وقال عنتره بن شداد^(١٦):

أَلَا يَا دَارَ عِبَلَةٍ بِالطُّوِيِّ كَرَجَّعِ الْوَشْمِ فِي رُسْغِ الْهَدِيِّ

وقال لبید بن ربیعہ^(١٧):

وَجَلَا السَّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجَدُّ مَتُونَهَا أَقْلَامُهَا
أَوْ رَجَّعَ وَاشْمَةٍ أُسِفَتْ نُؤُورُهَا كِفَفًا تَعَرَّضَ فَوْقَهُنَّ وَشَامُهَا

(١٣) وليم الورد، العقد الثمين من دواوين الشعراء الجاهليين، تحقيق: وليم الورد البروسي، طبع ألمانيا الغربية، ١٨٦٩م، ص ٩، وسيشار لهذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: وليم الورد، العقد الثمين.

(١٤) طرفة بن العبد البكري، الديوان، تحقيق: علي الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٥.

(١٥) التبريزي، المفضليات، ص ١٠٥.

(١٦) وليم الورد، العقد الثمين، ص ٥٢.

(١٧) لبید بن ربیعہ العامري، الديوان، ص ٢٩٩.

وقال المتنخل الهذلي^(١٨):

كوشم المِعْصَمِ الْمُغْتَالِ غَلَّتْ رَوَاهِشُهُ بَوْشَمِ مُسْتَشَاطِ

وقال بشر بن أبي خازم^(١٩):

رماد بين أظَارِ ثَلَاثٍ كَمَا وَشِمَ الرَّوَاهِشُ بِالنَّوْورِ

وقال الطفيل الغنوي^(٢٠):

لَمَنْ طَلَّلَ بَذِي خَيْمٍ قَدِيمٍ يَلُوحُ كَأَنَّ بَاقِيَهُ وَشُومِ

وقال زهير بن أبي سلمى^(٢١):

لَمَنْ طَلَّلَ بَرَامَةً لَا يَرِيْمُ عَفَا وَخَلَا لَهُ حُقُبٌ قَدِيمِ
يَلُوحُ كَأَنَّهُ كَفَا فَتَاةً تُرْجَعُ فِي مَعَاصِمِهَا الْوُشُومِ

وقال أيضاً^(٢٢):

هَاجَ الْفُؤَادَ مَعَارِفُ الرَّسْمِ قَفَرُ بَذِي الْهَضَابِ كَالْوَشْمِ

وهكذا تأخذ التعابير المكررة، والتشبيهات المتماثلة في داخل نظام القصيدة الفكرية دلالة عميقة أبعد من الدلالة الحسية القريبة، ومن الدلالة الفردية الخاصة؛ لأنها بمثابة الطُّقُوس أو الشُّعَائِر التي تصدر عن المجتمع بروح متحدة جماعية، والتكرار

(١٨) الهذليون، شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبد الستار فراج، دار العروبة، مصر ١٩٦٥م،

٣ مج، ج ٣ ص ١٢٦٦، وسيشار إليه لاحقاً بـ «شرح أشعار الهذليين».

(١٩) بشر بن أبي خازم الأسدي، (٣٢٠ ق.هـ / ٥٩٠ م)، الديوان، تحقيق: عزة حسن، طبع دمشق، ١٩٦٠م، ص ٦٥.

(٢٠) الطفيل الغنوي: الديوان، تحقيق: محمد عبد القادر، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٨، ص ٩٥.

(٢١) زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص ٢٠٦.

(٢٢) زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص ٣٨٢.

للموضوع الواحد مع الاختلاف الذي لا ينتهي في التفصيلات يذكّرنا بموضوع «مريم البتول وطفلها» الذي تناوله عشرات الرسامين الأوروبيين، وكلّ منهم يأتي بجديد غني التنوّع (٢٣).

هناك - إذن - ملامح مشتركة كثيرة في وصف الطفل، ووحدة غريبة تصدر- أصلاً- عن وحدة التفكير، ووحدة الحسّ، وعن روح المجتمع وقيمه الفنيّة. ومن هنا كانت الوقفة الطلّلية في القصيدة الجاهلية، ذات خطر كبير لأنّها نجد فيها ما لا نجده في أغراض الشعر الأخرى: من تمثيل دقيق لحقيقة الفكر الجاهلي، ومن تعبير أصيل عن نبع المعاناة والمكابدة في الحس الجاهلي.

وقد لاحظ النقاد أهمية الوقفة الطلّلية في الشعر القديم، وحاولوا تفسيرها:

(٢٣) محمد النويهي، الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، جزءان، الدار القومية بمصر، دون تاريخ، ص ١٥٦ وما بعدها.

(١) التفسير الواقعي

(أ) رأى «ابن قتيبة» في وصف الطلل تعبيراً عن الأسى الذاتي عند آثار حبيبة حقيقية راحلة (٢٤).

(ب) وعَلَّل «شوقي ضيف» بكاء الديار القديمة بأنه بكاء يفيض بالحنين الرائع إلى ذكريات شبابهم الأولى (٢٥).

(ج) ولاحظ «شكري فيصل» أن الشعراء في وصف الأطلال يُعَنُون بتصوير حياتهم العاطفية، وكل شاعر يُكُون الطَّلُّ بحالته النفسية وأفكاره الخاصة، فهناك مناجاة، ودموع، وموسيقى، وألم دفين، ويأس، وأحاسيس عارمة فياضة؛ مما يدل على أن وصف الأطلال لم يكن غرضاً تقليدياً في حياة هؤلاء الشعراء تُملِّيه طبيعة القصيدة، وتدعو إليه عادات الشعر، وإنما كانت تملِّيه الحياة الداخلية التي يحياها هؤلاء الشعراء (٢٦).

(د) ويرى «مصطفى عبد الواحد» أنَّ البكاء على الأطلال أو الوقوف بها مجرد ثورة عاطفية يتذكَّر فيها الشاعر أياماً انقضت أو يسترجع ساعات من طيب العيش ولذَّته.

(٢٤) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦م، ص ٧٥.

(٢٥) شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦م، ص ٢١٢.

(٢٦) شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، طه (دون تاريخ)، ص ٣٨ - ٨٣.

وكان يدفع العربيّ إلى ذلك الشعور بالشَّجَن والحزن لأن حياته ليس لها طابع الاستقرار، فالديار تعمُر ثم تُفْقر، والأحباب يظعنون ويخلفون له اللوعة والحسرة، فكان بكاءه في الحب بكاء على نفسه، وأسى على ذهاب أنسه، وفقد مُتعه .

لا غرو أن كان الجاهلي يبكي على فقد المرأة في أسي، لكنه لا يستطيع تصوير العلاقة بينه وبينها في صورة مثالية ترتفع عن الحس وتتصل بالعاطفة في ثباتها ووفائها، إذ لم يكن لديه من المشاعر والمثل النفسية ما يسموبه عن الحس، ويلهمه الصُّور، ويمدّه بالتجارب (٢٧).

(هـ) وقال «نوري القيسي»: إن وصف الطلل انبثق عن الحرمان الجماعي من الاستقرار في الأرض والاطمئنان إلى الوطن (٢٨).

(و) ويرى «حسين عطوان» أن المقدمات جميعاً لا تعدو أن تكون ذكريات وضرباً من الحنين إلى الماضي والنزوع إليه، لأنَّ الشعراء دائماً يرتدُّون بأبصارهم وأنظارهم إلى السوراء، إلى أعلى جزء مَضَى وانقضى من حياتهم . . ذكريات اللّهُو والمتعة، والحب والشباب، والفتوة والفروسية (٢٩).

(ز) وأكد «محمد التوتنجي» أن السبب لظهور شعر الأطلال عند العرب ذلك الحنين الذي يشعر به الإنسان وهو يلقي نظرة على دار الحبيب، فلا يجد إلا بقايا بالإضافة إلى ما هو أهم أيضاً . . فلوم يكن العربي بدوياً متنقلاً لما حصلت النّجعة والخليط ولا شعر الأطلال (٣٠).

(٢٧) مصطفى عبد الواحد، دراسة الحب في الأدب العربي، دار المعارف بمصر، ١٩٨٢م، ص ١٣ - ١٢.

(٢٨) نوري القيسي، وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية، مؤسسة دار الكتب، جامعة الموصل ١٩٧٤م، ص ٩. الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت ١٩٧٠ ص ٢٥٠.

(٢٩) حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م، ص ٢٢٧.

(٣٠) محمد التوتنجي، دراسات في الأدب الجاهلي، مطبعة الشرق، حلب ١٩٨٠م، ص ٨٧.

(٢) التفسير النفسي

(أ) يرى «أحمد الخوفي» أن الحبيبة هي المثير الطبيعي لعاطفة الحب، والأطلال المثير المقارن أو الصناعي، وتفسير ذلك - كما يُقرّر علم النفس - أن الحبيبة بعيدة عن الشاعر، فديارها حَلَّتْ محلّها في إثارة عاطفة حبها^(٣١).

(ب) وقال «محمد النويهي»: إن البكاء على الأطلال ليس عاطفة خاصة، ولا تجربة ذاتية، بل لحظة حزن أملاها على الشاعر شعور الجماعة التي ينتمي إليها بالحرمان من الوطن المكاني، والحنين المتجدد إلى الاستقرار والمكان الذي يستطيع فيه أن يقيم بيتاً يُخلّد فيه ذكرياته، ويسترجع صباه^(٣٢).

(جـ) ورأى «محمد حسن عبد الله» أن المُقدّمة في مطلع القصيدة أشبه ما تكون بالمقدمة الموسيقية تُعرّف بين يديّ المُطرب قبل البدء في الغناء، وغايتها إثارة إحساسه ليتوافق صوته مع اتجاه اللحن والكلمات وتهيئة أذنه للإيقاع^(٣٣).

(د) ويعتقد «محمود الجادر» أن المقدمة الطللية تقدّم مؤشراً واضحاً إلى عمق ارتباط الشاعر بالبيئة التي ظلّت تواجه حياته بتحدّي الرحيل الأبدي، وترفد «صيغته الطللية» بتفاصيل المعاناة. أمّا ارتباط المرأة بالصيغة الطللية فإنه يبدو منبثقاً عن

(٣١) أحمد الخوفي، الغزل في العصر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ٢٧١.

(٣٢) محمد النويهي، الشعر الجاهلي، الدار القومية بمصر، (دون تاريخ)، ٢ مج، ص ١٥٦ وما بعدها.

(٣٣) محمد حسن عبد الله، مقدمة في النقد الأدبي، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٥م،

ارتباط منابع الحنين إلى الاستقرار ووحدتها النفسية ، رغم تشعبها الموضوعي ،
فالمرأة كالأرض في قدرتها على استقطاب لهفة القلق المتحفز في نفس الشاعر عند
اعتاب نصّه الإبداعي^(٣٤) .

(هـ) ورأى «إيليا حاوي» و«مطاع صفدي» أنّ الوقوف على الأطلال مدخل شعوري
كياني للقصيدة الجاهلية ، وإن كان موضوعاً غريباً على ذوقنا وتجربتنا الحديثة ،
وهو يُلخّص في حقيقته أفجع ما في الغربة الدائمة للعربي في المكان اللامتناهي .
وصور المقدمة تخرج من التجسيد الشخصي لتصبح موثلاً للحنين إلى الاتحاد
بدل الانفصال ، إلى الربع والخصب ، إلى الصورة المعاكسة دائماً لواقع الشّظف
والجذب والحرمان ؛ فالزمان والمكان انفصال وبؤرة المعاناة هو الإنسان المنقضي
المرتحل دائماً^(٣٥) .

(و) وقال «عبد الرزاق الخشروم» : إنّ الوقوف على الأطلال جاء نتيجة الإحساس
بالغربة ، وهي الانفصال عن الواقع الحاضر ، والاتحاد بالماضي البعيد^(٣٦) .

(ز) ويرى «عناد غزوان إسماعيل» أنّ عدم الاستقرار ، والقلق ، والفراق ، وخيبة
الأمّل ، والإحساس بالشكوى ، والاعتزاز بالذكور ، والسّأم ، كلّها مظاهر
اجتماعية ونفسية مستمدة من بيئة الشاعر جعلت من الألم خصوصية فنية تمتاز بها
تلك المطالع والمقدمات الغزلية . فالوقوف على الأطلال والبكاء عليها رمز
لتجربة الألم التي يجد فيها الشاعر راحة ولذة نفسيّتين يطمئن إليهما في التعبير عن

(٣٤) محمود الجادر ، قراءة معاصرة في مقدمة القصيدة الجاهلية ، مقالة في مجلة الثقافة السورية ،
عدد آذار ، دمشق ١٩٨٠م ، ص ٧ .

(٣٥) إيليا حاوي ومطاع صفدي ، موسوعة الشعر العربي ، مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٧٤م ،
٤ مج ، ج ١ ص ٢١ - ٤٢ .

(٣٦) عبد الرزاق الخشروم ، الغربة في الشعر العربي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٨٢م ،
ص ٢٤٤ .

بعض مشاعره الحبيسة بما يشبه «رثاء النفس» ومن ثمَّ كان الغزل والرثاء في الشعر العربي القديم غرضاً واحداً^(٣٧).

(ح) وجعل «يوسف خليف» فكرة الفراغ في المجتمع الجاهلي الرعوي محور مقدمة الأطلال في القصيدة الجاهلية، الذي كان يطول في بعض الأحيان، وخاصة في أيام الربيع عندما تتحوّل البادية إلى جنّة خضراء، ينطلق البدو فوقها يسيمون إبلهم وأنعامهم وشاءهم.

وحتى لا تستحيل الحياة معها فراغاً بارداً لا إحساس بالوجود فيه، وشعوراً بالضيق في هذه الصحراء المترامية الأطراف التي يخيل للإنسان فيها أنه يعيش في عالم لا يعرف الحدود ولا يُدرك معنى النهاية.

وحدّدت ظروف البيئة والحضارة في المجتمع الجاهلي وسائل حلّ هذه المشكلة - مشكلة الفراغ - في ثلاثة اتجاهات أساسية: الخروج إلى الصحراء للرحلة أو الصيد، والالتقاء بالرفاق لشرب الخمر ولعب الميسر، والسّعي خلف المرأة طلباً للحبّ والغزل.

ومن هنا ارتبطت هذه المقدمة بهذه الدوافع التي حاولوا عن طريقها حلّ مشكلة الفراغ في حياتهم، وتحقيق وجودهم أمامها، وهي مشكلة وجد العربي حلّها في هذه المتّع التي لم يجد مكاناً للتعبير عنها في زحمة الالتزامات القبلية إلا في مقدمات قصائده^(٣٨).

(٣٧) عناد غزوان، المراثاة الغزلية في الشعر العربي، مطبعة الزهراء، بغداد ١٩٧٤م، ص ٥ وما بعدها.

(٣٨) يوسف خليف، مجلة «المجلة»، مصر ١٩٦٥م، العدد ٩٨، ص ١٦، والعدد ١٠٠، ص ٣٥، والعدد ١٠٤، ص ٤.

(٣) التفسير الفلسفي

(أ) ويرى المستشرق الألماني «فالتربراونه» أن المُقَدِّمة الطَّلَلِيَّة سبقت في مطالع القصائد لغرض واحد هو اختبار القضاء والفناء والتناهي ؛ لأنَّ الإنسان في كل زمان ومكان يسأل عن وجوده ومصيره ونهايته ، وبصفة خاصة كان هذا السؤال يؤلم الشاعر الجاهلي ويضايقه ، فطالما ردَّد : «عَفَت الديار» ، و«دَرَسَت الدَّمَن» ، فهل ستكون حياته مثل الدِّيار تضحج بالحركة والحياة يوم أن يكون أهلها في ربوعها ، ثم تتحول إلى قفار موحشة يخيم عليها السُّكون والموت وتبديل من أهلها وحوشاً؟

لقد ملأ التفكير في الوجود والمصير على الشاعر الجاهلي حياته ، غير أنه لم يكن تعبيراً صادراً عن تشاؤم ، وإنَّما كان حافزاً يحفزه على الإقبال على الحياة ، واستئناف الرحلة بروح وثابة ، فبعد الأطلال يأتي الغزل ؛ فالمرأة رمز الخصوبة والتجدُّد ، ومن ثَمَّ يمكن اعتبار هذه المقدمة الطَّلَلِيَّة تعبيراً عن أزمة الإيمان باستمرار الحياة قبل أن يحدد الإسلام إيمان العرب بخلق حوافز جديدة للحياة ، فالشاعر الجاهلي جمع بين شعورين في إطار واحد ، وهو ما يسمى بالنسيب ، أيَّ الحبَّ المهدَّد دائماً برحيل المحبوبة ، كذلك الحياة المهدَّدة بالخراب متمثلة في الوقوف على الأطلال المقفرة ، فالمقدمة تعبير عن الصراع بين : حب الحياة ، وغريزة الموت (٣٩) .

(٣٩) انظر: مجلة المعرفة ، حزيران ١٩٦٣ ، ص ١٥٦ . ومقالة مشابهة أيضاً لعز الدين إسماعيل ، =

(ب) ورأى الدكتور مصطفى ناصف أن الوقوف بالصاحب أو الصاحبين على الطلل من أهم ما شغل الشعر العربي على اختلاف منازلهم وعصوره ؛ لأن الخراب والدمار حقيقة مرهفة للشاعر القديم .

وفي المقدمة الطللية يعبر الشاعر الجاهلي عن قداسة الديار من خلال الرموز التالية :

أ - الوشم المُجَدَّد .

ب - الكتابة الباقية على الحجر .

ج - الظباء والأطلاء التي انتشرت في الطلل .

د - السيول والرياح .

تلك القوى غير الإنسانية التي تتعاون جميعاً من أجل الكشف عن الطلل . .
وكُلُّها تتعاون على أن تبعث الدِّيار، وعلى أن تصبح حَيَّة لا تموت .

هذه الفكرة اليسيرة شديدة الأهمية ، لأنها تُعَدِّل مفهوم البكاء الذي نتذكره حينها نقول مع امرئ القيس :

قِفَا نَبِّكَ مِنْ ذَكَرِي حَبِيبٍ وَمَنْزَلٍ بِسَقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ
هذه الصور أصبحت الماضي في ظلِّها حاضراً لا ينقطع ، ولا شيء يَفْنَى تماماً ،
وهذه الفكرة تُغَيِّرُ مفهوم البكاء ؛ فالبكاء هنا ليس حزناً سلبياً عاجزاً ، وليس
هزيمة أمام الموت ، فالحياء يمكن أن تظلَّ منتصرة . فهي دعوة غامضة إلى تغيير
النظر إلى الماضي ، أو دعوة إلى مبدأ استمرار الحياة من حيث هي نشاط
وفاعلية (٤٠) .

= مجلة شعر، شباط ١٩٦٤ . وعرض عطوان للمقالين في : مقدمة القصيدة العربية ، دار

المعارف بمصر ١٩٧٠م ، ص ٢١٦ - ٢٢٠ .

(٤٠) مصطفى ناصف : قراءة ثانية لشعرنا القديم ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٨١م ، ص ٣٧ ،

وص ٥٩ .

(ج) وقد أولى الأستاذ «يوسف اليوسف» فكرة الطُّلل أهمية بالغة، ووضع يده على بعض أسرارها، فقال: العنصر الطللي هو توليف اندماجي للحظات ثلاث هي: التَهْدُم الحضاري، والقَمْع الجنسي، وقَمَل الطبيعة.

إنَّ الموقف الطللي هو ترجمة لا شعورية للرغبة في الخلاص من ظرف حضاري مُتَهْدَم، والتحوُّل إلى مرحلة حضارية أرقى.

وبوسعنا أن نرى العنصر الرُّثائي في هذه اللحظة: «قفانك»، وإن كان يخفي الدافع الجنسي تحت حجبته، إنَّه بالدرجة الأولى نواحٌ من أجل الجنس المحظور، من أجل المرأة المحجوبة.

إنَّ ظاهرة النواح سمة جليلة للنفس العربية والسامية منذ فجر التاريخ، فطالما عانوا من الأسى الناجم عن الإحساس بالقُسر والقَهْر والقَمْع وعُقم الطبيعة. والشاعر يوحّد بين القَمْع الذي تتعرض له الطبيعة وتقوم به في الوقت نفسه، بفعل القَحْل وانحباس المطر، وهوما ينعكس بدوره على القَرْد والجماعة، وبين الهدْم الذي يصيب الحضارة من جرّاء ذلك القحْل، والقهر الذي يتعرض له الفرد بفعل الرقابة الاجتماعية، ويفعل ما تُمارسه التقاليد من حظر جنسي.

وهناك تشابه بين الطللية والتمؤزية، هذا التشابه يتجلى في أن كُلاً منها تنطوي على عنصر النواح احتجاجاً على الجَدْب والقَحْل، كما تحتوي على العنصر الجنسي مندمجاً اندماجاً عضوياً مع العنصر السابق.

الطللية شكل بدائي صحراوي، أو نمط عربي خاص من أنماط طقوس الخصب، والانفعال أمام الشُّح الذي تمارسه الطبيعة على الإنسان، ممزوجاً بعنصر الانهدام الحضاري، ممثلاً في المنزل الحَرَب، والاستلاب الجنسي، ممثلاً

بالحرمان من المحبوبة الراحلة .

وربما كانت الطللية بمجملها لا تحمل إلا غاية واحدة هي التعبير عن اغتراب الإنسان في مملكة الطبيعة العاتية التي تعجز أدوات البدائيين عن تدجينها^(٤١) .

(٤١) يوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٥م، ص ١٩ و ١٣٨ و ١٤٠ و ١٨٧ .

(٤) التفسير الرمزي

(أ) يرى «سعد شلبي» أنَّ الوقوف على الأطلال رمزٌ لحبِّ الوطن عند الإنسان العربي (٤٢).

(ب) ورأى «محمد غنيمي هلال» أنَّ الوقوف على الأطلال له صبغة عاطفية ذاتية، يُعبرُ فيه الشاعر عن عاطفته النبيلة في وفائه لحبِّه وعن ماضيه المائل في آثار الحبيب النازح. . وفي الوقوف على الآثار تصويرٌ لمُشاعرٍ أكثر صلة بالجماعة منها بالفرد؛ لأن موضوعها التَّغنيُّ بماضٍ وطنيٍّ أو قوميٍّ (٤٣).

(ج) ويعتقد «محمود الجادر» أنَّ صيغ الافتتاح في الشعر العربي باعثها الأول ديار حبيبة راحلة، أو وطن مكانيٍّ مُفقود، أو حجارة مُقدَّسة وبقايا هيكل ديني (٤٤).

(د) ويرى «إيليا حاوي» أنَّ حديث الشاعر الجاهلي عن الطلل ينطوي على بعدين جوهريين؛ البعد الأول: رغبته بالحياة وحبِّه لمتعتها وجمالها، ورغبته في الاستقرار بين أحضانها، ينهل الحبُّ والوجد والشهوة، والبُعد الثاني: يتولد من شعوره بهروب الأشياء وإدبارها السريع أمامه وحركة التغير في الأشخاص

(٤٢) سعد شلبي، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٤١.

(٤٣) محمد غنيمي هلال، في النقد التطبيقي والمقارن، دار نهضة مصر، (دون تاريخ)، ص ٣٣ - ٣٨.

(٤٤) محمود الجادر، شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين، دار الرسالة، بغداد، ١٩٧٩م، ص ٢٥٦.

والأحداث. . إنَّ تجربة الشاعر مع الطلل تنطوي على نزاع بين الفرح والطرح، بين الاستقرار والرحيل، بين الألفة والوحشة، بين الصُّحبة والغربة، بين الحبِّ والجفاء، بين القُرب والبُعد، ومن ثَمَّة بين الحياة والزوال (٤٥).

(هـ) ويرى «عادل البياتي» أنَّ الطلل له ارتباط بمُقَدَّسات الشاعر، وبامتداده في ماضيه الذي تتَقَمَّصُه أرواح الأسلاف، ومن غير هذا التعليل ليس من السُّهولة تفسير هذه الرُّهبة، وهذا الشعور بالجلالة والتقديس لأحجار تافهة القيمة في عُرْفنا. . فالجانب الديني المرتبط بعاطفته هو الذي حفزه على تعظيم هذه الأطلال كل هذا التعظيم.

وعلَّل المقدمة الطللية في موضع آخر، فقال: إنَّها جاءت موروثاً من مرحلة اقتران الشعر بالتراث الديني التي كانت وسيلتها التعلق بالحجارة المقدسة، وببقايا الهيكل الديني (٤٦).

(و) ورأى «داود سلوم» رأياً مشابهاً فقال: إنَّ الشعر العربي الذي يأتي في أول القصائد ما هو إلَّا بقايا تراث ملحمي من ملاحم ما قبل التاريخ عند الساميين، حيث كان الشاعر يُقَدِّم صلاته للآلهة قبل الشروع في القصيدة، ثم كان أن تحولت البداية - عن طريق التدهور - إلى الغزل في المرأة، ذلك لأن الشعر قبل أن يصبح فناً واقعاً كان أدعيةً وصلوات، وقد استقرت هذه البدايات في قرار عميق من الشاعر، ويُعدُّ هذا من الأمور الطبيعية بالنسبة للإنسان القديم الذي كان يخطِّط لمعبده، ثم إنَّ الشاعر القديم كان مُلْحَقاً بخدمة الآلهة في الهياكل، وقد كانت الهياكل صخوراً وأحجاراً وخياماً، فإذا رحلت القبيلة تركت كل هذا، وإذا مرَّ أحدهم بها وقف واستعبر، ومن ثَمَّ نشأ الارتباط الممتزج بالجلالة

(٤٥) إيليا حاوي، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٧٣.

(٤٦) عادل البياتي، مقدمة القصيدة الجاهلية، مقالة في مجلة آفاق عربية، آب، ١٩٧٧م. ومقالة بعنوان: رمز المرأة في أدب أيام العرب، مجلة آفاق عربية، العدد ١٢، آب، بغداد، ١٩٧٧م.

والقداسة (٤٧).

(ز) وتنبّه إلى الجانب الرمزي في الطلل الدكتور «أحمد كمال زكي» فقال: إن الطلل يرمز إلى ما تخلفه رحلة الشمس على الإنسان، والشمس تمنح الخصب والنماء بحضورها، فلا بدّ ألا ييأس أحدٌ من عودتها بعد نزوحها.

والظعن الملون البهيج هو الشمس نفسها عند طلوعها في الصباح، وفي المساء تغيب في مثل هذا المهرجان الجميل، لأن غيابها يعني أنها ستعود، ومن ثم لا أسي ولا فجيعة، ومن ثم أيضاً تبدو المرأة - التي تشبه الشمس - فاتنةً ضاحكة؛ لأن رحلتها رحلة أمل، وليست رحلة يأس (٤٨).

(ح) وأشار إلى هذا التفسير نفسه الدكتور «إبراهيم عبد الرحمن»، فقال: إن الشعراء يربطون بين مقام المحبوبة وخصب الديار، وبين رحيلها وما أصاب الديار من المحل والجفاف. وهذا النوع من الربط بين رحيل المرأة المحبوبة وبين خراب الديار وأصحابها، وبين مقامها وخصب الديار كثير الورود في شعر الوقوف على الأطلال، ويكاد يكون المعنى الوحيد الذي يدور حوله الشعراء حين يقفون على الأطلال؛ لأن المرأة المعبودة لها هذه القوة الأسطورية: قوة إخصاب الأرض وإمحالها (٤٩).

(ط) ولعل أول من عرض الرأي السابق وتبنّاه «نصرت عبد الرحمن» في رسالته للدكتوراه: «الصورة الفنية في الشعر الجاهلي» قال: إن الشعراء يربطون على الطلل ويتذللون أو ييأسون على الشمس التي رحلت فأدى رحيلها إلى خراب

(٤٧) داود سلوم، النقد المنهجي بين الاستقرار والتأليف، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٢م، ص ١٥.

(٤٨) أحمد كمال زكي، الأساطير؛ دار العودة، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٨٤.

(٤٩) إبراهيم عبد الرحمن، الشعر الجاهلي: قضاياها الفنية والموضوعية، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٢٥٨.

الديار وإقفارها، فما من امرأة حقيقية تُقفر ديار قومها إذا رحلت، ولكنها الشمس التي كان يعبدها الجاهليون هي التي يُؤدّي رحيلها إلى إقفار الديار؛ لأنّ الشمس رمز الخصب عند الإنسان^(٥٠).

(ي) وقدّم الدكتور «عبد بدوي» وجهة نظري في قضيتي الطلل والنسيب في مقدمة القصيدة، فقال: المقدمة هي الجانب الذاتي في القصيدة، فمن خلالها كان يستشفي الشاعر ويعترف ويّشي بأفكاره، ويجعل له قناعاً، أو يخلق رموزاً، وهو من خلال هذا كلّه قد تجيء له لحظات سرّالية حين تتداخل عناصر المقدمة وتتناقض، والمقدمة تموج بعناصر الكرب والعذاب والخوف والسحر والموت، وعناصر اللذة والنشوة والزهو.

وتبدو قضية الطلل والموت هي قضية العدم والوجود. . لقد كان الشعراء في غربتهم واغترابهم يلتفتون إلى شيء أثّر عندهم يمكن أن يكون رمزاً للضياع، ولقد كان هذا الشيء هو الطلل، لقد كان الطلل في أول الأمر حقيقة ثم أصبح بعد ذلك رمزاً للعالم المفقود، ثم أصبح بعد فترة تقليداً فنياً من تقاليد الشعر^(٥١).

(ك) ورأى «مصطفى ناصف» أنّ الليل والهجير والظلّ عناصر باقية أو رموز جدية قديمة تعبّر عن رغبة الإنسان في الحياة الفطرية، وإعادة الاتصال بالأم المفقودة، فموقف الإنسان هو موقف الطريد الذي لا أمّ له.

الخمر والوقوف على الأطلال هما تعبير معقد عن هذه الفكرة؛ لأنّ الشاعر القديم في خطاب الطلل كان يُمثّل موقف الباحث عن الأم^(٥٢).

(٥٠) نصرت عبد الرحمن، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى ١٩٧٧م، ص ١٣١.

(٥١) عبد بدوي، في قضايا الأدب واللغة، الكويت، ١٩٨١م، ص ٥٠٥ - ٥١١.

(٥٢) مصطفى ناصف، دراسة الأدب العربي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، (دون

تاريخ)، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٥) التفسير البنيوي

(أ) يرى الأستاذ «كمال أبوديب» أن مقطع «ابن قتيبة» المشهور الذي يحاول فيه أن يصف العملية التي طَوَّر بها الشاعر الجاهلي قصيدته أحد أعمق المقاطع النقدية المتعلقة بالشعر الجاهلي حساسية وتبصراً، لأنه فَسَّر الخصائص البنيوية للقصيدة على أسس نفسية، ولم يَرَفِها وجوداً تقليداً فرضه التراث الشعري. وأكد «ابن قتيبة» أن عملية نمو القصيدة ليست اعتباطية أو خالية من منطق داخلي، بل عملية هادفة واعية، ترتبط بالبنية الكلية للقصيدة، وبهذا المعنى فإن ملاحظة ابن قتيبة «بنيوية» لأنها تعين بنية القصيدة المفردة، لا في عزلة عن، بل في إطار من، علاقتها ببني قصائد أخرى من التراث (٥٣).

(ب) وقد اقترح «كمال أبوديب» في دراسته منهجاً نقدياً بنيوياً في دراسة الشعر الجاهلي من النظريات النقدية الحديثة ومن البنيوية، وبشكل خاص من منهج التحليل البنيوي للأسطورة، وعالج «وصف الأطلال» في ضوء هذا المنهج وقدم تحليلاً تطبيقياً لمعلقة «ليد بن ربيعة العامري»؛ لأن رؤاها الأساسية تحتل مكاناً مركزياً في الشعر الجاهلي كله، وهي من أكثر قصائد التراث تشابكاً وتعقيداً وغنىً.

(٥٣) كمال أبوديب، نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، مجلة المعرفة السورية، ع ١٩٥، آذار، مارس، آيار، مايو، ١٩٧٨م، ص ٢٨ - ٢٩. وابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ص ٧٥.

ورأى أن وصف الأطلال يشكّل وحدة مكونة في البنية متعدّدة الشرائح ، قادرة على نقل الرؤية الشعرية وإيصالها بصورة أكثر حدةً وتجلياً وكمالاً من أيّ بنية أخرى ، وتقدّم صورة الأطلال مفارقة جذرية وجوهرية ، إذ تضاعف عملية سلبية عبر عملية إيجابية ؛ وكلا العمليتين تنبع من حركة الزمن ومروره ، الزمن في مروره يُجرّد الأشياء ويُعرّيها لكنّه في الوقت نفسه يُخلّد الأشياء ويمنحها الديمومة . . ومن هنا يتكون تصوّر الشاعر للزمن في إطار لغة الحياة والموت والحلال والحرام .

ثم حلّل الطبيعة التضادّية لموجودات الطلّ ، ورأى أنّ الصّور تُقدّم في إطار من الثنائيّة الواضحة : القرار / الرحيل ، الإخصاب / العقم ، النّوي (من خلق الإنسان) / الشّام (من خلق الطبيعة) ، وإنّ أهمّ ملمح في القصيدة هو السياق الزمني لحركة الأطلال . وناقش العلاقات بين هذه الأزمنة ودلالاتها وما فيها من انكسارات ونقالات وثنائيات وأبعاد ، ورأى أنّ تجربة الأطلال لم تكن تجربة واقعية فعلية ؛ بل تجربة تخيلية (خيالية) إبداعية ، قد تكون إعادة خلق واستحضاراً لتجربة ماضية شخصية ، لكنّها قد تكون أيضاً فعل خلق تخيلاً صرفاً ، ومن ثم فإنّ وحدة الأطلال تمتلك قيمةً رمزيّةً لا تقل أهمية في دورها الأساسي بالنسبة للتجربة ، أو المعنى أو المحتوى الكائن في القصيدة ، عن أهميّة أي وحدة أخرى .

واللحظة الزمنية على صعيد بنيوي تعكس دافعاً تكوينيّاً قد يكون لا واعياً لدى الشاعر لإضفاء الحياة والحيوية على مشهد الخراب واليباب ، فالشاعر لا يُقدّم صورة لفظية لمشهد قائم في الواقع الخارجي ، ولا «يحاكي» الواقع محاكاة دقيقة صادقة ؛ بل إنّهُ ليخلق واقعاً طرياً كلّ الطراوة ، ومجرداً تجريداً مطلقاً ، ولذلك فإنّ ما يخلقه لا يمكن أن يكون اعتباطياً خالياً من الدلالة الإشارية ، وفي الحق إنّ هذا الخلق كشفٌ لرؤيا أكثر عمقاً وغوراً ، وأكثر جوهرية وأساسية من الرؤيا التي يوحى بها المستوى السطحي لوحدة الأطلال كما تفسرها الدراسات التقليدية .

وعرض «أبوديب» مخططاً لمضمون وحدة الأطلال في القصيدة كشف فيه عن تصور الشاعر الأساسي للزمن، وهو في الجوهر والنهية تصور للحياة والموت اللذين يمثل وجودهما المتزامن الرؤيا الأساسية لوحدة الأطلال.. وهذه الرؤى للزمن والواقع وللموت والحياة رؤى القصيدة الجوهرية من حيث هي كل متكامل وبنية كليّة.

وعالج البنية اللغوية للطلل، ولاحظ وفرة المزدوجات والثنائيات الضديّة التي تُسهم في نمو القصيدة وخلق نسيج لغوي يتشكل في سياق الرؤيا للواقع.. وهذه الخصيصة يميز بها الشعر الشفهي في تراث أمم أخرى أيضاً^(٥٤).

(٥٤) كمال أبوديب، نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، مجلة المعرفة السورية، العدد ١٩٥، آذار مارس، أيار مايو، ١٩٧٨م، ص ٢٨ - ٥١.

فكرة المطر في الوقفة الطللية

كثيرون يظنون أنَّ الفن في صميمه لغة العاطفة، والحالات الوجدانية، والمزاج الشخصي، والمواقف الانفعالية. وليس كذلك دائماً؛ لأنه أسلوب خاص في نقل تجربتنا الفردية والاجتماعية إلى الآخرين بما في ذلك إدراكنا وميولنا وعاداتنا ومفاهيمنا وإرادتنا ومعتقداتنا وطموحنا ومشكلاتنا، وكل ما يندرج تحت مفهوم «التراث الحضاري» بصفة عامة (٥٥).

والوقفة الطللية من هذا التراث الحضاري العظيم للمجتمع العربي في العصر الجاهلي، وهي فن خاص بهم وحدهم، لم يشركهم فيها شعب من شعوب الأرض، وهي سر كبير من أسرار الشعر الجاهلي، فيها إرادة الأمة وطموحها ومشكلاتها و«تراثها الحضاري»، ولا يتبدى نشاط العقل في العصر الجاهلي في فنون الشعر الأخرى كما يتبدى في الوقفة الطللية؛ لأنها مظهر خلاق وقدرة إبداعية لنشاط الفكر الذي يحاول أن يتفهم العالم ويعبر عنه تعبيراً فنياً راقياً.

في الوقفة الطللية موضوع حسي: أوتاد، ونؤي، وأثاف، وحجارة، ورمال، ورياح، وأمطار، وحيوانات، وبكاء، ودموع، وحبية رَحَلَتْ، وعشب بَزَغ. لكن هذه المواد الحسية لها مدلول باطني أعمق من الحس، يشير إلى موضوع خاص، ويعبر عن حقيقة روحية ثرية عميقة، غزيرة المعنى والمدلول، ويدل على كيفية باطنية في صميم العمل الفني.

(٥٥) فؤاد زكريا، مشكلة الفن، مكتبة مصر بالفجالة، (دون تاريخ)، ص ١٩ وما بعدها.

وقد نستدل من الوقفة الطللية على حبيبة حقيقية راحلة، وقد نستنتج رغبة الجاهلي في الاتحاد بالماضي، أو إحساسه المرهف بالحرمان من الوطن والاستقرار في المكان، وقد نرى في الوقفة الطللية تغنياً بأعجادٍ وطنية وقومية، أو رثاءً لأبطال سقطوا دفاعاً عن القبيلة، أو تمجيداً لمعشوقين دافعوا عن الوطن.

وقد نرى في الوقفة الطللية كُرباً وعذاباً، وإحساساً بالدمار، ورغبةً في الحُزن والبكاء، وتشاؤماً من الموت، وتفكيراً في المصير، وأزمةً في الإيمان، وقلقاً روحياً، ورثاءً للعلاقات الإنسانية القتيلة.

وقد تكون أناشيد الأطلال بقايا تراث ملّحي ديني، تعبر عن التعلق بالحجارة المقدسة، أو الإلهة «الشمس» التي رحلت وتركت الديار بلاقع.

وقد تمثل الوقفة الطللية رموزاً مختلفة، فنرى فيها أملاً في حياة جديدة، وبعثاً من العدم، أو يأساً يتبعه أمل، أو تهتماً حضارياً يتبعه انتصار قومي، أو بحثاً عن الأم المفقودة في أحضان صحراء عارية.

لكن الأعمال الفنية العظيمة أشبه ما تكون بالذرى العالية التي يعزبلوغها، ونحن لا نتّجه إليها مباشرة، بل نُحلّق حولها وندور، وكل جيل من الأجيال يراها من زاوية مغايرة وبمنظرة جديدة، والمعنى الذي يحمله الأثر الفني لجيل متأخر ليس إلا ثمرة ذلك التراث الضخم من التفسيرات المتقدمة (٥٦).

وفي منطق النقد تصلح الظاهرة الفنية الواحدة أن تُتخذ مُطلقاً لضروب متباينة من التوجه في التحليل والتنظير والتفسير؛ ذلك أن طبيعة النشاط النقدي نفسه تبقى مشدوداً إلى الحكم التأثري مهما بدا مطاوعاً لمنطق المنهج العلمي (٥٧).

(٥٦) أرنولد هاوزر، فلسفة تاريخ الفن، ترجمة رمزي جرجس، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٧.

(٥٧) محمود الجادر، قراءة معاصرة في مقدمة القصيدة الجاهلية، مجلة الثقافة، آذار، دمشق، ١٩٨٠م، ص ٧.

والوقفة الطللية من الظواهر المعقدة في الشعر الجاهلي، وقد حَلَّتْ كثير من
وداروا، ثم سقطوا على السَّفْح، وبقيت الذروة عزيزة المنال، صعبة المُرْتَقَى،
وسأحاول الكشف عن أستارها المظلمة، وأُجْرِبُ فَضَّ أختامها ومعرفة أسرارها.

في الوقفة الطللية - كما رأينا - ضروب من التكرار والتَّردُّد والتَّنَاطُر والتَّمَثُّل في
المعاني والتراكيب والصور وأسلوب الأداء، بما يوحي بـ «موروث ثقافي» لهذا الفن،
تتضح من خلاله ثقافة الأمة وتقاليدها الفنية، وتجربتها، وأساطيرها، وطقوسها،
ومعتقداتها، وأمثالها، وحكاياتها، وهمومها، وتطلُّعاتها، أكثر مما تتَّضح ثقافة الفرد،
وتجربته، وذوقه، ومعتقده، وأفكاره، ومشاعره.

والشعراء يركَّبون مواد شعرهم من «الموروث الثقافي والحضاري» وما استقر في
وجدانهم من الصُّور، والتراكيب، والمعاني، والتعابير، والأحداث، والمواقف التي
استقوها من روح الأمة، وتاريخها، وحضارتها، وثقافتها.

والوقفة الطللية أنموذج في جماعي، يبرز فيها التراث والتقاليد والأساليب
المتوارثة، وتعبر عن طقوس وشعائر تصدر عن عقل الأمة وضميرها، لا عن حالة
فردية خاصة، وتجربة ذاتية متفردة.

وأعتقد أن «فكرة المطر» هي المحور الأساسي الذي تدور حوله مجمل الأفكار
والقضايا والتطلعات في الوقفة الطللية.

وأول ما يبكي الشاعر الجاهلي في الوقفة الطللية عُقم الطبيعة، وانحباس المطر،
ورحيل المرأة عن الطلل معادل في لرحيل الخصب والنماء والتكاثر والتناسل، أو هو
«رحيل المطر» الذي يخلق القُحْل والمُحْل، والجوب والجُذْب، والتدمير والخراب؛
لذلك كانت «فكرة المطر» في الوقفة الطللية هي ما يشغل عقل الشاعر الجاهلي.

تحدَّث الشعراء الجاهليون عن المطر في صورتين متناقضتين:

(أ) صورة الدِّمار والهلاك والخراب والانتقام، فالمطر ينسكب كأفواه القِرَب فيكون
سيولاً عارمة، تجرف الطلل وتغرق ساكنيه، وتمحو الديار وتخرّبها، وتزرع في

الأرض أشباح الموت .

(ب) وصورة الغوث والرحمة والحياة ؛ فالأمطار الرقيقة تُنبت في الرمال الظمأى الكلاً والأزهار وتحول وجه الأرض العابس الكئيب إلى وجه مشرق باسم ، فإذا قطعان الوحش ترود الطلل آمنة مطمئنة ، وإذا أطلاؤها تنهض من كل مجثم وقد غمرها انتصار وفرح .

وقد وقف الشاعر الجاهلي على «سر المطر» وأدرك فاعليته في بناء الحياة ودمارها ، وأظهر تناقض عنصر الماء في وقفته الطللية بوضوح لا لبس فيه ، لذلك أرى أن «فكرة المطر» هي التي أهتمت الشاعر الجاهلي في مطلع قصائده وأقلقته ، وجعلته يقف أمام الطلل خاشعاً قلقاً مفكراً بقوى الطبيعة - خاصة المطر - التي لم يستطع تذليلها ، والسيطرة عليها ، فعانى لذلك ، وبكى ، وتألّم ، وتحسّر ، وتعذب ، وندب أشواقه ، ونعى حبه الضائع ووطنه المدمّر .

وكثيراً ما نحس هواجس الجاهلي ورهبته من المطر العذاب في الوقفة الطللية :

يقول سحيم عبد بني الحسحاس (٥٨) :

عفت من سُلَيْمَى ذات فِرْقٍ فَأَوْدُهَا وَأَقْفَرَ مِنْهَا بَعْدَ سَلْمَى جَدِيدُهَا
أَرَبَّتْ عَلَيْهِ كُلُّ هَوَجَاءٍ مَعْصِفٍ وَأَسْحَمَ دَانٍ مُزْنُهُ يَسْتَعِيدُهَا
بَنِي أَسَدٍ سِيرُوا جَمِيعاً فَقَاتَلُوا مَعَدّاً إِذَا أَرَبَدَتْ بِشَرِّ جُلُودُهَا
تختلط صورة المطر الأسود بصورة الموت الذي ينتظر الأعداء ، فكلاهما دمار أرب بالمكان وسحق ما أمامه ومحقه .

ويقول حسان (٥٩) :

(٥٨) سحيم عبد بني الحسحاس ، (ت في خلافة عثمان) ، الديوان ، تحقيق : عبد العزيز الميمني ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦٨ م ، ص ٤٩ .
(٥٩) حسان بن ثابت ، (. . . - ٥٤ هـ) ، الديوان ، تحقيق : سيد حنفي ، الهيئة المصرية العامة ، =

أَهَاجَكَ بِالْبِيدَاءِ رَسْمَ الْمَنَازِلِ نَعَمْ قَدْ عَفَاها كُلُّ أَسْحَمٍ هَاطِلِ
وَجَرَّتْ عَلَيْهَا الرَامِسَاتُ ذِيولُهَا فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ أَشْعَثَ مَائِلِ
دِيَارِ الَّتِي رَاقَ الْفَوَّادُ دِلَالُهَا وَعَزَّ عَلَيْنَا أَنْ تَجُودَ بِنَائِلِ
السَّحَابِ الْأَسْوَدُ يُعَذِّبُ الدِّيَارَ وَيَقْذِفُهَا بِحَمَمِ الْمَوْتِ، وَيَكَادُ يَذْكُهَا دَكًّا، وَيُحَوِّلُهَا
قَاعاً صَفْصِفاً، وَكَأَنَّهَا رَحِيلُ الْمَرَأَةِ عَنِ الدِّيَارِ قَدْ تَسَبَّبَ بِهَذَا الدَّمَارُ أَوْ رَحِيلُ «مَطَرِ
الرَّحْمَةِ» هُوَ سَبَبُ هَذَا الْعَذَابِ.

إِنَّ صُورَةَ الْمَطَرِ الْعَذَابِ مِنَ الصُّوَرِ الْمَكْرَرَةِ فِي الْوَقْفَاتِ الطَّلِيلَةِ، وَهُوَ دَائِمًا:
أَسْحَمٌ، شَدِيدُ السَّوَادِ، وَكَافٌ، هَطُولٌ، مُلِثٌ، ذَوُّ أَهَاضِيبٍ، رَاعِدٌ، مَكْفَهَرٌ،
تَجَّاجٌ، زَاخِرٌ، سَكُوبٌ، هَزِيمٌ، مُدْجَنٌ، مُنْهَمِرٌ، قَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ (٦٠):
دِيَارٌ لَسَلِمَى عَافِيَاتٌ بِذِي خَالٍ أَلَحَّ عَلَيْهَا كُلُّ أَسْحَمٍ هَطَّالٍ
وَقَالَ طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ (٦١):

وَبِالسَّفْحِ آيَاتٌ كَأَنَّ رُسُومَهَا يَمَانٍ وَشَتَهُ رَيْدَةً وَسَحُولُ
أَرَبَّتْ بِهَا نَاجَةٌ تَزْدَهِي الْحَصَا وَأَسْحَمٌ وَكَافُ الْعَشِيِّ هَطُولُ
وَقَالَ النَّابِغَةُ الذِّبْيَانِي (٦٢):

أَهَاجَكَ مِنْ سُعْدَاكَ مَغْنَى الْمَعَاهِدِ بِرُوضَةٍ نُعْمِي فِذَاتِ الْأَسَاوِدِ
تَعَاوَرَهَا الْأَرْوَاحُ يَنْسِفُنْ تَرْبَهَا وَكُلُّ مُلِثٍ ذِي أَهَاضِيبٍ رَاعِدِ
وَقَالَ أَيْضاً (٦٣):

= ١٩٧٤م، ص ١٦٥.

(٦٠) أَمْرُؤُ الْقَيْسِ، الدِّيَوَانُ، ص ٢٧.

(٦١) طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ، الدِّيَوَانُ، ص ١١٧.

(٦٢) النَّابِغَةُ الذِّبْيَانِي، الدِّيَوَانُ، ص ١٣٧.

(٦٣) النَّابِغَةُ الذِّبْيَانِي، الدِّيَوَانُ، ص ١٤١.

أَهَاجَكَ مِنْ أَسْمَاءِ رَسْمِ الْمَنَازِلِ
 أَرَبَّتْ بِهَا الْأَرْوَاحُ حَتَّى كَانُوا
 وَكُلُّ مُلْكٍ مُكْفَهَرٍ سَحَابُهُ
 إِذَا رَجَفَتْ فِيهِ رَحاً مُرْجِحَةً
 وَقَالَ سَحِيمٌ (٦٤):

عَفَّتْ مِنْ سُلَيْمَى ذَاتِ فِرْقٍ فَأَوْدَهَا
 أَرَبَّتْ عَلَيْهِ كُلُّ هَوَجَاءٍ مُعْصِفٍ
 وَقَالَ الْأَعَشَى (٦٥):

دَارُهَا غَيْرَ آيَاتِهَا
 كُلُّ مُلْكٍ صَوْبُهُ زَاخِرُ
 وَقَالَ بَشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ الْأَسَدِي:

- تَغَيَّرَتِ الْمَنَازِلُ بِالْكَثِيبِ
 مَنَازِلُ مِنْ سُلَيْمَى مَقْفَرَاتُ
 - عَفَاها كُلُّ هَطَّالٍ هَزِيمٍ
 - أَرَبَّ عَى مَغَانِيهَا مُلْكُ
 وَعَفَى آيَاهَا نَسْجُ الْجَنُوبِ
 عَفَاها كُلُّ هَطَّالٍ سَكُوبُ (٦٦)
 يَشْبَهُ صَوْتَهُ صَوْتُ الْيَرَّاعِ (٦٧)
 هَزِيمٌ وَذُقُّهُ حَتَّى عَفَاها (٦٨)

.. إلى غير ذلك من الصفات التي تفيد قدرته على الشمول والتمكُّن
 والسَّطُوَّة؛ لذلك رأى زهير بن أبي سلمى أن «عنصر المطر» أقوى من «عنصر الزمن»،

(٦٤) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، ص ٤٩.

(٦٥) الأعشى، الديوان، ص ١٧٥.

(٦٦) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، ص ٢٠.

(٦٧) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٠.

فالمطر يعفو الطلل عندما عجز الدهر عن ذلك ، قال (٦٩) :

قف بالديار التي لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم
ويتحوّل الطلل مسرحاً للحزن بطله الدهر، ومسرحاً للحياة بطله المطر،
فالصحراء التي تكاد تموت عطشاً بفعل الدهر الكنود يدركها الغيث ويُنجدها ويسقيها
من الماء العذب، ويعود الطلل مرتعاً للحياة، وملهى للناظرين .

قال عنتره (٧٠) :

نسجت يد الأيام من أكفانها حلاًلاً وألقت بينهن عودها
وكسا الربيع ربوعها أنواره لما سقتها الغاديات عهودها
وسرى بها نشر النسيم فعطرت نفحات أرواح الشمال صعيدها
وعندما تقفر الديار يبقى «النؤي» معلماً بارزاً يشير إلى القوة المؤثرة في دمار
الطلل، أو يشير إلى الجُهد الإنساني العاجز عن وقف تدمير الطبيعة العاتية، فلا
النؤي المحفور حول الخيمة منع السيل، ولا احتراز الجاهلي وتدبيره أوقف الموت
المدمر.

قال عبيد بن الأبرص (٧١) :

أمن رسوم نؤيها ناكل ومن ديار دمعك الهامل
قد جرت الريح به ذيلها عاماً، وجون مسبل هامل
حتى عفاها صيت رعد داني النواحي مسبل وابل

(٦٩) زهير بن أبي سلمى ، الديوان ، ص ١٤٥ .

(٧٠) عنتره بن شداد العبسي ، (. . . ، ٦١٤م) ، الديوان ، تحقيق : محمد سعيد مولوي ، المكتب

الإسلامي ، دمشق ، ١٩٧٠م ، ص ٦١ .

(٧١) عبيد بن الأبرص ، (. . . - ٦٠٠م) ، الديوان ، تحقيق ، حسين نصار ، مطبعة البابي الحلبي ،

القاهرة ، ١٩٥٧م ، ص ٩٧ - ٩٨ .

ظَلْتُ بِهَا كَأَنِّي شَارِبٌ صَهْبَاءَ مِمَّا عَتَّقَتْ بَابِلُ
وقال أيضاً (٧٢):

لَمَنِ الدِّيَارُ أَقْفَرْتُ بِالْجَنَابِ غَيْرُ نُؤْيٍ وَدَمْنَةٍ كَالْكِتَابِ
غَيْرُهَا الصَّبَا وَنَفْحُ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ تَذَرُو دِقَاقَ التُّرَابِ
فَتَرَاوَحْنَهَا وَكُلُّ مُلْكٍ دَائِمِ الرَّعْدِ مُرْجَجِنِ السَّحَابِ
ويأتي بعد الدمار والموت الحياة والبعث، فتفتتح الحياة بالعشب والنور والزهر إثر
القوم المهاجرين، ويتحوّل مسرح الأطلال إلى مرتع تروده الوحوش وتتجول في قيعانه
قطعان الظباء، والآرام وجماعات النعام، وأسراب الثيران الوحشية والبقر الوحشي،
وتعود الحياة إلى صخبها وضجيجها وحيويّتها، وتتناسل الحيوانات وتعيش حياة
أسرية هادئة آمنة، أشبه ما تكون بحياة البشر، وتعود أخطار الطبيعة تواجه الساكنين
الجدد؛ فالوحوش الضارية تتربّص وتحوّل الأمن إلى ساحات قتال ودماء، والطبيعة
تقذف بريحتها الصّرصر، ومطرها الهطّال فتضيق الوحوش وتقلق، ثم تنطلق تبحث
عن الأمن والهدور والسّلام.

وتلحّ فكرة المطر على ذهن الشاعر الجاهلي، من حيث هو هزة كونية كبرى، وقوة
فاعلة قادرة على الخلق، وقادرة على التغيير، ومن حيث قهره لسطوة القدر وعُمرام
الزّمان، ومن حيث قدرته على بعث الحياة في الجهاد، وإنعاشه للإنسان والطير
والحيوان، وقد ضرب «القرآن الكريم» مثلاً للحياة الفانية وامتعتها الزائفة بالماء أو المطر
الذي يُنبِت نباتاً طيباً، سرعان ما يتحول إلى هشيم تذروه الرياح، وإلى موت
وحطام (٧٣).

ومن هنا كان المطر في الحسّ اللّغوي العربي يعني: الغيث والحيا والرحمة، ويعني

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٧٣) سورة الكهف: ١٤٥.

أيضاً: حوض منايا، وكؤوس موت، وسحائب عذاب، وشريعة فناء^(٧٤)، لذلك جاءت فكرة المطر في الوقفة الطللية تعبيراً رمزياً عن إرادة «السَّلام»، من أجل المطر سهر الإنسان القديم مُؤَرِّقاً يراقب النجوم والأنواء، وبسبب الماء عرفوا نظام «الحِمَى» وعرفوا «النَّجعة» وعاشوا حروباً طاحنة ورحيلاً أبدياً وحرماناً دائماً. وبسبب المطر بكوا وتذللوا، وأحسوا الغربة، وفكروا في الوجود والمصير، والحياة المُهَدَّدة بالجلد والمحل.

والإرادة «غير الواعية» جعلتهم يكون الأطلال والظعن الراحلة بدموع غزيرة شبهوها بباء «السَّانية» التي تمطو الرِّشاء وتجري ذاهبةً آيةً تَنْضَحُ الماء في دلاء ضخمة، وتحيله إلى جدول متدفق لا ينقطع ماؤه. قال زهير بن أبي سلمى^(٧٥):

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مَقْتَلَةٌ	من النواضح، تسقي جَنَّةً، سُحُقا
تمطو الرِّشاء، وتجري في ثَنَائِهَا	من المحالة ثَقْباً رائداً قَلِقا
لَهَا أَدَاةٌ وَأَعْوَانٌ، غَدُونٌ لَهَا	قَتْبٌ وَغَرْبٌ إِذَا مَا أَفْرَغَ انْسَحَقَا
وَحَلَفَهَا سَائِقٌ، يَحْدُو، إِذَا خَشِيتُ	منه العذاب تَمُدُّ الصُّلْبَ وَالْعُنُقَا
وَقَابِلٌ يَتَغَنَّى كُلَّمَا قَدَرْتُ	على العراقي يداه قائماً دفقا

(٧٤) انظر قول عمرو بن معد يكري، (. . . - ٢١هـ / ٦٤٣م): (وطاب الموت من شرع وورد)، حماسة البحرى، ص ٤٧. وقول الخنساء بنت الشريد، (. . . - ٢٤هـ): (وحوض الموت مورود)، أنيس الجلساء، ص ٢١. وقول عنتر بن شداد، (. . . - ٦١٤م): «إن المنية منهل»، مصطفى السقا، مختار الشعر الجاهلي، جزءان، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ١٦١. وقول النابغة: (فهم يتساقون المنية)، المصدر السابق، ص ١٦١.

(٧٥) زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص ٤١ - ٤٤.

الغريبان: الدلوان الضخمان. المَقْتَلَةُ: المَذْلَلَةُ. الجنة: بستان النخل. تمطو: تمَدَّ. الرشاء: جبل من آدم. في ثنائيتها: مع عطفها. انسحق: انصب. القابل: الذي يقبل الدلو. العراقي: الخشبستان كالصليب على الدلو. النُطْقُ: الطرائق. الشربات: حياض تحفر في أصول النخل. طحل: مخضَّر كدر.

يُحِيلُ فِي جَدُولٍ تَجْبُو ضَفَادُعُهُ حَبَّو الْجَوَارِي تَرَى فِي مَائِهِ نُطْقًا
يَخْرُجْنَ مِنْ شَرِبَاتٍ مَائُهَا طَحْلُ عَلَى الْجُدُوعِ يَخْفَنَ الْغَمُّ وَالْغَرَقَا
ويتكرر هذا المنظر عند امرئ القيس (٧٦)، وعلقمة بن عبدة (٧٧)، وبشر بن أبي
خازم (٧٨)، وليد بن ربيعة (٧٩).

فالشعراء يكون المطر أو الماء ويشيرون إلى المجاعة التي حلت بالقوم الراحلين
وتركت ديارهم أطلالاً مهذمةً، ويحسون أن مشكلة الجذب والمحل لا يحلها دمع يجري
على المحمل، وإنما يحلها الجهد الإنساني والعمل الدؤوب في البحث عن الماء، وفي
استنباطه من بطن الأرض، حيث الزراعة المنظمة، وحياة الاستقرار والأمن، والحب
والسلام.

وتلح «فكرة الطلل» أيضاً في ذهن الشعراء الجاهليين عندما يتذكرون صاحبة
الطلل، فيبنون علاقة ما بين الثغر اللذيذ، والمطر العذب، ويعبرون عن حاجتهم
إلى المطر وشوقهم إلى استقباله، ويكادون ينسون صاحبة الطلل، وهم يستقبلون
المطر في خيالهم وقد غمرتهم الفرحة والرضا والسعادة، فتتحول الصحراء الجرداء في
قلوبهم جنات مخضبة، وغدراناً رائعة فينعَم سكان البادية برحمة السماء، وتتوقف
الرحلات الأبدية وهجرات المجاعة:

قال عنتر بن شداد (٨٠):

(٧٦) امرؤ القيس بن حجر، الديوان، ص ٣٤٥.
(٧٧) علقمة الفحل، الديوان، تحقيق: لطفي الصقال، دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٦٩م،
ص ٥٣ - ٥٦.

(٧٨) بشر بن أبي خازم، الديوان، ص ١٣، ص ٤٩.
(٧٩) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، ص ٧٤ و ١٢١.
(٨٠) عنتر بن شداد العبسي، الديوان، ص ١٤٥.
القارة: وعاء المسك. التاجر: العطار. القسيمة: الجونة أو العير التي تحمل المسك.

وَكَاَنَّ فَاَرَةً تَاجِرٍ بِقَسِيْمَةٍ
 اُورُوْضَةً اُنْفَا تَضُمَّنْ نَبْتَهَا
 جَادَتْ عَلَيْهَا كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةً
 سَحَا وَتَسْكَابَا فِكُلِّ عَشِيَّةٍ
 وَخَلَا الذِّبَابُ بِهَا فُلَيْسُ بِيَارِحٍ
 هَزِجَا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ
 وَقَالَ الْحَادِرَةُ، قُطْبَةُ بْنُ مَحْصَنٍ (٨١):

سَبَقَتْ عَوْرَا ضُهَا اِلَيْكَ مِنَ الْقَمِ
 غَيْثٌ قَلِيلُ الدَّمْنِ لَيْسَ بِمَعْلَمٍ
 فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدَّرْهِمِ
 يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ
 غَرْدَا كَفَعَلَ الشَّارِبِ الْمَتَرَّمِ
 قَدَحَ الْمِكْبِ عَلَى الزَّنَادِ الْاَجْدَمِ

بَكَرَتْ سُمِيَّةُ بُكْرَةً فَتَمَتَّعَ
 وَتَزَوَّدَتْ عَيْنِي غَدَاةً لَقِيْتُهَا
 وَتَصَدَّفَتْ حَتَّى اسْتَبْتِكَ بِوَاضِحٍ
 وَبِمُقْلَتِي حَوْرَاءَ تَحْسِبُ طَرْفَهَا
 وَإِذَا تُنَازَعُكَ الْحَدِيثَ رَأَيْتَهَا
 بِغَرِيضٍ سَارِيَةٍ أَدْرَتْهُ الصَّبَا
 ظَلَمَ الْبَطَاحَ لَهُ اِنْهَالُ حَرِيصَةٍ
 لِعِبِّ السُّيُولِ بِهِ فَأَصْبَحَ مَأْوُهُ
 وَغَدَتْ غُدُوٌّ مُفَارِقٍ لَمْ يَرِيعَ
 بَلَوَى الْبُنَيْنَةَ نَظْرَةً لَمْ تُقْلِعَ
 صَلَّتْ كُمُنْتَصِبِ الْغَزَالِ الْاَتْلَعَ
 وَسَنَانَ، حُرَّةٌ مُسْتَهْلٌ الْاَذْمَعُ
 حَسَنًا تَبَسُّمُهَا لَذِيذُ الْمَكْرَعِ
 مِنْ مَاءٍ اُسْجَرَ طَيْبُ الْمُسْتَنْقَعِ
 فَصَفَا النُّطَافُ لَهُ بُعَيْدَ الْمَقْلَعِ
 غَلَلًا تَقَطَّعَ فِي اُصُولِ الْخِرْوَعِ

العوارض: منابت الأسنان. الأنف: أول كل شيء. الثرة: الكثيرة. الحرة: البيضاء الخالصة. لم يصرم: لم ينقطع ولم ينفذ. الأجدم: المقطوع اليمين.
 (٨١) الحادرة، قطبة بن أوس بن محسن الغطفاني، الديوان، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، ص ٤٣ - ٥٠.

تصدفت: أعرضت وانحرفت. استبتك: جعلتك سبياً لها. الواضح: عنقها الناصع. الصلت: المشرق الجميل. الأتلع: الطويل العنق. وسنان: به سِنَّة وهي النعاس. المستهل: مجرى الدمع. الغريضة: الطري. السارية: السحابة التي تسري بالليل. أدوته: استخرجته كما يستخرج الحالب اللبن. الأسجر: الذي لم يصف. الحريصة: التي تقشروجه الأرض. النطاف: المياه. الغلل: الماء يجري في أصول شجر.

وعندما يتبع الشعراء رحلة الطعائن التي ولدت من الطلل يهيم لها الشعراء
مستقراً أميناً، ومكاناً عزيزاً لدى الجاهليين، أو مقدساً عند كثير منهم : منابع الماء .

قال زهير (٨٢) :

ثم استمروا وقالوا : إِنَّ مَوْعِدَكُمْ ماء بَشْرَقِي سَلَمَى فَيَدُ أَوْرَكَكَ
وقال أيضاً (٨٣) :

فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرْقَاءَ جَمَاهُ وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيَّمِ
وعند الماء يبنون خيامهم يحتمون بها من الهجير اللافح والسموم العقيمة ،
فيتحوّل بؤسهم نعيماً ، وعطشهم ريثاً ، ومجاعتهم خصباً ، ويتردد في الشعر الجاهلي
الحديث عن موارد الماء التي انتهت إليها الرحلة ، وكأنها الحقيقة المنشودة بعد التيه
والضلال .

قال الطفيل الغنوي (٨٤) :

فَبَاكَرْنَ جُونًا لِلْعَلَاجِيمِ فَوَقَّه مَجَالِسُ غَرْقَى لَا يُحَلُّ نَاهِيَهُ
إِذَا مَا أَتَتْهُ الرِّيحُ مِنْ شَطْرِ جَانِبٍ إِلَى جَانِبِ حَازِ التُّرَابِ مَجَاوِيَهُ
وقد نرى الإبل تبحث عن الماء في رحلة الشقاء ؛ فهي لذلك تَشُمُّ البرق لتعرف
على مسقط الغيث . قال خفاف بن ندبة (٨٥) :

فَيَمُّنَ الْيَمَامَةُ مُعْرِقَاتٍ وَشِمْنَ بَرُوضِ عَاجِلَةِ الْغَمَامِ
والكل يشارك في استقبال المطر ، وتلقي رحمة السماء ، لذلك يشم البرق

(٨٢) زهير بن أبي سلمة ، الديوان ص ١٦٤ .

(٨٣) زهير بن أبي سلمى ، الديوان ، ص ٩ .

(٨٤) الطفيل الغنوي ، الديوان ، ص ٨٢ .

(٨٥) خفاف بن ندبة السلمي ، شعره ، تحقيق وجمع : نوري القيسي ، مطبعة المعارف ، بغداد ،

١٩٦٨ م ، ص ٩٥ .

السُّكَّارَى الثَّمْلُونَ، والمحْبُونُ المَتِيمُونَ.

قال امرؤ القيس (٨٦):

نَشِمْ بَرُوقَ الْمُزْنِ أَيْنَ مُصَابُهُ وَلَا شَيْءَ يَشْفِي مِنْكَ يَا ابْنَةَ عَفْزَرَا

وقال الأعشى (٨٧):

فَقُلْتُ لِلشَّرْبِ فِي «دَرْنَى» وَقَدْ ثَمَلُوا شِئِمُوا، وَكَيْفَ يَشِمْ الشَّارِبُ الثَّمِلُ

وقال الطفيل الغنوي (٨٨):

فَقُلْتُ لِحَرَّاضٍ وَقَدْ كَدْتُ أَرْذَهِي مِنْ الشَّوْقِ فِي إِثْرِ الْخَلِيطِ الْمُثَمِّمِ
أَلَمْ تَرَمَا أَبْصَرْتُ أَمْ كُنْتَ سَاهِيًا فَتَشَجَى بِشَجْوِ الْمُسْتَهَامِ الْمُتِيمِ
فَقَالَ: أَلَا لَا لَمْ تَرَ الْيَوْمَ شَبْحَةً وَمَا شِئِمْتَ إِلَّا لَمَحْ بَرْقِ مُغِيمِ

فالطمر هو المشكلة في الوقفة الطللية، هو الذي أنطق الجاهليين بأعذب الشعر؛ من أجله بكوا وتعذبوا وقلقوا، ويسببه مات الطلل وغرقت الديار وعفت، وبفاعليته انبثقت الصحراء بخيرها، وتضوعت الأزهار والمراعي بعطرها، وتزاحمت الحيوانات فَرَحَةً جَذِلَةً آمَنَةً، ويحشأ عن الماء والمرعى هاجرت القبائل، وتقطعت الصَّلات، وتمزَّق الحب، وقُتِلت العواطف، وازداد الإحساس بالحرمان والغربة.

الماء هو الحياة، وعند الماء دارت رحى حرب ضروس، فترك الضعيف وطنه نهياً للغالب، وانطلق في حوض الصحراء العاري يبحث عن مَشْرَعٍ آخر للحياة، وعن وطن يعمه السَّلام.

(٨٦) امرؤ القيس، الديوان، ص ٦٨.

(٨٧) الأعشى الكبير، (. . . - ٦٢٤م)، الديوان، تحقيق: محمد محمد حسين، مكتبة الآداب

بالجاميز، مصر، ١٩٥٠م، ص ٩٣.

(٨٨) الطفيل الغنوي، الديوان، ص ٧٣.

الفصل الرابع

وَصَّةُ قُورِ الْوَحْشِ وَدَلَالَتُهَا الرَّزِيَّةُ فِي السَّعْرِ الْجَاهِلِي

هناك ظاهرة عامة تشيع في الشعر الجاهلي وتسمه بميسم خاص متميز، وهي ظاهرة التشبيه المستطرد، المسرف في الاستطراد، وهذه الظاهرة جديرة بالتفكير والتحليل، وتوشك أن تكون أكثر هذه الاستطرادات في موضوع واحد، وهو الحديث عن مشاهد الصيد، ووصف حيوانات الصحراء الوحشية.

وينفرد الثور الوحشي باهتمام خاص، ويقصون حكايته، فيصفون وحدته وانفراده عن قطيع الوحش في رملة ندية أو في روضة معشبة أو في بركة جرداء مختلاً بقوته، معتزاً بعنفوانه، هائثاً بوحده. ثم يصفون لونه وقوائمه وأعضائه وقرنيه وعينه وجلده وأنفه، وغالباً ما يكون أبيض اللون كالثوب البياض أو كالكوكب الدري، كأنها كُسي خرزاً قشيباً مجلّوا؛ لكن طيب العيش لا يدوم، فأغباش الدجى تتكاثف، وأمواج الليل البهيم تكاد تذهب بناظريه، والرعد المزجر يكاد يصمه ويحرقه، وقطرات الندى والمطر تبدأ بالانثيال على متنه كالدر المنثور.

وتتحول الطبيعة إلى العنف، فيزداد هبوب الرياح الباردة، والبرد الحاصب، والمطر المنصب، ويندفع الثور إلى الاحتماء بأكناف شجرة وحيدة، وغالباً ما تكون شجرة الأرطي الملاذ الوحيد له، يحتفر تحتها كناساً بأظلاله الصلبة، ويبقى ساكناً صامتاً خاشعاً، يراقب البرق والرعد، ينتظر الشمس كراهب مُتَهَجِّجٍ في صومعته، أو كحَبْرٍ متعبّد في كنيسة، لكن العاصفة تهيل ما بناه من التراب، وتكاد الأرض تميد من أسفل منه، ويكاد السيل يغرقه، وتزداد برودة الليل ووحشته، وتأخذ قطرات الندى المتجمد تتساقط على ظهره كحبات اللؤلؤ، فيقضي ليله مؤرقاً مسهّداً، وتزداد حاله سوءاً، وتبدأ الهموم تداهمه، والهواجس تخيفه، لا يغمض له جفن، ولا تسكن له جراحة.

ويأخذ الثور بالابتهال والتوسل، فينقطع السيل، وتنكشف الظلمة، ويأتي الفرج. وما إن يصدع الدجى شفق الفجر الأحمر، ويعكس على ظهره لوناً أشقر كأنه قنديل مسجور، وتبتدأ أستار الظلمة حتى يظهر الصياد العبوس الأغبر يشلي كلابه الضامرة المدربة، فيقتل الثور هرباً ضناً بحياته، وما إن يشعر الثور باقتراب الخطر من كراعيه حتى يعطف على الكلاب طعناً ومشقاً في نحورها وجواشنها، فتساقط صرعى، ويخرج الثور من المعركة ظافراً يهتزُّ مرحاً ونشاطاً، مغتبطاً بسلامته وانتصاره. ويلتفت الشعراء إلى أحوال الثور النفسية، فيصفون تردده، وخوفه وهلعه، وجراثه، وتوتره، وغضبه، وضيقه، وصبره، وجزعه، وقلقه، وسهاده، ثم إقدامه، وإرادته، وعزمه، وسروره، وإشراق وجهه، وفوزه، وحبوره.

هذه هي الخطوط العريضة في قصة ثور الوحش الذي يشبه به الشعراء نوقهم، اختصرها بعضهم، وفصل فيها الكثير منهم، لكن خطوط القصة الكبرى تبقى ثابتة على الرغم من الاختلاف في الجزئيات والتفصيلات. ويمكن أن نمثل هذه القصة بقصيدتين مختارتين: الأولى لزهير بن أبي سلمى، يقول فيها^(١):

كَأَنَّ كُورِيَّ وَأَنْسَاعِي وَمِثْرَتِي	كسوتهنَّ مُشَبَّبا ناشطاً لهقا
رعى بغيثٍ لأوراكٍ فناصفةٍ	من الشتاء فلما شأوه نفيقا
وقد يكون بها حيناً تعزُّبُهُ	وقد تطرَّفَ من حافاتِها أنقا
عِشْرًا وَخُمْسًا فَقَدْ طَابَتْ مَرَاتِعُهُ	من الربيع ولم يبدُنْ وقد زهقا
فسار منها على شَيْمٍ يَوْمُهَا	جنبَيَّ عَمَايَةَ فالركاء فالعمقا
فأدركته سماءٌ بينها خَلَلٌ	تُروى الثرى وتُسِيلُ الصَّفْصَفَ القرقا
فبات معتصماً من قرَّها لثِقاً	رَشَّ السحابُ عليه الماء فاطرقا

(١) زهير بن أبي سلمى، الديوان، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤٤م، ص ٤٢ وما بعدها.

يُمَرِّي بِأُظْلَافِهِ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ
مُوَلِّيَ الرِّيحِ رَوْقِيهِ وَجِبْهَتِهِ
لَيْلَتِهِ كُلِّهَا حَتَّى إِذَا حَسَرْتَ
فَصَبَّحَتْهُ كِلَابٌ شُدُّهَا خَطِيفُ
زُرْقُ الْعَيُونِ طَوَاهَا حَسَنُ صِنْعَتِهِ
حَتَّى إِذَا ظَنَّ قَرْنَ الشَّمْسِ غَالِبَةً
كَرَّ فَفَرَجَ أُولَاهَا بِنَافِذَةٍ

يُسُّ الكَثِيبَ تَدَاعَى التُّرْبُ فَانْخَرَقَا
حَتَّى دَنَا مِرْزَمُ الْجَسُوزَاءِ أَوْ خَفَقَا
عَنْهُ النُّجُومُ أَضَاءَ الصَّبْحُ فَانْطَلَقَا
وَقَانَصُ لَا تَرَى فِي فِعْلِهِ خُرْقَا
مَجْوَعَاتٍ كَمَا تَطْوِي بِهَا الْحِرْقَا
وَخَافَ مِنْ جَانِبِيهِ النَّهْزَ وَالرَّهْقَا
نَجَلَاءُ تُتْبِعُ رَوْقِيهِ دَمَاءً دَفَقَا^(٢)

والثانية للبيد بن ربيعة العامري ، يقول فيها^(٣) :

كَأَخْنَسَ نَاشِطٍ جَادَتْ عَلَيْهِ
أَضَلَّ صَوَارُهُ وَتَضَيَّفَتْهُ
فَبَاتَ كَأَنَّهُ قَاضِي نُدُورٍ
إِذَا وَكَّفَ الْغُصُونُ عَلَى قِرَاهِ
جَنُوحِ الْهَالِكِيِّ عَلَى يَدَيْهِ
فَبَاكَرَهُ مَعَ الْإِشْرَاقِ غُضْفُ
فَجَالٍ ، وَلَمْ يَجُلْ جَبْنَاءً ، وَلَكِنْ

بَرْقَةٌ وَاحِفٍ إِحْدَى اللَّيَالِي
نَطُوفُ أَمْرُهَا بِيَدِ الشَّيْثَالِ
يَلُودُ بَغَرَقِدٍ خَضِلٍ وَضَالٍ
أَدَارُ الرُّوقَ حَالًا بَعْدَ حَالٍ
مُكَبًّا يَجْتَلِي نُقَبَ النَّصَالِ
ضَوَارِيهَا تَخْبُ مَعَ الرَّجَالِ
تَعَرَّضَ ذِي الْحَفِيزَةِ لِلْقِتَالِ

(٢) الكور: الرجل . الأنساع: ما يشد به الرجل . الميثرة: ما يلين به الرجل . المشب: الثور الشاب أو المسن . الللهق: الأبيض . أوراك وناصفة: من بلاد بني تميم . نفق: نفد . شأوه: تطلبه ومداه . تعزبه: تباعده . تطرف: أكل من أطراف النبات . أنقأ: معجبا . العشر والخمس: من الأظماء . يبدن: يضخم . زهق: سمن . على شيم: منظر قد شامه وقصده . عماية والركاء والعمق: أسماء مواضع . الصفصف: المستوى من الأرض . القرق: الأملس . القر: البرد . أطرق: ركب بعض شعره بعضاً . خطف: سريع . الخرق: العجلة والعجرفة . شدها: عدوها . يمرى: يستخرج كما يستدر الخالب لبن الناقة . تداعى: تساقط بعضه في إثر بعض .

(٣) لبيد بن ربيعة ، الديوان ، تحقيق: د. إحسان عباس ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت ، ١٩٦٢م ، ص ٧٦ وما بعدها .

فغادر ملحماً وَعَدَلْنَ عنه وقد خضب الفرائص من طحال
يُشْكُ صفاحها بِالرُّوقِ شَزْراً كما خرج السَّراد من النِّقال
وَوَلَّى تَحْسِرُ الغِمْرَاتُ عنه كما مرَّ المَرَاهِن ذو الحلال
وَوَلَّى عامداً لَطِيَّاتِ فلج يُراوَحُ بين صَوْنٍ وَأَبْتَدَالِ
تَشَقُّ خِثَالِ الدهنَا يداه كما لعب المَقَامِر بِالْفِيَالِ
وَأَصْبَحَ يَقْتَرِي الحَوْمَانِ فَرْداً كَنَصَلَ السَّيْفِ حُودُثَ بالصِّقَالِ(٤)

فاللهق في «قصيدة زهير» هو الأبيض في موضع الكرم لنقاء عرضه مما يُدَنِّسه (اللسان: مادة لهق)، وهي صفة معنوية أكثر منها صفة حسية، يَشُمُّ الثور الطاهر البرق بعد تَعَزُّبٍ طويل في روضة نديّة، يبحث عن المطر ويطلبه، ويصدق حَدْسَه، فالمطر ينصبُّ على متنه، وهو يستقبل المطر راضياً بقرونه وجبهته، يتأدَّى منه وهو راغب فيه، ينتظر الشمس بفارغ الصبر، فيضيء الصبح ويدخل فيه محبوراً. فتنتطق خلفه كلاب الصائد المجوعة، وقبل أن تأفل الشمس يكرُّ عليها طعنًا ومَشَقًّا في صدورها وجَوَاشِنها، ويتركها صرعى.

أما «لبيد» فيجعل ثوره يستقبل المطردون مقدّمات، فيسكن تحت شجرة يتبتّل منفرداً يطلب الشَّمْس، والبرق يلمع على ظهره ومن أسفل منه شرراً، وكأنّه صيقلٌ يجتلي سيفاً، وتعود الكلاب مرةً أخرى في قصة الثور تدفعه من الظلمة إلى النور،

(٤) الأخنس: الثور القصير أرنبة الأنف. واحف: مكان. تضيفته: نزلت به سحابة تنطف بالماء. الغرقد: شجر. الضال: سدر البر. وكف: قطر. القرا: الظهر. الروق: القرن. الهالكي: الصيقل. النقب: الصدأ واللون. الغضف: الكلاب المسترخية الأذان. ضوارها: صوائدها. جال: فر. الحفيظة: الغضب. ملحَم: كلب يطعم اللحم. الفريضة: بضعة في مرجع الكتف. طحال: اسم كلب. يشك: يطعن. صفاحها: جنوبها. السَّراد: السير الذي يخصف به. والمسرد: المثقب أو المخرز. النقال: الرقاع. الغمرات: كربات القتال. المراهن: الفرس الذي عليه الرهان. الفيال: لعبة معروفة يخبأ فيها شيء بالتراب ليعرف مكانه. يقتري: يتتبع. الحومان: الأماكن الغلاظ. حودث: جلي مرة تلو أخرى.

وتلجئه إلى سفك الدم ، فينتصر في المعركة ويخرج إلى الآكام يلمع على قناتها كما يلمع السيف الصقيل .

فالثور في كلا القصيدتين لا نراه في قطيع الوحش وإنما هو متوحد منفرد ، فيه صفة البياض والنقاء ، يلازمه المطر: يغسله ، ويطهره ، وتلازمه الشجرة التي يلوذ في كنفها صامتاً هادئاً متبتلاً ، والكلاب هي التي تطلبه - علماً بأن العرب صادوا الثيران بالفهود المدربة ، وبالقيسي ، وبالمخاتلة ، وغيرها من أدوات الصيد - والثور في كلا القصيدتين يطلب الشمس وينتظرها بشوق ولهفة . . ويمكن يوضح أن نلاحظ النار التي يشعلها «لبيد» على متن الثور أو بين قوائمه ، والتي أرادها صفة له وهو ينطلق جذلاً بانتصاره .

وهناك قصائد كثيرة تُعنى بوصف ثور الوحش ، فَصَّلَ فيها بعضهم وأطال ، واجتزأها بعضهم واختصر ، لكنهم جميعاً معنيون بقصة ثور الوحش ، وهي ليست قصة ساذجة بلهاء لا مغزى لها ، إنما تحمل ثقلاً وجدانياً وعاطفياً ودينيًا عظيمًا ، فيها شوق وعذاب ، ورغبة ورهبة منذ أن كان الإنسان القديم يُبجل الثور ويقدّسه ، وقد بقيت أصداً من مشاعر التقدير والتعظيم في الشعر الجاهلي ، ولا شك أن الشعر الجاهلي قد ضاع منه التراث الديني الجاهلي كله تقريباً لتقدم عهده وبعد أمده ، ولأن الرواة ضربوا عنه صفحاً وأهملوه ، ولم يبق منه إلا إشارات ضئيلة تومئ إلى الديانات القديمة إيماء ، وترمز إليها رمزاً ، لم يستطع تفسيرها علماء البلاغة في العهود الإسلامية اللاحقة ، وظنوها أساليب فنية ، فقالوا بـ «التخلص» و «الاستطراد» فالشاعر الجاهلي في ظنهم ينتقل من موضوع وفاه حقه إلى موضوع آخر بأداة التخلص ، ثم يستطرد إلى وصف مظاهر الصحراء المختلفة التي شغف بها وسجلها تسجيلاً دقيقاً في شعره .

وقد تحولت قصة ثور الوحش إلى تقليد فني بعد أن كانت ذاب مغزى ديني ، انقرضت طقوسها وشعائرها ، ولم يبق منه سوى أشكال فنية محددة تنافس في إبرازها شعراء الجاهلية .

وهذا الشكل الفني في الشعر الجاهلي لم يكن نابعاً من الوعي الفردي لشاعر

جاهلي واحد أو أكثر، وإنما هو تعبير عن إحساس جمعي عام، وإيمان عقائدي متحد في ضمير الأمة.

وليس وصف الثور هامشياً أو عارضاً في الشعر الجاهلي فنقول إن الشعراء يشبهون نوقهم به لصلابته وقوته، وإنما جاء وصف الثور أساسياً في كثير من قصائد الشعر الجاهلي ونحس أن بعض الشعراء لا يريد من قصيدته غير وصف الثور دون سائر أغراض القصيدة. ويحوي وصف ثور الوحش كثيراً من الرموز والإيحاءات والإشارات التي تحتاج إلى التأمل وإعادة التفكير في هذه القصة - التي تبدو ساذجة بسيطة - قصة ثور الوحش في الشعر الجاهلي.

ويمكن أن نلاحظ في وصف ثور الوحش ملامح أساسية، هي:

(أ) التفرد المطلق، والتوحد، والعزلة، فالثور دائماً منفرد كراهب منقطع للعبادة في صومعته، يقضي ليله متأملاً متفكراً خاشعاً، في سُمُوٍّ وطُهر وترُفَع، وأحياناً نلاحظ توتره وأرقه وتحفزه وتوجُّسه، والثور لا يمكن أن يعيش إلا في قطع من البقر، لكن الشعراء جميعاً أرادوا له التوحد والتفرد.

(ب) يحفر الثور دائماً كناساً متواضعاً هو بمثابة الصومعة، ينزوي فيه الثور متبتلاً مصلياً متأملاً مترقباً، ويختار الشعراء له صفة القديس المتهجّد أو الحبر المتعبّد.

(ج) نزول المطر يبدو أحياناً نتيجة لتوسلات الثور وتضرُّعه وترقُّبه وصلواته، وعلى الرغم من احتفاء الثور بالأرطى، فإن المطر يغمره غمراً ويغسله غسلًا وكأنها يريد له الطُّهر والنقاء والصفاء.

(د) الثور دائماً يُفَضَّل الأمن والسلم، ولا يطلب العنف والقتال، ولا يؤذي الكلاب إلا دفاعاً عن النفس.

(هـ) غالباً ما يأتي وصف الثور بعد الحديث عن هجرة القبائل التي تعرضت للمجاعة والجفاف والقحط؛ لأن الحديث عن الأطلال الدارسة والطعائن المرتحلة إعادة

لذكريات المجاعة والجفاف التي ألجأت قبيلة المحبوبة إلى هجر الوطن بحثاً عن الماء والمرعى ، والشعراء يرحلون بحثاً عن المرأة أو الحب الضائع ، وبحثاً عن الاستقرار أو بحثاً عن الماء المفقود، ويجسدون رغبتهم في الماء والمطر بقصة ثور الوحش .

(و) في الليلة الليلاء المطيرة يلوذ الثور بشجرة الأروطة يطلب عندها الوقاية والحماية وكأنها يلفتنا إلى نتاج ذلك المطر المنصب .

(ز) يبرز الثور - بعد وصف الناقة - بصورة القوة المكتملة ، والعظمة القاهرة ، والإرادة الخالقة ، والجبروت المتحكم ، أمّا في المراثي فيبطش الموت بالثور؛ لأن مجتمع الآلهة في المعتقد القديم فيه بعض صفات مجتمع البشرية : التعب والألم والضعف ، وتخضع لسطوة الدهر ويطش الموت .

(ح) يقرن الشعراء صورة الثور بصورة النجم الثاقب والشهاب المنقض ، والشعري الواضحة ، والبرق الخاطف ، والسيف الصقيل ، وعندما يلمع البرق في أنحائه ، يبدو الثور كأنه مصطل ناراً فيظهر شخصه مُصْفراً من أشعتها . . وهذه الصور جميعاً لها علاقة ما بإشعال النار .

(ط) يقابل الشعراء في وصف الثور بين صورتين متناقضتين : إرادة الحياة ، وإرادة الموت ؛ فالثور يريد الحياة ، والكلاب تريد له الموت .

وصورة الظلمة والنور ، فالثور يريد النور وينفي العتمة ؛ لأن الظلمة تثير الفزع والهلوع والتترُّ والأرق ، أما النور فيكشف عن الأمور ويوضحها ، لكن النور يستثير الفزع المستتر في أعماق الظلمة . ويصحب الظلمة شدة ومعاناة ، بينما تأتي الشمس بالأمل ودفء الحياة ، والفرج المنتظر .

وصور ثور الوحش هذه يمكن أن ترتد إلى ذلك التراث الديني الجاهلي الذي انطمست معالمه ، وانمحت آثاره ، وكأنها الأطلال الدارسة التي أغرموا بوصفها .

ويمكن أن نطالع صورة ثور الوحش في المعتقدات القديمة في إطار من القدسية

والتبجيل :

فهو «إله» يرمز إلى القوة والخصب، وهو إله العواصف، عبده «السومريون»، وسموه «انليل»، وعبدوا البقرة إلهة معه^(٥).

وكان الثور عند «الحثيين» - في آسيا الصغرى - إله المطر والبرق والعواصف الرعدية، وهو إله عنيف، صعب المراس، يهيج دونما إنذار، وهو قوي وخصب وعنيف، يرمز للقوة التناسلية^(٦).

وكان «الآشوريون» يضعون الثيران المُجَنَّحة على أبواب قصورهم حراسة راعية؛ لأنهم كانوا يعبدون الإله «الثور» ويلتمسون عنده الحماية والرعاية^(٧).

أمّا عند العرب القدماء، فنجد الثور إلهاً يسمى بعلاً، ورمزوا به للهِلال، والقمر هو المقه، وهو أيضاً «هبل» الذي نصب صنمه في الكعبة رجلاً شامخاً ليكون السيد أو كبير آلهة العرب، والثور معناه: السيد والرب، وكان رمز الخصب والمطر^(٨).

ويمثل الثور «بعل» في الاعتقاد الكنعاني إله خصب الحقول والمواشي الذي يتمطى السحب، ويرسل الغيث والعواصف، وله ارتباط بالآلهة ابنة البرق^(٩).

و(حاداد) أكبر الآلهة الذكور في سوريا، وهو إله الرعد والخصب والمطر على هيئة «ثور» وهيكل الشمس في «بعلبك» يحوي تمثالاً له، يقبض بيسراه على صاعقة

(٥) د. عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، طبع وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠، ص ٨٠.

(٦) جيمس فريزر: أدونيس، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، دار الصراع الفكري، بيروت، ١٩٥٧ م، ص ١٠٥.

(٧) د. عبد الجبار المطلبي: مواقف في الأدب والنقد، ص ٨٦.

(٨) ديتلف نيلسن: التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين علي، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٢١٣.

(٩) د. عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، ص ٨٨.

وسنابل قمح، ويُمثَّل (حاداد) في شمال «سوريا» برأس إنسان له لحية وقرنان، وهما رمز القوة والخصب^(١٠).

وفي «كنعان» كان الإله الثور «بعل» رمزاً للخصب وعودة الحياة وتكاثر الأحياء^(١١).

وكان «بعل» أكثر آلهة «الفينيقيين» تبجلاً، وهو إله المطر. وتعبير الأرض التي تسقى من السماء «بعلاً» الذي يجري على ألسنة سكان الشام أثر واضح من تلك العبادة^(١٢).

وكان «يهوه» عند العبرانيين في العصور القديمة يُرسم في صورة «ثور»^(١٣).
أَضْرَبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ... ﴿١٠﴾

قال: جعل «موسى» لقومه حجراً مثل رأس «الثور» يحمل على ثور، فإذا نزلوا وضعوه، فضرب «موسى» - عليه السلام - بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فإذا ساروا حملوه على «ثور» فاستمسك الماء^(١٤).

وعبد المصريون الثور رمزاً للخصب، وسموه «أبيس»، وعد الملوك المصريون أنفسهم ثيراناً، ولقبوا أنفسهم ثيراناً، فقالوا بـ «الثور القدير» و«ثور السماوات»،

(١٠) جيمس فريزر: أدونيس ص ١١٣، (سبق ذكره).

(١١) د. عبد الجبار المطلبي: مواقف في الأدب والنقد، ص ٨٩. (سبق ذكره).

(١٢) شريف يوسف: الكعبات المقدسة عند العرب قبل الإسلام، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٢٩، سنة ١٩٧٨ م، ص ١٨٨.

(١٣) ديتلف نيلسن، التاريخ العربي القديم، ص ٢٣٧، (سبق ذكره).

(١٤) البقرة: ٦٠.

(١٥) أبو الفداء، إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، (دون تاريخ)، ج ١ ص ١٠٠.

ومعظم أساطير الخصب في مصر تعزو فيضان النيل لخصوبة «أبيس» الإله «الثور»^(١٦).

وكانت عبادة «الثور» تجسيداً أرضياً لعبادة القمر السماوي ، فالقمر بمنزله المتغيرة قد ارتبط منذ زمن مبكر بطقوس الزراعة والخصب واستتزال المطر، فأوا الهلال كقرون الثور، والثور فيه قوة الإخصاب ومن هذه الجهة جاءت عبادة «الثور» وهذا يتفق مع طبيعة الإنسان القديم في الميل إلى التجسيم أكثر من ميلهم إلى التجريد العام.

وذكر «الشهرستاني» أن الهنود عبدوا أيضاً القمر، واتخذوا له صنماً على صورة «عجل» وبيد الصنم جوهرة^(١٧).

ويرى بعض المؤرخين أن ديانات جميع العرب خاصة الجنوبيين تتصل بعبادة القمر، فهو مقدم عندهم على الشمس، لأن الشمس محرقة، أما القمر فهو دليل الركب، ورسول القوافل، فكان القمر هو الأب السماوي، أما الشمس فقد اتخذت منزلة الأم العظمى، وليس عبثاً أن نرى في اللغة العربية التعبير «القمران» للشمس والقمر. ويتخذ القمر أسماء إلهية مختلفة في جزيرة العرب، فهو «ورخ» و«سين» و«شهر» و«عم» و«المقه» و«ود» و«اللات» و«السيد»^(١٨).

وقد اتخذ العرب الجنوبيون من «الثور» رمزاً لإلههم «القمر»، فعُدَّ من الحيوانات المقدسة التي ترمز إلى الآلهة، وقد دعي القمر في بعض النصوص «ثوراً». ^(١٩).

(١٦) عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، ص ٩٣، (سبق ذكره).

(١٧) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ - ٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، مصورة المؤسسة المصرية العامة عن دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٢م ٢٢ مج، ج ١ ص ٥٧.

(١٨) ديتلف نيلسن: التاريخ العربي القديم، (سبق ذكره)، ص ٢٠٧ وما بعدها.

(١٩) المصدر السابق، ص ٢٠٨.

وكان «المقه» إله «السبأيين» وهو يرمز إلى «القمر»، وكان الناس يقدمون الثيران وحدها قربان لهذا الإله (٢٠).

و«بعل» كان يعد إلهاً وطنياً في «تدمر» وكانت عبادته استمراراً لعبادة الخصب والمطر التي كان «بعل» يمثلها في بلاد كنعان.

وكان «ود» إله الشموديين واللحيانيين، وهو نفسه «المقه» الذي عبده العرب الجنوبيون، ويرمزون إليه بـ «الثور» بدليل وجود صورة رأس الثور في أكثر الكتابات اللحيانية والشمودية (٢١).

وعبد «الأنباط» «ذا شرى» وهويشابه إله الإغريق «ديونيسوس» وكان على هيئة «ثور» (٢٢).

وقد أشار بعض الكتاب إلى «البقرة» التي يعبدها سكان الصحراء الكبرى الأصليون في المغرب العربي (٢٣).

وتشير الروايات إلى أنه لما أجمعت قريش على هدم الكعبة المشرفة، أخرجوا ما كان فيها من حلي ومال، «وقرني كبش» (أرجح أن المقصود: قرني ثور)، وجعلوها عند أبي طلحة عبد الله بن عبد العزى (٢٤).

وهكذا تعبد العرب للثور «بعل» إله الخصب والمطر في كل مكان، وإلى ذلك

(٢٠) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، (دون تاريخ)، ٦ مج، ج ٥ ص ١٤٣.

(٢١) المصدر السابق، ج ٥ ص ١٢٣.

(٢٢) عبد الجبار المطليبي، مواقف في الأدب والنقد، (سبق ذكره)، ص ١٠٤.

(٢٣) جيمس ويلارد، الصحراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا ١٩٦٧م، ص ٤٣.

(٢٤) النجم عمر بن فهد، اتحاف الوري بأخبار أم القرى، مكتبة الخانجي بمصر، ١٤٠٣هـ، ج ١ ص ١٤٩.

أشبار القرآن الكريم، قال تعالى (٢٥): ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾.

ومعنى «بعل» في اللغة العربية يحمل إشارات واضحة إلى عبادته القديمة، فهو : الصنم المعبود، وقيل كان صنماً من ذهب يعبدونه من دون الله، والبعل : الرب، والمالك، والسيد (٢٦).

وقد سمي العرب ابن البقرة الوحشية بـ «الفرقد» والفرقدان نجهان معروفان، لكونهما من صنف الحيوان المقدس.

وكان قتل الثور طقساً صيدياً - كما يقول «براندون» في كتابه : (العقيدة في التاريخ القديم) - إذ كان يُؤكل عند بعض القبائل لكي يظفر صائده بإحلال قوة معبوده وبعض صفاته فيه (٢٧).

وَأَتَّخَذَ الثَّورَ تَعْوِذَةً سَحَرِيَّةً فِي طَقُوسِ الْاسْتِسْقَاءِ، وَمِنْ جَمَلَةِ هَذِهِ الطَّقُوسِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْشُونَ جِلْدَ «الثَّورِ» بِالْبَذْرِ الزَّرَاعِيَّةِ، وَيَمَزُقُونَ الْجِلْدَ لِيَتَدَفَّقَ مِنْهُ الْحَبُّ فَيَمْطُرُونَ (٢٨).

قال ابن الفقيه: على جبل «نهاوند» طُلُسمان : صورة سمك وثور منحوتان من الحجر، قيل : إنهما لأجل الماء لئلا يقلَّ أو يَنْضَبَ (٢٩).

(٢٥) الصافات : ١٢٣ - ١٢٥ .

(٢٦) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، (٦٣٠هـ - ٧١١هـ)، لسان العرب، مطبعة بولاق، (دون تاريخ)، ٢٠ مج، مادة (بعل).

(٢٧) د. أحمد كمال زكي، شعراء السعودية، مطبعة دار العلوم بالرياض، ١٩٨٣ م، ص ٩٣.

(٢٨) د. قيس النوري، الأساطير وعلم الأجناس، طبع دار الكتب، الموصل، العراق، ١٩٨١، ص ١٩٢.

(٢٩) القزويني، زكريا بن محمد (ت ٦٨٢هـ)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠ م، ص ٣٤٦ و ٤٧١.

وكانت بعض القبائل تحرق معدة أحد الثيران عند حلول المساء، لأن الدخان الأسود يجمع السحب ويسبب سقوط المطر.

وتقدم قبائل «الأنجون» قرباناً للمطر من أحد الثيران السود بينما ينحرون ثوراً أبيض لإحداث الجوالصَّحُو(٣٠).

قال جورج غيرستر(٣١): إن الثور كان في بعض الحقب والأماكن معبوداً لأنه يمثّل الثراء والقوّة، فقد كانت قرونه تُمثّل القمر النامي، وكان حليب البقرة رمزاً للخصب، وكثيراً ما عثرنا في القبور السابقة لعهود الإسلام على جماجم بشرية مختلطة جنساً إلى جنب بعظام الثيران، وكثيراً ما نرى في الواحات جمجمة ثور قائمة على مداخل البيوت أو على الجدران المحيطة ببساتين النخل لحمايتهم من الحسد، ومن المحتمل أن تكون هذه الخرافات التي عاشتها الأجيال الطويلة هي آخر ما تبقى من مظاهر عبادة الثيران التي تجمع بين الدين والسحر.

زعموا أن «بشر بن أبي خازم الأسدي» خرج في سنة أُسْنَتَ فيها قومه، وجهدوا، فمروا بصُوار من البقر، وإجل من الأروى، فذعرت منه، فركبت جبلاً وعرّاً ليس له منفذ، فلما نظر إليها قام على شعب من الجبل وأخرج قوسه، وجعل يشير إليها كأنه يرميها، فجعلت تلقي نفسها فتتكسر، وجعل يقول:

تتابعي بقر، تتابعي بقر

حتى تكسرت، ثم قال:

أنت الذي تصنع ما لم يُصنع

(٣٠) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ترجمة أحمد أبوزيد وآخرين، الهيئة المصرية العامة، مصر، ١٩٧١م ج١، ص ٢٧٦.

(٣١) جورج غيرستر: الصحراء الكبرى، ترجمة خيرى حماد، المكتب التجاري، بيروت، ١٩٦١م، ص ٦٤.

أَنْتَ حَطَطْتَ مِنْ ذَرَى مُقَنَّعٍ
كُلَّ شَبُوبٍ لَهَقِي مُوَلَّعٍ (٣٢)

ولا شك أن تساقط البقر من أعلى الجبال كان من التعاويذ السحرية الجاهلية المهمة في الاستسقاء، وربما كان يقوم بهذه الطقوس، الشعراء والسحرة والمتنبئون، إذ كانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات وركد عليهم البلاء، واشتد الجذب، واحتاجوا إلى الاستمطار وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ثم عقدوا في أذناها وبين عراقيبها السِّلَع والعُشْرُثَم صَعَّدُوا بها في جبل وعمر، وأشعلوا فيها النيران، وضَجُّوا بالدعاء والتضرُّع، فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقيا (٣٣).

وقصة بشر بن أبي خازم تشير إلى أن «الشعراء» كانوا يارسون طقوس الاستسقاء، فيقذفون بالبقر من قمم الجبال؛ لأن الإنسان القديم كان ينظر إلى الآلهة نظرة نفعية محضة، فهم يُصَعِّدون البقر إلى الجبال حيث تسمع الآلهة توسلاتهم وشكواهم، ويضجُّون ويبتهلون. ونص النويري على أنهم يختارون جهة الغرب دون الجهات؛ لأن السحب تثور من تلك الجهة، فإذا لم تستجب الآلهة لتوسلاتهم أشعلوا بين عراقيبها النيران كي تأتي بالمطر فتطفئ النيران ويذهب الجفاف والقحط، وإن لم تأت بالمطر فهي تستحق ذلك المصير البشع.

والثور رمز الخصب والقوة والإرواء، وقد كان العرب إذا أوردوا البقر فلم تشرب، إمَّا لكدر الماء، أو لقلَّة العطش، ضربوا الثور ليقتمح الماء. وقد علل الجاحظ ذلك فقال (٣٤): لأنَّ البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل، وكما تتبع أتن الوحش الحمار، قال

(٣٢) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، تحقيق: د. عزة حسن، طبعة دمشق، ١٩٦٠م، ملحق (١٠).

(٣٣) الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت ٢٥٢هـ)، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، مصر، (دون تاريخ)، ٨ مج ج ٤ ص ٤٦٦.

(٣٤) الجاحظ، الحيوان، (سبق ذكره)، ج ١ ص ١٨ وما بعدها.

في ذلك عوف بن الخرع :

تَمَنَّتْ طِيءٌ جَهْلًا وَجُبْنًا وقد خاليتهم فأبوا خلائي
هَجُونِي أَنْ هَجَوْتُ جِبَالَ سَلَمَى كَضَرَبِ الثَّوْرِ لِلْبَقْرِ الظُّمَاءِ

وقال أنس بن مدرك :

إِنَّ قَتْلِي سُلَيْكًا ثُمَّ أَعْقَلُهُ كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتِ الْبَقَرُ (٣٥)
وقال الهَيَّانُ الْفَهْمِيُّ :

كَمَا ضُرِبَ الْيَعْسُوبُ أَنْ عَافَ بَاقِرٌ وما ذنبه إن عافت الماء باقرُ
ولما كان الثور أمير البقر، وهي تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب، سماه باسم
أمير النحل .

وكانوا يزعمون أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن
الشرب فتهلك، قال الأعشى (٣٦) :

وَإِنِّي وَمَا كَلَّفْتُمُونِي وَرَبِّكُمْ لَيَعْلَمَنَّ مَنْ أَمْسَى أَعَقَّ وَأَحْرَبَا
لِكَالْثَّوْرِ وَالْجَنِيِّ يُضْرَبُ ظَهْرُهُ وما ذنبه أن عافت الماء مشربا
وما ذنبه أن عافت الماء باقرُ وما إن تعاف الماء إلا ليضربا
وقال يحيى بن منصور الذُّهْلِيُّ في ذلك :

لِكَالْثَّوْرِ وَالْجَنِيِّ يُضْرَبُ وَجْهُهُ وما ذنبه إن كانت الجن ظالمه

(٣٥) قيل : الثور : معناه الطحلب، لأن البَقَّارَ إذا أورد القطعة من البقر فعافت الماء، وصدها عنه
الطحلب، ضربه ليفحص عن الماء فتشربه .

انظر : اللسان مادة (ثور)، لكن النصوص الأخرى تخالف هذا التفسير .

(٣٦) الأعشى الكبير، الديوان، تحقيق : د . محمد محمد حسين، مطبعة الآداب بالجماميز، مصر،
١٩٥٠م، ص ١٥١ .

وقال نهشل بن حري :

أَتَرَكُ عَارِضٌ وَبَنُو عَدِيٍّ وَتَغَرَّمُ دَارْمٌ وَهُمْ بَرَاءُ
كَذَّابُ الثَّوَرِ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي إِذَا مَا عَافَتْ الْبَقَرُ الظَّمَاءُ (٣٧)

وليس ضرب الثور من قبيل ضرب القوي ليهاب الضعيف كما علل الجاحظ، وإنما هذا إشارة لطقس سحري قديم، مارسه الإنسان الجاهلي في حيواناته، ولا شك أن هذا الطقس له علاقة بالسقيا والإرواء والإخصاب، فربما كان ابتداء الثور بالشرب إغراء له كي ينزل المطر، أو تكريراً لصانع المطر الذي كانت الغدران من فعله ونتاجه، أو تذكيراً له بعواقب الجفاف والجذب: الإهانة والحرق بالنار.

وهذه الممارسات السحرية بقايا طقوس واحتفالات قديمة تتصل بعبادة الثور وما يرمز إليه من الخصب والمطر. وقد جاءت صورة الثور في الشعر الجاهلي مرتبطة بذكر المطر والماء أو بتوجس نزول المطر وهبوب الريح الباردة، وما يتبعها من برق لامع، ورعد قاصف؛ لأن الثور يمثل قوة إلهية قادرة على التحكم في الرياح والسحب والمطر.

وما عادة استسقائهم بالبقرة إلا من مخلفات عبادة الثور، وما يرمز إليه من الخصب والمطر، ويبدو أن النار المضرمة في حطب السَّلَع والعُشْر إنما هي تطور لطقوس واحتفالات قديمة تتصل بهذا الإله الثور (٣٨).

وقد نرى في وصف الشعراء للثور بقايا ذلك التراث الديني القديم الذي اندثرت طقوس عبادته، ولم يبق منها سوى إشارات موجزة، توحى بالمعتقد القديم وتوهم إلى. ودائماً يؤكد الشعراء على العلاقة القائمة بين آلهة السماء البعيدة، وما يُجَسِّمها ويُشَخِّصها ويمثلها في عالم الأرض من حيوانات مقدسة، لذلك قرن الشعراء صورة

(٣٧) الجاحظ، الحيوان، (سبق ذكره)، ج ١ ص ١٩.

(٣٨) د. عبد الجبار المطلبي، مواقف في الأدب والنقد، (سبق ذكره)، ص ١٠٧.

الثور بصور الكواكب المعبودة، قال عبيد بن الأبرص (٣٩):

كَالْكَوْكَبِ الدَّرِّيِّ يُشْرِقُ مِنْهُ خَرَصاً خَمِصاً صَلْبُهُ يَتَأَوَّدُ
وقال أبو ذؤيب الهذلي (٤٠):

مَنْ وَحْشٌ حَوْضِي يِرَاعِي الْوَحْشَ مُبْتَقِلاً كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ فِي الْجَوِّ مُنْحَرِدُ
وقال أوس بن حجر (٤١):

وَأَنْقَضَ كَالدَّرِيِّ يَتَبِعُهُ نَقْعٌ يَثُورُ تَحَالُهُ طُنْبَا
وقال المثقب العبدى (٤٢):

تَنْحَسِرُ الْغَمْرَةُ عَنْهُ كَمَا يَنْحَسِرُ النِّجْمُ عَنِ الْفَرْقَدِ
وقال بشر بن أبي خازم الأسدي (٤٣):

فَبَاتَ فِي حِقْفِ أَرْطَاةٍ يَلُودُ بِهَا كَأَنَّهُ فِي ذُرَاهَا كَوْكَبٌ يَقْدُ
وقال الأعشى الكبير (٤٤):

تَجْلُو الْبَوَارِقَ عَنْ طَيَّانٍ مُضْطَمَرٍ تَحَالَهُ كَوْكَباً فِي الْأَفْقِ ثَقَابَا

(٣٩) عبيد بن الأبرص، الديوان، تحقيق: د. حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٤٤.

(٤٠) أبو ذؤيب الهذلي، شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبد الستار فراج، طبعة القاهرة، ١٩٣٧م، ج ٣، ص ٦٠.

(٤١) أوس بن حجر، الديوان، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م، ص ٣.

(٤٢) المثقب العبدى، الديوان، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، طبعة معهد المخطوطات العربية، ١٩٧١م، ص ٤٩.

(٤٣) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٥٥.

(٤٤) الأعشى الكبير، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٣٩٧.

وقال أيضاً^(٤٥):

هجن به فانصاع منصلتاً كالنجم يختار الكثيب أبل
وقال الأعشى أيضاً^(٤٦):

وأدبر كالشعري وضوحاً ونقبةً يواعن من حر الصريمة معظماً
وعندما تهجم، أغباش الدجى البهيم على الثور، وتحصبه السماء بوابل من البرد
والريح والمطر، يلوذ الثور وحيداً منكراً في كنف أرطاة يحتفر تحتها كناساً هو أشبه
بصومعة المتصوف المتعبّد، أو القديس المتبتّل . . أحياناً تبدو عليه السكينة والوقار،
والتأمل والخشوع، وأحياناً أخرى تظهر عليه علامات الأرق والسُهد، والقلق،
والتوتر، والدُعر، والخوف، والتوجُّس، واليأس، والترقب، والترصد . . ينتظر المطر
الذي يأتي بالحياة والخصب، ويتربقّب الشمس والنور وانكشاف الهم .

وأحياناً نراه معنيّاً بترقب المطر وتأمل السماء والتفكير بمشكلات الجفاف، فالثور
يشم البرق ليتعرّف على مساقط المطر، قال زهير بن أبي سلمى^(٤٧):

- فسار منها على (شيم) يؤمُّ بها جنبي عمّاية فالركاء فالعمّقا
- (يشمن بروقه) ويرش أري ال جنوب على حواجبها العماء

والثور يوقد النار ويشعلها، والنار ترتبط بالثور ارتباطاً أساسياً في طقوس
الاستسقاء، قال أوس بن حجر^(٤٨):

وانقضّ كالدرّي يتبعه نقع يشور تحالهُ طُبا

(٤٥) المصدر السابق، ص ٢٧٩ .

(٤٦) الأعشى الكبير، الديوان، (سبق ذكره)، ص ١٥٧ .

(٤٧) زهير بن أبي سلمى، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٤٢ وص ٥٧ .

(٤٨) أوس بن حجر، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٣ - ٤ .

يخفي وأحياناً يلوح كما رفع المنير بكفه لها
وقال النابغة الذبياني (٤٩):

مُولِي الرِّيحِ رَوَّقِيهِ وَجَبْهَتَهُ كَالْهَبْرَقِيِّ تَنْحَى يَنْفُخُ الْفَحْمَا
وأخذ الثور في تصوُّر امرئ القيس شكل النار، قال (٥٠):

وبات إلى أرطاة حِجَفَ كَأَنَّهَا إِذَا أَلْثَقْتُهَا غَبِيَّةٌ بَيْتٌ مُعْرَس
. . فَأَدْبَرَ يَكْسُوها الرِّغَامَ كَأَنَّهُ عَلَى الصَّمَدِ وَالْأَكَامِ جَذْوَةٌ مُقْبِس
فَأَدْرَكْنَهُ يَأْخُذُنَ بِالسَّاقِ وَالنَّسَا كَمَا شَبَّرَقَ الْوَلْدَانِ ثَوْبَ الْمُقَدَّسِ

والبيت الأخير يدل صراحة على قدسية الثور في المعتقد الجاهلي، فالأطفال
يتمسحون بأثواب هذا القديس المتعبد الذي يملك قوى روحية كبرى.

ويأخذ الثور في التصور الجاهلي صورة الملك (صانع المطر)، قال سحيم عبد بني
الحسحاس (٥١):

يُنَحِّي تُرَاباً عَنْ مَبِيتٍ وَمَكْنَسٍ رَكَاماً كَبِيتِ الصَّيْدَنَانِي دَانِيَا (٥٢)
وقال الأعشى الكبير (٥٣):

ثُمَّ اسْتَمَرَ يُبَارِي ظِلَّهُ جَذِلاً كَأَنَّهُ مَرْزُبَانٌ فَازَ مَحَبُّور

(٤٩) النابغة الذبياني، الديوان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ص ٦٥.

(٥٠) امرؤ القيس بن حجر، (ت ٥٤٠م)، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م، ص ١٠٢.

(٥١) سحيم عبد بني الحسحاس، الديوان، تحقيق: عبد العزيز الميمني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٨م، ص ٢٩.

(٥٢) الصيدناني: الملك.

(٥٣) الأعشى الكبير، (ت ٦٢٤م)، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٤٣.

ودائماً ينفرد الثور مُتَبَتِّلاً تحت الشجرة يتطَهَّرُ بهاء المطر، مُكَبِّاً كأنه يُصَلِّي صلاةً يقضي بها نذوراً.

قال النابغة الذبياني (٥٤):

فبات كأنه قاضي نذور شرى لله ينتظر الصِّباحا
وقال لبيد بن ربيعة (٥٥):

فبات كأنه قاضي نذور يلوذ بغرقٍ خِصْلٍ وضالٍ

والثور في الشعر الجاهلي يعاني الألم، ويقاسي من الوحدة، ويتوجس خيفة من عدولا يراه، ومن قوة عظمى لا يقدر السيطرة عليها، ومن مستقبل غامض مخوف بالمخاطر والأهوال، لكنَّ بواذر الأمن والسلام ممكنة: فالمطر ينسكب كأفواه القرب، والشمس تنثر الدفء والشعاع الضئيل من بُعد، والأرطاة حتمه من هبوب العاصفة.

وفي معظم الأحيان نرى الثور ونرى معه المطر، والبرق يلعب على سرائره كجذوة اللهب الأصفر، وبصره عالق في السماء، مشدود إليها، يعالج الليل والريح والمطر، ويدراً بقرونيه البرد الجامد، والرعد المرجس.

ويمكن القول: إنَّ الحديث عن المطر لا يتَّضح تماماً في القصيدة الجاهلية إلا عندما تُسرَّد قصة ثور الوحش؛ لأن الثور رمز مشهور من رموز المطر. قال بشر بن أبي حازم الأسدي (٥٦):

كأنها بعدما طال الوجيفُ بها من وحش خُبَّة موشي الشَّوى فردُ

(٥٤) النابغة الذبياني، (ت ٦٠٤م)، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٢١٥.

(٥٥) لبيد بن ربيعة العامري، (٥٤٠م - ٦٦٩م)، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٧٦.

(٥٦) بشر بن أبي حازم الأسدي، (ت ٣٢٢ق. هـ / ٥٩٠م)، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٥٥.

الصدر: الشديد البرد. منكرس: منكب. العقرب: برج من بروج السماء وله من المنازل: الزباني والشولة والقلب. نثرتها: مطرها.

إلى الكِناس عشيَّ باردٍ صرْدُ
كأنه في ذراها كَوَكَبٌ يَقْدُ
كما استكان لشكوى عينه الرَّمْدُ
وبلَّه من طلوع الجَبْهة الأسدُ

وقال أيضاً (٥٧):

بحرْبَة موشيَّ القوائم مُقْفِرُ
تَكْفُثُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ وَتَطِرُ
وأرطاة حِقْفٍ خائها النَّبْتُ يَحْفِرُ
أَعْنَةُ خَرَّازٍ تَحْطُ وَتُبْشِرُ
جُحَانُ بَضاحي متنه يتحدَّرُ

بأدماء من سِرِّ المَهاري كأنها
فباتت عليه ليلة رَجْبِيَّة
وبات مَكْبأ يتقيها برَوْقه
يشير ويبيدي عن عروقي كأنها
فأضحى وصَيْبان الصَّقيع كأنها

وقال الأعشى الكبير (٥٨):

ضربُ قِطارٍ تحْثُهُ شِمَالُ
غَبِيَّةٍ: أَصْبَحَ لَيْلٌ، لَوْ يَفْعَلُ
أَحْنَى على شِمَالِهِ الصَّيْقَلُ

كأنها طاوٍ تَضَيِّفُهُ
بات يقول بالكثيب من الـ
مُنْكَرِساً تحت الغُصُون كما

وقال أيضاً (٥٩):

(٥٧) المصدر السابق، ص ٨٢.

رجبية: من ليالي شهر رجب. تكفثه: ثملته. الخريق: الريح الباردة. أعنة الخراز: سيور الجلد التي يقدها الخراز لعمله. بشر الأديم: قشر بشرته التي ينبت عليها الشعر.

(٥٨) الأعشى الكبير، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٣١٥.

القطار: المطر. الغبية: الدفعة الشديدة من المطر. منكراً: مندساً على وجهه. الصيقل: الذي يشحذ السيوف ويحلوها. أحنى: انحنى.

(٥٩) المصدر السابق، ص ٣٩٧ وما بعدها.

الكور: الرحل. المساد: الوساد. الميثة: حشية توضع تحت الرحل. العباب: الطويل التام. شفان: ريح وبرد. مرتكم: مجتمع. الأمل: الجبل من الرمل مسيرة يوم طولاً. البغر: =

كَانَ كُورِي وَمِيسَادِي وَمِثْرَتِي كَسَوْتُهَا أَسْفَعَ الْخَدَّيْنِ عَبَّابَا
الْجَاهُ قَطَرٌ وَشَفَّانٌ لَمُرْتَكَمٍ مِنْ الْأَمِيلِ عَلَيْهِ الْبَغْرُ إِكْثَابَا
وَبَاتَ فِي دَفٍّ أَرْطَاةٍ يَلُودُ بِهَا يَجْرِي الرَّبَابُ عَلَى مَتْنِيهِ تَسْكَابَا
تَجْلُو الْبَوَارِقُ عَنْ طَيَّانٍ مُضْطَمِرٍ تَخَالُهُ كَوْكَبًا فِي الْأَفْقِ ثَقَابَا

وقال ضابيء بن الحارث البرجمي (٦٠):

فَبَاتَ إِلَى أَرْطَاةٍ حَقَفَ تَلْفُهُ شَامِيَةً تُذْزِي الْجُحَانَ الْمَفْصَلَا
يَوَائِلُ مِنْ وَطْفَاءٍ لَمْ يَرِ لَيْلَةً أَشَدَّ أَدَى مِنْهَا عَلَيْهِ وَأَطْوَلَا
وَبَاتَ وَبَاتَ السَّارِيَاتُ يُضِفْنَهُ إِلَى نَعِجٍ مِنْ ضَائِنِ الرَّمْلِ أَهْيَلَا
شَدِيدَ سَوَادِ الْحَاجِبِينَ كَانَمَا أَسْفَ صَلَى نَارِفًا صَبَحَ أَكْحَلَا

وتحفل قصة الثور الوحشي برموز كثيرة لها علاقة بقدسية الثور، وقدرته على صنع المطر، وإخصاب الأرض، وربما كانت هذه الرموز ترانيم طقوسية تتلى في معابد الإله «بعل» غير أن هذه الطقوس اندثرت باندثار ذلك الدين القديم. واحتفظ الشعر الجاهلي بإشارات قليلة تدل على شعائر كبيرة كانت تقام تمجيداً للثور، ولعل قصائد الرثاء في الشعر العربي تحمل جانباً من المعتقدات القديمة في الثور، فعندما يريد الشعراء ضرب المثل بحتمية الموت، وتَقْلُبُ الزَّمَنَ، وبَطْشُ الدَّهْرِ يَخْتَارُونَ «الثور» مثلاً لذلك. فعلى الرغم من إيمانهم بقدرات الثور الخارقة، وقواه الجبارة، وقدسيته،

= الدفعة الشديدة من المطر. أكتئاباً: من الكئيب وهو الجمع والصب. طيان: جائع من الطوى. مضطمر: من الضمور.

(٦٠) ضابيء بن الحارث البرجمي، (جاهلي مخضرم)، الأصمعيات، تحقيق: عبد السلام هارون، وأحمد محمد شاكر، طبعة دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٦م، ص ١٨٢.

يوائيل: يحاذر ويلتمس الملجأ ويطلب النجاة. الوطفاء: السحابة التي فيها استرخاء لكثرة الماء. الساريات: السحب التي تسري ليلاً. نعج: أبيض خالص البياض. ضائن الرمل: الرمل العريض. الأهيل: الذي لا يثبت. صلى: اسم للوقود. أسفه: ذر عليه.

يغلبه الموت ويصرعه ، ويتركه لَقَىَّ لِلْفَنَاءِ(٦١) .

وفي معارك الثور الدامية يلازمه الكلب في جميع الجولات ملازمته لأصحاب الرِّقَم ، ولا شكَّ أنهم اصطادوا الثيران بالقِسي والسَّهام والخِيول والمُخاتلة ، لكنَّ اختيار الكلب في قصة الثور الوحشي - والتي لها ما يماثلها في نجوم السماء - إشارةً إلى أساطير قديمة ومعتقدات اندثرت وسقطت من ذاكرة الزَّمن .

والثور دائماً يُعالج الظُّلْمة ، ويبحثُ عن الشمس ، والشمس في المعتقد الجاهلي هي الإلهة الأم التي عبدها العرب وأقاموا لها الهياكل والمعابد ، والثور (القمر) هو الإله الأكبر أو الإله الأب(٦٢) .

وقد نرى في بحث الثور عن الشمس وترقُّبه لها إشارةً إلى المعتقد القديم ، وتجسيدا لمفهوم الجاهليين لطبيعة هذين الإلهين : الذكورة والأنوثة ، وبحث كل منها عن الآخر، لذلك كان بزوغ الشمس أمراً محتوماً في قصة ثور الوحش .

ويتصف الثور في الشعر الجاهلي بالجلال والحكمة والجمال والهيَج ، ومعظم الشعراء يُؤكِّدون هذه المزايا فيه ، وهي أقرب ما تكون إلى صفات الآلهة القديمة منها إلى صفات البشر .

وقد يرى الإنسان القديم في معبوده نقائص الإنسان ، وعيوبه ، ومجتمع الآلهة - كما يراه الإنسان القديم - لا يختلف عن مجتمع البشر ، فالمعبود قد يغضب وقد يُخدَع ، وقد يحب ، وقد يكره . . لذلك كان الثور يتصف بصفات مجتمع البشر ، فقد وصفه الشعراء بالجرأة ، والغضب ، والحنق ، واليأس ، والجوع ، والتعب ، والثبات ، والوهل ، والشجاعة ، والهرب ، والعبوس ، ورسموا صوراً له واجسه ووساوسه وتذكَّره وكرامته ، وشهامته ، وبعد أن ينتصر في المعركة التفتوا إلى علامات البشر والرُّضى

(٦١) انظر رأي الجاحظ في ذلك ، الحيوان ، (سبق ذكره) ، ج ٢ ص ٢٠ .

(٦٢) ديتلف نيلسن ، التاريخ العربي القديم ، (سبق ذكره) ، ص ٢٠٧ وما بعدها .

والانتصار والفرح والزَّهو، التي تغمر كيانه، لذلك كان ينطلق على الإكام مشرقاً
جذلاً محبوراً.

ويمكن أن نلاحظ النار التي أوقدت في عراقيب البقر عند الاستسقاء في أوصاف
الشعراء للثور، وكثيراً ما يشير ون إلى «النار» عندما يصفون ثور الوحش:

فالثور يأخذ شكل النار في تصور امرئ القيس كـ «جذوة مقبس»^(٦٣)، وهو
حداد ينفخ في الفحم عند النابغة الذبياني^(٦٤)، وكأنها أسفٌ صلى نار عند ضابئ
البرجمي^(٦٥)، ويلوح في عتمة الليل والبرق يظهره (كما رفع المنير بكفه لهبا)^(٦٦)،
والكلاب تلمع في عراقيب الثور كالفتيلة الموقدة، قال لبيد بن ربيعة^(٦٧):

فَجَالَ ولم يعكم لغُضْفٍ كأنها دِقَاقُ الشَّعِيلِ يَتَدَرْنَ الجَعَائِلَا
وبيت الثور تحت غصون الأرضى، والنار تنقذ حوله، كأنه الصيقل الذي
يشحذ السيوف فيتطاير منها الشرر^(٦٨)، أو كأنه نصل السيف الذي يشتعل متنه
ضوءاً^(٦٩).

ولا شك أن هذه التشبيهات في قصة ثور الوحش قد تبدو ملاحظات فردية دقيقة
لمنظر البرق المتقد المتقطع الذي يخيف الثور ويهيج، لكن هذه الإشارات لا يمكن
فهمها فهماً رشيدياً بمعزل عن الرؤيا الدينية الجاهلية التي شكلت هذا الشعر؛ لأن
الجاهلي كان يمارس طقوس الاستسقاء بعنصرين أساسيين هما: البقر والنار، لذلك

(٦٣) امرؤ القيس، الديوان، (سبق ذكره)، ص ١٠٢.

(٦٤) النابغة الذبياني، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٦٥.

(٦٥) الأصمعيات، (سبق ذكرها)، ص ١٨٣.

(٦٦) أوس بن حجر، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٣.

(٦٧) لبيد بن ربيعة، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٢٤٠.

(٦٨) الأعشى الكبير، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٣١٥.

(٦٩) لبيد بن ربيعة، الديوان، ص ٣٣٥.

جاءت صورة النارمتصلة بصورة الثور.

ونلاحظ في قصة ثور الوحش ضروباً من تكرار قوالب فنية لغوية محددة، نحس من خلالها أنَّ الشعراء جميعاً ينهلون من معين واحد، يسيطر عليهم سحر كلمات محددة ورثوها من تراث الأمة، ومن رواسب مظلمة في أعماقهم أو ما يمكن أن يُدعى بـ «النماذج العليا» التي بنى عليها «كارل يونج» نظريته. ولا شك أنَّ الممارسات الطقوسية والسحرية تظل في ضمير الأمة تراثاً حياً مهما امتدَّ الزمن، والشعر الجاهلي لم يكن بعيداً عن العفوية والفطرية، ذلك لأن طبيعة العصر الجاهلي كانت طبيعة شعرية بصفة عامة تسيطر عليه القوة الميتافيزيقية التي تتحكم في صياغة الكلمات؛ لذلك كان التكرار اللفظي والأسلوبي معلّم أساسي من معالم الشعر الجاهلي؛ لأن الشعراء جميعاً ينهلون من التراث العربي المجهول المليء بالسحر والخرافة والتعاويد والأساطير..

وفي قصة ثور الوحش نلاحظ تكرار الفعل «بات» عند كثير من الشعراء، وهذا التكرار يكون اصطلاحاً نحتاج فيه ربط المجاز أو الرمز أو العلامة بأسطورة مجهولة المعالم^(٧٠)، ولننظر في الفعل «بات» في قولهم:

- وباتَ إلى أرطاةٍ حَقَفَ كأنَّها إذا التَّقَتْهَا غَبِيَّةٌ بَيْتٌ مُعْرِسٍ^(٧١)
- وباتَ في دَفٍّ أرطاةٍ يلوذُ بها يجري الرِّباب على مَتْنِهِ تَسْكَاباً^(٧٢)
- فباتَ إلى أرطاةٍ حَقَفَ تلفه شامية تذري الجمان المفصلاً^(٧٣)
- فباتَ إلى أرطاةٍ حَقَفَ تَضُمُّه شاميةٌ تُزْجِي الرِّباب الهَواطِلاً^(٧٤)

(٧٠) أحمد كمال زكي، التفسير الأسطوري للشعر القديم، مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الثالث، إبريل، ١٩٨١، ص ١١٥ وما بعدها.

(٧١) امرؤ القيس بن حجر، (ت ٥٤٠م)، الديوان، ص ١٠٢.

(٧٢) الأعشى الكبير، ميمون بن قيس، (ت ٦٢٤م)، الديوان، ص ٣٩٧.

(٧٣) صابئ بن الحارث البرجي، الأصمعيات، ص ١٨٢.

(٧٤) لبيد بن ربيعة العامري، (ت ٦٦٥م و ٦٦٩م)، الديوان، ص ٢٣٩.

- فَبَاتَ فِي حِقْفٍ أَرْطَاةٍ يَلُوذُ بِهَا
- بَاتَ بِحِقْفٍ مِنَ الْبَقَارِ يَحْفِزُهُ
- فَبَاتَ كَأَنَّهُ قَاضِي نُدُورٍ
- فَبَاتَ كَأَنَّهُ قَاضِي نُدُورٍ
- بَاتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَةٌ رَجَبِيَّةٌ
- فَبَاتَتْ عَلَيْهِ رَجَبِيَّةٌ
- بَاتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَةٌ لَثِقُ
- فَبَاتَ يَقُولُ: أَصْبَحَ لَيْلٌ، حَتَّى
= بَاتَ يَقُولُ بِالكَثِيبِ مِنَ الْ
- كَأَنَّهُ فِي ذُرَاهَا كَوْكَبٌ يَقْدُ (٧٥)
إِذَا اسْتَكْفَفَ قَلِيلًا تُرْبَهُ انْهَدَمَا (٧٦)
شَرَى لِلَّهِ يَنْتَظِرُ الصَّبَاحَا (٧٧)
يَلُوذُ بِغَرْقٍ خَضِلٍ وَضَالٍ (٧٨)
نَضْبًا تَسْحُ الْمَاءُ أَوْهِيَ أَبْرَدُ (٧٩)
تُكْفِئُهُ رِيحٌ خَرِيقٌ وَتُمْطَرُ (٨٠)
أَوَّلَهَا شَنَانَةٌ وَمَطَرُ (٨١)
تَجَلَّى عَنْ صَرِيْمَتِهِ الظَّلَام (٨٢)
غَبِيَّةٌ: أَصْبَحَ لَيْلٌ، لَوْ يَفْعَلُ (٨٣)

إنَّ ضروب التكرار السابقة من قبيل التكرار اللفظي والأسلوبي الذي يستند إلى قيمة بلاغية، بل إن هذا التكرار رمزٌ ثابت في الأعماق المظلمة للشاعر الجاهلي الذي يؤمن بسحر الكلمات التي بقيت حيةً في ضمير الأمة بنضارتها وفطرتها، فالثور «القمر» مُستقره الليل؛ لذلك نلاحظ بوضوح أنَّ «نزول المطر» لا يكون إلا ليلاً، وعندما تأتي

(٧٥) بشر بن أبي خازم الأسدي، (ت ٥٩٠م)، الديوان، ص ٥٥.

(٧٦) النابغة الذبياني، (ت ٦٠٤م)، الديوان، ص ٦٥.

(٧٧) النابغة الذبياني، (ت ٦٠٤م)، الديوان، ص ٢١٥.

(٧٨) لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، ص ٧٦.

(٧٩) عبيد بن الأبرص، (ت ٦٠٠م)، الديوان، ص ٨٢.

(٨٠) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، ص ٨٢.

(٨١) طرفة بن العبد البكري، الديوان، ص ١٨٥.

(٨٢) بشر بن أبي خازم، الديوان، ص ٢٠٤.

(٨٣) الأعشى الكبير، الديوان، ص ٣١٥.

«الشمس» يتوقف سقوط المطر، ويبحث الثور عن النور، واشتياقه للشمس، وترقبه لها إشارة إلى المعتقد القديم، وتجسيدا لمفهوم الجاهليين لطبيعة هذين الإلهين: الذكورة والأنوثة؛ لذلك كان بزوغ الشمس في قصة ثور الوحش أمراً محتوماً، ولذلك أيضاً كان بيّات الثور واستقراره في أعماق الظلمة لازمة ضرورية في الشعر الجاهلي. وقرنا الثور يرمزان إلى «الهلال»؛ لذلك يُبرِّز الشعراء قرون الثيران دون باقي أعضائها بروزاً واضحاً، ويجعلون الثور مُكبّاً على روقه، يتطهّر بماء المطر، ويستقبل المطر بهما:

- مُوَلِّي الرِّيح رَوَّقِيهِ وَجَبَّهَتَهُ كَالْهَبْرَقِيِّ تَنَحَّى يَنْفُخُ الْفَحْمَا^(٨٤)
- مُوَلِّي الرِّيح رَوَّقِيهِ وَجَبَّهَتَهُ حَتَّى دَنَا مِرْزَمُ الْجَوْزَاءِ أَوْ خَفَقَا^(٨٥)
- مَكْبّاً عَلَى رَوَّقِيهِ يَحْفَرُ عِرْقَهَا عَلَى ظَهْرِ عُرْيَانِ الطَّرِيقَةِ أَهْيَا^(٨٦)
- وَبَاتَ مَكْبّاً يَتَقِيهَا بِرَوَّقِهِ وَأَرْطَاةَ حِقْفٍ خَانَهَا النَّبْتُ يَحْفَرُ^(٨٧)
- إِذَا وَكَفَ الْغُصُونُ عَلَى قَرَاه أَدَارَ الرُّوْقَ حَالاً بَعْدَ حَالٍ^(٨٨)

والفعل «تَضَيَّفَ» يتكرّر في قصة ثور الوحش تكراراً يستوعب معتقد الجاهليين في الثور وماله من قدسية وحرمة، وما يرمز إليه من قدرة على الإخصاب. . فعندما يستدعي الثور المطر يُلجئه إلى استضافة شيئين:

الرَّمْلَةُ الْعَقِيمُ الَّتِي تَشْتَاكُ إِلَى الْمَطْرَكِيِّ تَلْقَحُ وَتَخْصِبُ.

وشجرة الأَرطَاة - غالباً - وهي دائماً «أَرطَاة حِقْفٍ» لا ماء حولها ولا غدِير، وقد يلفتنا الثور إلى نتاج المطر في الكَثِيبِ وَالْحِقْفِ.

(٨٤) النابغة الذبياني، الديوان، ص ٦٥.

(٨٥) زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص ٤٢.

(٨٦) الأعشى الكبير، الديوان، ص ٣٣١.

(٨٧) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، ص ٨٢.

(٨٨) لبید بن ربیعة العامري، الديوان، ص ٧٧.

والضَّيْف - في المعتقد العربي القديم - له حُرْمَةٌ لا تُهان ولا تُتَنَدَّل، وحُرْمَةُ الثور جاءت من دوره في الإرواء والإخصاب؛ لذلك تَكَرَّرَ الفعل «تَضَيَّفَ» في أشعارهم:

- طَاوٍ بِرَمْلَةٍ أَوْزَالَ تَضَيَّفَهُ إِلَى الْكِنَاسِ عَشِيٍّ بَارِدٌ صَرِدٌ^(٨٩)
- تَضَيَّفَهُ إِلَى أَرْطَاةٍ حَقَفِ بِجَنْبِ سُوَيْقَةٍ رَهْمٌ وَرِيحٌ^(٩٠)
- أَضَلَّ صَوَارَهُ وَتَضَيَّفَتْهُ نَطُوفُ أَمْرُهَا بِيَدِ الشَّيْءِ^(٩١)
- تَضَيَّفَ رَمْلَةُ الْبَقَّارِ يَوْمًا فَبَاتَ بِتِلْكَ يَضْرِبُهُ الْجَلِيدُ^(٩٢)
- كَأَنَّهُ طَاوٍ تَضَيَّفَهُ ضَرْبُ قَطَارٍ تَحْتَهُ شَمَالٌ^(٩٣)
- أَوْ فَرِيدٍ طَاوٍ تَضَيَّفَ أَرْطَاةً يَبِيتُ فِي دَفِّهَا وَيُضَاقُ^(٩٤)
- وَبَاتَ وَبَاتَ السَّارِيَاتُ يُضِيفُنَهُ إِلَى نَعِيجٍ مِنْ ضَائِنِ الرَّمْلِ أَهْيَلًا^(٩٥)

(٨٩) بشر بن أبي خازم الأسدي، الديوان، ص ٥٥.

(٩٠) المصدر السابق، ص ٥١.

(٩١) لبید بن ربیعۃ، الديوان، ص ٧٦.

(٩٢) الأعشى الكبير، الديوان، ص ٣٦١.

(٩٣) المصدر السابق، ص ٣١٥.

(٩٤) المصدر السابق، ص ٢٤٩.

(٩٥) ضابيء بن الحارث البرجي، الأصمعيات، ص ١٨٢.

الفصل الخامس

مواقع وزوايا المطر في السعة الجاهلي

المطر والمرأة - المطر والضيفان - المطر والجيش

المطر والناقة - المطر والفرس - المطر وحمار الوحش

المطر والظليم - المطر والأوابد الأخرى - موضع المطر الأساسي

المطر والمرأة

إنَّ «فكرة المطر» في الوقفة الطللية هي ما يشغل عقل الشاعر الجاهلي عندما يتذكر المحبوبة . . لأنَّ المرأة والمطر شيَّان متَّصلان متَّحدان في ضميره . فقد كان الشاعر يبكي الطَّل أو يبكي رحيل المرأة وانحباس المطر . لذلك كانت وقفة الشاعر الجاهلي أمام الطَّل وقفة تأمُّل في سرِّ المرأة الراحلة وفي سرِّ المطر، ومن أجل ذلك أيضاً بكى وشكى ، ووقف واستوقف ، ودعا ورجا ، ونَدَبَ وتَعَذَّب .

والمرأة الراحلة يدعون لديارها بالسُّقيا؛ لأنَّ أطلالها التي انطمست واندثرت وماتت يريدون لها الحياة والرَّحمة والتَّطهير والبُعْث ، ويمكن أن يكون الدُّعاء بسقيا الأطلال والقبور بقايا تراث ديني قديم كان أصلاً طَقْساً سحرياً يمارس على عظام الموتى التي استخدمها العرب في استدعاء المطر(*) ، ومن ثمَّ ارتبط نزول المطر بالأرض الخراب والمرأة الراحلة .

وتأتي في الشعر الجاهلي صور كثيرة تربط بين الثَّغر العَذْب وفكرة المطر، يتحول معها ثغر الحبيبة الباسم إلى نَبْعٍ للخير المطلق ومصدرٍ لماء الحياة، نحسُّ من خلاله أنَّ الشاعر الجاهلي لم يكن يتغزَّل وإنما كان يُعَبِّرُ عن رغبته في استقبال المطر .

(١) عبيد بن الأبرص، (ت ٦٠٠م)، الديوان، تحقيق د. حسين نصار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٥٧م، ص ٢٩ - ٣٠ .

المشعشة: المخلوطة بماء السحاب . القديح: أخذ منها بالقَدَح .

(*) انظر تفصيل ذلك في بحث: «الاستسقاء في الشعر الجاهلي» للمؤلف، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، العدد الأول، جامعة مؤتة، ١٩٨٦ .

المرأة تمنح المطر من ثغرها أو هي تمنح من مقبلها خصب الحياة ونماءها، ورحيلها يعني القحط والمحل، والشاعر يريد هذا المطر، لذلك كان دائماً رُضاب المرأة مطراً صافياً بارداً.

وكثيراً ما يمزج الشعراء رُضاب المرأة بالخمير المعتق أو العسل المصفى، أو بعبارة أخرى، بالنشوة الروحية، ورحيق الحياة، وهذا التلازم مُتَكَرِّرٌ في الشعر الجاهلي.

إِذَا ذُقْتُ فَاهَا قُلْتُ طَعْمَ مُدَامَةٍ مُشْعَشَعَةٍ تُرْخِي الْإِزَارَ قَدِيحُ
بِهَاءِ سَحَابٍ مِنْ أَبَارِيْقِ فَضَّةٍ لَهَا ثَمَنٌ فِي الْبَائِعِينَ رَبِيحُ

وقال امرؤ القيس (٢):

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوَّبَ الْغَمَامِ وَرِيحَ الْخُزَامَى وَنَشَرَ الْقُطْرُ
يَعْلُ بِهِ بَرْدٌ أَنْيَابَهَا إِذَا طَرَبَ الطَّائِرُ الْمُسْتَجِرُ

وقال بشر بن أبي خازم (٣):

كَأَنَّ مُدَامَةً مِنْ أَذْرُعَاتِ كُمَيْتًا، لَوْنُهَا لَوْنُ الرُّعَافِ
عَلَى أَنْيَابِهَا بَغْرِضٌ مُزْنٍ أَحَالَتْهُ السَّحَابَةُ فِي الرُّصَافِ

وقال مالك بن حريم الهمداني (٤):

(٢) امرؤ القيس بن حجر الكندي (ت ٥٤٠م)، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م، ص ١٥٧.

القُطْرُ: العود الذي يتبخربه. يعل به: يسقي به، وهو الشرب الثاني بعد النهل. المُسْتَجِرُ: المصوت بالسَّخَرِ

(٣) بشر بن أبي خازم الأسدي (ت ٥٩٠م)، الديوان، تحقيق: د. عزة حسن، طبعة دمشق، ١٩٦٠م، ص ١٤٣.

الرُّعَاف: الدَّم الذي يسبق من الأنف. الغريض: الطَّيْر من اللَّحْم والماء واللَّيْن والتمر. الرُّصَاف: جمع الرصف: وهو الماء الذي ينحدر من الجبال على الصخر فيصفو.

(٤) مالك بن حريم الهمداني، الأصمعيات، تحقيق: أحمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار =

كَأَنَّ جَنَى الْكَافُورِ وَالْمَسْكِ خَالِصاً وَبَرَدَ النَّدى وَالْأَقْحَوَانَ الْمُنَزَّعَا
وَقَلَّتْ أَقَرَّتْ فِيهِ السَّحَابَةُ مَاءَهَا بِأَنْبِيَاهَا، وَالْفَارِسِيَّ الْمُشْعَشَعَا
وقال حسان بن ثابت (٥):

تَبَلَّتْ فَوَادِكُ فِي الْمَنَامِ خَرِيدَةً تَشْفِي الضَّجِيعَ بِبَارِدِ بَسَامِ
كَالْمِسْكِ تَحْلُطُهُ بِهَاءِ سَحَابَةٍ أَوْ عَاتِقِي كَدَمِ الدَّبِيحِ مُدَامِ
ويختار الشعراء لثغر المحبوبة العذب رائحة أزهار البادية التي رَشَّهَا النَّدى وَالرَّذَاذُ
الْخَفِيفُ فَتَتَضَوَّعُ شَذَى وَعَطْرًا.

فَثَغَرَ الْمَحْبُوبَةُ سُقْيَ بِرِيحِ الْخُزَامَى وَنَشَرَ الْبُخُورِ (٦) وَخَالَطَهُ الْكَافُورُ وَالْمَسْكُ
وَالْأَقْحَوَانِ (٧) وَكَأَنَّمَا شَيَّبَ بِالْحَوْذَانِ الَّذِي رُشَّ بِالْمَطَرِ (٨) أَوْ مُزِجَ بِالْأَقْحَوَانِ وَالْحَنُوءِ وَالْفَغْوِ
وَالْخُزَامَى كَمَا يَقُولُ الْحَارِثُ بْنُ صَرِيمٍ الْأَصْغَرِ (٩):

وَمَا نَفَحَ رَوْضِ ذِي أَقْحَاحٍ وَحَنُوءٍ وَذِي وَرَقٍ مِنْ قُلَّةِ الْحَزَنِ عَازِبِ
وَلَا رِيحُ فَغْوٍ أَوْ خُزَامَى وَحَنُوءٍ أَرَشَّتْ عَلَيْهَا سَارِيَاتُ السَّحَابِ

-
- = المعارف بمصر، ١٩٧٦م، ص ٦٣. وشعرهمدان وأخبارها، جمع: د. حسن أبوياسين، دار
العلوم، الرياض، ١٩٨٣م، ص ٢٩٣.
الْقَلَّتْ: النُّقْرَةُ فِي الصَّخْرِ تَمْسُكُ الْمَاءَ. قَرَّتْ: جَمَعَتْ. الْفَارِسِيَّ: الشَّرَابُ الْفَارِسِيَّ.
الْمُشْعَشَعُ: الْمَمْزُوجُ بِالْمَاءِ.
(٥) حسان بن ثابت الأنصاري، (ت ٥٤هـ)، الديوان، تحقيق: د. سيد حنفي، طبعة الهيئة
المصرية العامة، ١٩٧٤م، ص ١٠٧.
(٦) امرؤ القيس بن حجر، الديوان، ص ١٥٧.
(٧) مالك بن حريم الهمداني، الأصمعيات، ص ٦٣.
(٨) قيس بن الخطيم، (ت ٦١٢م)، الديوان، تحقيق: د. ناصر الدين الأسد، دار صادر،
بيروت، ١٩٦٢م، ص ٦٧.
(٩) الحارث بن صريم الأصغر، شعرهمدان وأخبارها، تحقيق: د. حسن أبوياسين، طبعة دار
العلوم، الرياض، ١٩٨٣م، ص ٢٤٨.

بأطيب من فيها إذا ما تقلّبت مع الليل وسنى جانباً بعد جانب
وعندما يقرن الشعراء المرأة بالروضة التي جاد عليها المطر الهطال يجعلون المرأة
أطيب رائحة وأذكى عطراً وأنفع نشراً.

قال عنتر بن شداد العبسي (١٠):

وكان فارة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها إليك من الفم
أوروضة أنفاً تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليها كل عين ثرة فتركن كل حديقة كالدّرهم
سحاً وتسكاباً فكل عشية غرداً كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحك ذراعَه بذراعِهِ قدح المكب على الزناد الأجذم

رُضاب المرأة العذب تحوّل إلى غيث جاد على روضة نديّة طيبة النشْر، فتحوّل
قحل الطبيعة غني (كل حديقة كالدّرهم) وشاركت الحشرات الإنسان في نشوته
وطربه فترنمت ثملة، وأكبت كما الإنسان الذي يقدح النار من الزناد يستدعي بذلك
المطر.

واستخدام النار في طقوس الاستمطار مذهب معروف في الفكر الميثوبي
الجاهلي (١١). إن ريق المرأة ثانوي في هذه الصّور المبتكرة، لأن ريق المرأة يعني دفء

= الحنوة: نبات طيب الرائحة. القلة: أعلى الجبل. الحزن: ما غلظ من الأرض. العازب:
الكأ الذي لم يُرع من قبل. الفغو: نور طيب الرائحة. الحزامي: نبت طيب الرائحة أيضاً.
الوسن: أول النوم.

(١٠) عنتر بن شداد العبسي (ت ٦١٤م)، الديوان، تحقيق: محمد سعيد مولوي، طبعة المكتب
الإسلامي، دمشق، ١٩٧٠، ص ١٤٥.

الفارة: وعاء المسك. التاجر: العطار. القسيمة: الجونة أو العير التي تحمل المسك.
العوارض: منابت الأضراس.

الأنف: التي لم تُرع. الدمن: قليل اللبث. المعلم: المشهور. الثرة: الكثيرة. لم يتصرم: لم =

الحياة واستمرارها، ويعني الاستقرار في المكان والارتباط بالوطن، وهو معادل للمطر الذي يُؤدِّي انحباسه إلى الشُّتات والهجرة والضياع والجوع وموت العاطفة.

واستخدم شعراء الجاهلية رُضَاب المرأة مُعادلاً موضوعياً لفكرة المطر التي يشتاقون إليها، ويستخدمون وصف الريق وسيلة للتعبير عن الرغبة في استقبال المطر بحيث تختفي المرأة ويبرز المطر، أو تتحول المرأة إلى سحابة ثرة سجمة منجبة للخصب والخير والصفاء..

قال الحادرة، قطبة بن أوس بن محصن^(١٢):

بَكَرَتْ سُمِيَّةُ بُكْرَةً فَتَمَتَّعَ	وَعَدَتْ غُدُوَّ مُفَارِقٍ لَمْ يَرْبِعْ
وَتَزَوَّدَتْ عَيْنِي غَدَاةَ لَقِيَّتْهَا	بَلَوَى الْبُنَيْنَةَ نَظْرَةً لَمْ تُقْلِعْ
وَتَصَدَّفْتُ حَتَّى اسْتَبْتُكَ بَوَاضِحٍ	صَلَّتْ كُمُنْتَصِبِ الْغَزَالِ الْأَتْلَعِ
وَبِمَقْلَقِي حَوْرَاءَ تَحْسِبُ طَرْفَهَا	وَسَنَانَ، حَرَّةَ مُسْتَهْلٍ الْأَدْمَعِ
وَإِذَا تَنَازَعَكَ الْحَدِيثُ رَأَيْتَهَا	حَسَنًا تَبْسُئُهَا لَذِيذَ الْمُكَرَعِ
بَغْرِضٍ سَارِيَةٍ أَدْرَتْهُ الصَّبَا	مِنْ مَاءِ أَسْجَرٍ طَيِّبِ الْمُسْتَنْقَعِ

= ينقطع ولم ينفذ. الأجذم: المقطوع اليد.

(١١) الميثوبي: صانع الأساطير، مشتق من الميثولوجيا. انظر بحثي المشار إليه سابقاً «الاستسقاء في الشعر الجاهلي».

(١٢) الحادرة، قطبة بن أوس بن محصن الغطفاني، الديوان، تحقيق: د. ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣، ص ٤٦ - ٥٠. والمفضليات ص ٤٣ - ٤٥.

تَصَدَّفْتُ: أَعْرَضْتُ وَانْحَرَفْتُ. اسْتَبْتُكَ: صَيَّرْتُكَ سَبِيًّا لَهَا. الْوَاضِحُ: النَّاصِعُ الْبَيَاضُ يَعْنِي عَنَقَهَا. الصَّلَّتْ: الْمَشْرُقُ الْجَمِيلُ. الْأَتْلَعُ: الطَّوِيلُ الْعِنَقُ. وَسَنَانٌ: بِه سِنَّةٌ وَهِيَ النَّعَاسُ. الْمُسْتَهْلُ: مَجْرَى الدَّمْعِ. الْغَرِيضُ: الطَّيْرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. السَّارِيَةُ: السَّحَابَةُ تَسْرِي لَيْلًا. أَدْرَتْهُ: اسْتَخْرَجَتْهُ كَمَا يَسْتَخْرِجُ الْحَالِبُ اللَّبْنَ. الْمَاءُ الْأَسْجَرُ: الَّذِي لَمْ يَصْفَ تَمَامًا. الْبَطَاحُ: بَطُونُ الْأَوْدِيَةِ. الْحَرِيصَةُ: الْمَطَرَةُ الَّتِي تَحْرُسُ وَجْهَ الْأَرْضِ أَيْ: تَقْشُرُهُ. النَّطَاقُ: الْمِيَاهُ. الْغَلَّلُ: الْمَاءُ يَجْرِي فِي أَصُولِ الشَّجَرِ.

ظَلَمَ الْبِطَاحَ لَهُ انْهْلَالُ حَرِيصَةٍ فَصَفَا النُّطَافُ لَهُ بُعِيدَ الْمُقْلَعِ
لَعِبَ السَّيُولُ بِهِ فَأَصْبَحَ مَأْوُهُ غَلَلًا تَقْطَعُ فِي أَصُولِ الْخِرْوَعِ
أُسْمِيَّ وَبِحَاكِ هَلْ سَمِعْتَ بَغْدَرَةَ رُفِعَ الْلَوَاءُ لَنَا بِهَا فِي تَجْمَعِ ..
ثَغَرَ الْمَرْأَةَ نَبْعُ لِمَاءِ الْحَيَاةِ أَوْ مَصْدَرُ الْمَطَرِ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَلْحِظَ فِي الْمَطَرِ الْعُذْرِيَّةَ
وَالْبُكُورَةَ وَالنَّقَاءَ وَالطُّهْرَ، وَهِيَ نَفْسُهَا صِفَاتُ سَمِيَّةِ (الْحُرَّةِ)، أَوْ قُلْ: إِنَّ رَحِيلَ سَمِيَّةَ
يَعْنِي رَحِيلَ الْمَطَرِ، وَقُرْبَاهَا يَعْنِي الْخَيْرَ وَالْخَصْبَ وَدَفْقَ مَاءِ الْحَيَاةِ.

المطر والضيفان

ويأتي وصف المطر في معرض الحديث عن قري الضيفان وطراق الليل والعُفَاة
الملهوفين والجياح المقرورين مِمَّنْ قَذَفَتْ بِهِمُ الصُّحْرَاءُ فِي فَمِ الْمَوْتِ .

ويختار الشعراء وقتاً معيناً تجوّد فيه النفوس السَّمْحَةُ بما تملك عندما تَشُحُّ الألبان
وَيُصَوِّحُ الْبَقْلُ وَيَعُمُّ الْجَذْبُ وتهب الرياح العجفاء والصقيع الجاف أو عندما تَنشُ
الغدران، ويتحسّر ورق الطَّلح .

ويضيّق الشعراء الدائرة، ويختارون وقتاً من أيام السَّنة الشَّهَاء وهي تلك الليلة
الليلاء، ذات الرياح العاصف والصقيع الحاصب والتي تُلجىء الأشوال إلى كنيفها
تلوّد من سَفْع رِيح الشَّمال . وقد يعرضون لمنظر الضيف الجائع المقرور أو طالب
المعروف الملهوف الذي تَبَلُّهُ السماء فتزداد حاله سوءاً .

ويتكرر في هذا الموضع الحديث عن : رِيح الشَّمال الحَرَجَف، والثَّلج، ورش
المطر، والصُّرَاد، والمُزَن، والسحاب ذي الهيدب، والشَّفَان، والرَّيح النكباء
العاصفة، ونَوء المطر، والبرَد، والرَّيَّاح الشَّامِيَّة ذات البروق . وغالباً ما يكون المطر
عقياً عاصفاً صرصراً . . تَشْلُهُ رِيحُ الشَّمال الباردة وتقذِفُ معه البرَد والثَّلج والحَصْبَاء
والسَّفَى . . فتتحول الصحراء إلى جماد .

قال المثقب العبدى (١٣) :

(١٣) المثقب العبدى، عائذ بن محسن، (ت ٥٨٧م)، الديوان، تحقيق: حسن كامل الصيرفي،
طبعة الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧١، ص ١١٧ .

وسارِ تَعَنَّاهُ المَبِيتُ فلمْ يَدْعُ
 رأى ضَوْءَ نارٍ من بعيد فخالها
 رفعتُ له بالكفِّ ناراً تشبُّها
 فلما أتاني والسماء تبُّله
 وقال عنتره (١٤) :

إذا الرِّيحُ جاءتْ بالجهام تشلُّه
 وأعقب نوءُ المُذْبِرِينَ بغبرة
 تفي حاجة الأضياف حتى يُريحها
 وقال طرفه بن العبد (١٥) :

إنَّا إذا ما الغيمُ أمسى كأنه
 وجاءت بضرادٍ كأنَّ صقيعه
 وجاء قريعُ الشُّولِ يرقصُ قبلها
 نَزْدُ العِشارِ المُنْقِيَاتِ شَطِئُها
 وقال المسيب بن علس (١٦) :

= الساري : السائر عامة الليل . تعناه : تجشمه وأنصبه وأعياه .

(١٤) عنتره بن شداد العبسي ، (ت ٦١٤) ، الديوان ، (سبق ذكره) ، ص ٣٣٤ .

الجهام : السحاب لا ماء فيه . تشله : تسوقه . الهذليل : القطع المتفرقة . الإقلاص : الإبل الشابة . الطرائد : ما يطرد من الإبل عند الغارة .

(١٥) طرفه بن العبد ، عمرو بن عبد البكري ، الديوان ، تحقيق : درية الخطيب ، ولطفي الصقال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٧٥ ، ص ١٣٠ .

السماحيق : شحم رقيق على ثُرب الشاة ، الثُرب : الشحم الذي يغطي الأمعاء . حَرَجَف : شديدة . الكرشف : القطن . قريع الشول : فحل الإبل اللواقح . المتحرف : البعيد . العِشار المُنْقِيَات : النوق الحوامل السَّان . الشظية : عظم الساق .

(١٦) المسيب بن علس ، زهير بن مالك ، المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار =

وَإِذَا تَمِيحُ الرِّيحُ مِنْ صُرَادِهَا
أَحْلَلْتَ بَيْتَكَ بِالْجَمِيعِ وَبَعْضَهُمْ

وَقَالَ سَنَانُ بْنُ أَبِي حَارِثَةَ الْمُرِّي (١٧) :

وَقَدْ يَسَرْتُ إِذَا مَا الشُّوْلُ رَوَّحَهَا
ثُمَّتْ أَطْعَمْتُ زَادِي غَيْرَ مُدْخِرٍ

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ شَأْسِ الْأَسَدِيِّ (١٨) :

إِذَا الشُّوْلُ رَاحَتْ وَهِيَ حُذْبُ حَدَابِرٍ
رَأَيْتَ ذَوِي الْحَاجَاتِ يَتَّبِعُونَنَا

وَقَالَ أَيْضاً (١٩) :

وَإِنِّي لِأَعْطِي غَثَّهَا وَسَمِينَهَا
إِذَا التَّلَجُّ أَضْحَى فِي الدِّيارِ كَأَنَّهُ
حَذَاراً عَلَى مَا كَانَ قَدَمٌ وَالِدِي

ثَلَجاً يَنْيخُ النَّيْبَ بِالْجَعَجَاعِ
مُتَفَرِّقٌ لِحُلٍّ بِالْأَوْزَاعِ

بَرْدُ الْعَشِيِّ بِشَفَّانٍ وَصُرَادٍ
أَهْلُ الْمَحَلَّةِ مِنْ جَارٍ وَمِنْ جَادٍ

وَهَبْتُ شِمَالاً حَرَجَفًا تَحْفَرُ الْفَحْلَا
نُهْنٍ لَهُمْ فِي الْحُجْرَةِ الْمَالِ وَالرَّسَلَا

وَأَسْرِي إِذَا مَا اللَّيْلُ ذُو الظُّلْمَةِ آدَهَمَ
مَنَائِرُ مَلَحٍ فِي السُّهُولِ وَفِي الْأَكَمِ
إِذَا رَوَّحَتْهُمْ حَرَجَفٌ تَطْرُدُ الصَّرَمَ

المعارف بمصر، ١٩٥٢م، ص ٦٢.

الصُّرَادُ: رِيحٌ بَارِدَةٌ بَرَشَ مَطَرٌ. النَّيْبُ: النَّوْقُ الْمَسَانُ. الْجَعَجَاعُ: مَوْضِعُ الْبُرُوكِ. الْأَوْزَاعُ: الْمُتَفَرِّقُونَ.

(١٧) سَنَانُ بْنُ أَبِي حَارِثَةَ الْمُرِّي، الْمُفَضَّلِيَّاتُ، ص ٣٥٠.

يَسَرْتُ: كُنْتُ أَحَدَ الْأَيْسَارِ وَهُمْ الْمُتَقَامِرُونَ. الشُّوْلُ: الْإِبِلُ الَّتِي شَالَتْ أَلْبَانَهَا، أَيْ: ارْتَفَعَتْ وَجَفَّتْ بَعْدَ الْإِقْلَاحِ. الشَّفَّانُ وَالصُّرَادُ: رِيحٌ بَارِدَةٌ. الْجَادِي: الْمُجْتَدِي الَّذِي يَطْلُبُ الْجِدَّةَ أَيْ الْعَطِيَّةَ.

(١٨) عَمْرُو بْنُ شَأْسِ الْأَسَدِيِّ، شَعْرُهُ، جَمْعٌ وَتَحْقِيقٌ: يَحْيَى الْجَبُورِيُّ، طَبْعَةُ النَجْفِ الْأَشْرَفِ، ١٩٧٦م، ص ٤٦.

(١٩) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ، ص ٦٨.

مَنَائِرُ: جَمْعٌ مَنَارٍ وَهُوَ مَكَانُ الْإِنْتِثَارِ. الصَّرْمَةُ: الْقِطْعَةُ مِنَ الْإِبِلِ.

المطر والجيش

وترتبط صورة المطر بصورة الجيش الذي يهتز ويتحوّل إلى سيول جارفة تغمر الوديان والسفوح . والخيول في المعركة تنطلق كعارضٍ متفجّرٍ أو كسحابٍ دفعه الريح فاندفع يسحق كل شيء أمامه . أمّا السيوف فتتهاوى في عتمة المعركة كالبرد المنثور، أو كالمطر المنسكب، لكنّها لا تمطر بالخير والرحمة، بل تمطر العذاب والنقمة والدم الأحمر .

ودائماً نرى وجه الحرب العبوس في الشعر الجاهلي ناقةً لقحت الأسنة والرماح وحملت العداوة والبغضاء، وولدت الشؤم والموت ودرّت درّاً كريهاً: دم الجريمة .

وقد سموا الجيش الكثيف عارضاً وسحاباً، قال سلامة بن جندل (٢٠):

مَوْقُفُنَا فِي غَيْرِ دَارِ تَيْيَةٍ وَمُلْحَقُنَا بِالْعَارِضِ الْمُتَالِقِ (٢١)

وقال جساس بن نشبة التيمي (٢٢):

فَلَمَّا دَنَوْا صَلْنَا فَفَرَّقَ جَمْعَهُمْ سَحَابُنَا تَنَدَى أَسْرَتَهَا دَمَا (٢٣)

(٢٠) سلامة بن جندل التيمي، الديوان، تحقيق: فخر الدين قباوة، طبعة حلب، ١٩٦٩، ص ١٦٣ .

(٢١) تئية: مكث وتلبّث. متألّق، يبرق ويضيء. العارض: الجيش شبهه بالعارض من السحاب الذي يظّل السماء .

(٢٢) جساس بن نشبة التيمي، ديوان الحامسة لأبي تمام، تعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، طبعة القاهرة، ١٩٥٥، مج ١، ص ١٢٦ .

(٢٣) سحابتنا: جيشنا الذي يشبه السحابة. تندى: ترشح. الأسيرة: الأوساط والطرائق، يعني

وهذه التسمية من قبيل التفاؤل بالجيش فهو سحاب يمطر الموت الأحمر على الأعداء ويمطر الخير والرحمة والمغنم على فرسانه .

وصورة المطر من حيث هو مادة للحياة ومادة للموت ظاهرة في الحديث عن الجيش ؛ فالجيش مطر رحمة وهو أيضاً مطر نِقْمَة .

قال المخبل السعدي (٢٤) :

وإِنَّا أَنَاسٌ تَعْرِفُ الْخَيْلُ زَجَرَنَا إِذَا أَمْطَرَتْ سُحْبُ الصَّوَارِمِ بِالدَّمِ

وقال الحارث بن صريم الأصغر (٢٥) :

وَكُنَّا إِذَا مَا اسْتَمَطَرَ النَّاسُ رَعَدَنَا رَعَدْنَا فَأَمْطَرْنَا مُثَقَّفَةً سُمَرَا
نَجُودُ بِهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيمَةٍ لِأَعْدَائِنَا حَتَّى يُدِينُوا لَنَا قَسْرَا

وقال هلال بن رزين (٢٦) :

وَأَيَقَنْتِ الْقِبَائِلُ مِنْ جَنَابِ وَعَامِرٌ أَنْ سَيَمْنَعُهَا نَصِيرُ
أَجَادَتْ وَبَلَّ مُدْجِنَةٌ فَدَرَّتْ عَلَيْهِمْ صَوْبٌ سَارِيَةٍ دُرُورِ
فَوَلَّوْا تَحْتَ قِطْقِطِهَا سِرَاعاً تَكْبُهُمُ الْمُهَنْدَةُ الذُّكُورُ (٢٧)

وأستخدام المطر في موضع النِّقْمَة والعذاب والشر والهلاك والموت كثير في الشعر

بطون الأدوية .

(٢٤) المخبل السعدي ، شعربي تميم في العصر الجاهلي ، تحقيق : عبد الحميد المعيني ، طبعة نادي القصيم الأدبي ، ١٩٨٢ م ، ص ١٢٥ .

(٢٥) الحارث بن صريم الأصغر ، شعرهمدان وأخبارها ، تحقيق : د . حسن أبوياسين ، دار العلوم ، الرياض ، ١٩٨٣ م ، ص ٢٤٧ .

(٢٦) هلال بن رزين ، ديوان الحماسة ، (سبق ذكره) ، ج ١ ص ١٢٦ .

(٢٧) أجادت : أرسلت ، أي : أتت سحابة الجيش بمطر . الوَيْلُ : المطر الشديد القَطَر . المُدْجِنَةُ ، المظلمة . الصَّوْبُ : نزول المطر . السارية : السحابة التي تأتي ليلاً . الدُرُور : الكثيرة الدَّر . القِطْقِطُ : صغار البرَد . تَكْبُهُمُ : تصرعهم . المُهَنْدَةُ : السيوف .

الجاهلي على نحو ما جاء في القرآن الكريم (٢٨).

ويتكرر في الشعر الجاهلي تشبيه المحاربين بالسيول التي جاشت وطمت وأغرقت
وسحقت وأهلكت، أو بالمطر المنصب الذي يقلع كل شيء، أو السحاب الذي يطم
ويعم ويشمل الأعداء بالموت الزؤام.

قال عنتر بن شداد:

- إذا ما مشوا في السَّابِغَاتِ حَسْبَتْهُمُ سيولاً وقد جاشت بهنَّ الأباطِخُ (٢٩)
- فجاءوا عَارِضاً بَرْدًا وَجُنًّا حريقاً في غريفٍ ذي ضرام (٣٠)
- سَلي فزارة عن فعلي وقد نَفَرَتْ في جحفلٍ حافلٍ كالعارضِ الهَطْلِ (٣١)

وقال بشر بن أبي خازم (٣٢):

فلما رأونا بالنُّسارِ كَأَنَّنا نَشَاصُ الثُّرَيَّا هَيَّجَتْهَا جَنُوبُهَا .

وقال الجميع الأسدي (٣٣):

لَجِبِ إِذَا ابْتَدَرُوا قَنَابِلَهُ كَنَشَاصِ يَوْمِ الْمِرْزَمِ السَّجْمِ

(٢٨) انظر القرآن الكريم، الأعراف آية ٨٤، وهود آية ٨٢، والشعراء آية ١٧٣، والأنفال آية ٣٢،
والفرقان آية ٤٠.

(٢٩) عنتر بن شداد العبسي، (ت ٦١٤م)، الديوان، تحقيق: عبد المنعم شلبي، طبعة المكتبة
التجارية الكبرى، القاهرة، (دون تاريخ)، ص ٤٣.

(٣٠) المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٣١) المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٣٢) بشر بن أبي خازم الأسدي، (ت ٥٩٠م)، الديوان، (سبق ذكره)، ص ١٦.

(٣٣) الجميع الأسدي، منقذ بن الطماح بن قيس الأسدي، المفضليات، ص ٣٦٧.

اللَّجِبُ: ذو الأصوات لكثرته. القنابل: جماعة الفرسان. النشاص: ما ارتفع من السحاب.
المِرْزَمُ: نجم له نوء. السَّجْمُ: السائل.

وقال قيس بن الخطيم (٣٤) :

جاءت بنو الأوسِ عارضاً بَرْدًا تَحْلُبُهُ الرِّيحُ مُقْبِلاً حَلْبًا
أُرْعَنَ مثلَ الأتَيِّ أَعْقَبَهُ صَوْبُ مُلْتٍ يُسِيلُ الحَدَبَا

وقد يأتي التعبير في الشعر الجاهلي عن الموت بالماء، قال أوس بن حجر (٣٥) :

صَبَحْنَ بني عَبْسٍ وَأَفْنَاءَ عامِرٍ بِصَادِقَةٍ جَوْدٍ مِنَ المَاءِ وَالْدَمِّ

وقد نرى وَجْهًا لِلشَّبَّه بين الجيش الجَحْفَل الذي يسيل من الآكام على السفوح والوديان بالمطر المنصب أو بالسيل العاتي الذي يتدافع تدافعاً هائلاً رهيباً . . . لكن الشعراء لم يقصدوا هذه المشابهة الشكلية، ولا تمثيل الحركة في الزحف والتدافع، فقد كانوا أصدق حِسًّا وأقدر على تجسيم روح الماء . . . فالماء عنصر أساسي من عناصر الحياة، وعَدَّة الإنسان القديم أقوى من التراب والهواء والنار، والماء فيه القوة والتدمير . . . وهذا المعنى أراده الشعراء للجيش والمحاربين، ولا معنى لكثرة الجيش وتدافعه إذا لم يكمن فيه قوة الماء وتدميره.

(٣٤) قيس بن الخطيم، الديوان، تحقيق: د. ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٢م،

ص ١٧٦.

البرَد: الذي فيه بَرَد، أي جاء أولهم خفيفاً كسحابٍ فيه بَرَد. الأرعن: الجيش يُشَبَّه برعن الجبل وهو أنفه. الأتَيِّ: سيل يأتيك من غير أن يصيبك مطره. صَوْبُ مُلْتٍ: مطر دائم.

المطر والناقة

تعلّق الإنسان الجاهلي بشيئين مهمّين في حياته : المطر والإبل ؛ لأن طبيعة الحياة الرعويّة تفرض عليه تقديرهما ، ولأن الصحراء الظامّة لا يطفئ عطشها إلّا المطر ، والحناجر الجافة لا ترتوي إلّا بدّر الناقة . . ولأنّ الإبل تشاق للمطر وتفرح به ، ولأنّ رحلات الصحراء والهجرات المتوالية كانت - في أغلبها - بحثاً عن الماء والمرعى .

وقد صوّر الشعر الجاهلي شوق الإبل للمطر وفرحها به ، فهي لذلك تشيّم البرق وتتعرّف على مسقط الغيث وتنزع إليه .

قال عمرو بن قميئة (٣٦) :

نَوَازِعُ لِلْخَالِ إِذْ شِمْنَهُ عَلَى الْفُرْدَاتِ يُحِلُّ السَّجَالَ (٣٧)
وقال الطفيل الغنوي (٣٨) :

(٣٥) أوس بن حجر التميمي ، الديوان ، تحقيق : محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٧م ، ص ١١٩ .

(٣٦) عمرو بن قميئة ، أبو كعب ، (جاهلي قديم) ، الديوان ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، طبعة دار الكتاب العربي ، مصر ، ١٩٦٥م ، ص ١٦٧ .

(٣٧) الخال : الغيم والسحاب الذي يُظنّ فيه المطر . شِمْنَهُ : نظرن إليه لتحقيق أين يكون مطره .
الفردات : موضع . السَّجَال : الدلاء الضخمة المملؤة ، وأراد بها هنا : المطر .

(٣٨) الطفيل الغنوي ، الديوان ، تحقيق : محمد عبد القادر أحمد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٦٧م ، ص ٨٣ .

ظعائن أبرقن الخريف وشمنه وخفن الهمام أن تقاد قنابله (٣٩)
وقال خفاف بن ندبة (٤٠):

فيممن اليمامة معرقات وشمن بروض عاجلة الغماما
وقد جمعت اللغة العربية بين المطر والإبل، فسموا ماء السماء ذراً (٤١)، وأطلقوا
على الرياح التي تُلَقِّح الغيث اسم: الحراجيج والنائجات والرَّامسات، وهذه
التسميات يطلقونها على الإبل وجاءت في شعرهم كثيراً (٤٢).
وجعلوا للسحب بركاً وصدرأ كصدر الجمل، قال امرؤ القيس (٤٣):

وألقي بيسان مع الليل بركه فأنزل منه العُصم من كل منزل
ويتكرر في الشعر الجاهلي تشبيه السحب بجاعات النوق، وأصواتها بالرعد
المزجر، وكثيراً ما يبرز الشعراء في أكوام الغيم المتلبّد أصوات النوق العشار الحوامل
التي تحن إلى أولادها، أو بالنوق المصفحات اللاتي عزلن عن أولادهن فيندبن
ويشتكين بترجيعٍ موجهٍ، وحين مؤلم، أو تلك الخلايا (النوق التي عطفت على ولد
غيرها لتدبر) التي ماتت أولادها فأصابها آلام الثكل فأخذت تدعوب صوت شجيٍّ
وتتحبّ بحينٍ مخزّن.

قال عبيد بن الأبرص (٤٤):

-
- (٣٩) الخريف: أول ما يجيء من المطر. الهمام: الملك. القنابل: جماعات الخيل.
(٤٠) خفاف بن ندبة السلمي، شعره، حققه: نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد،
١٩٦٨م، ص ٩٥.
(٤١) أنور أبو سويلم، الإبل في الشعر الجاهلي، دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣، ج ١ ص ٢٦١.
(٤٢) المصدر السابق، ج ٢، مادة (حرج) و (نأج) و (رمس).
(٤٣) امرؤ القيس بن حجر الكندي، (ت ٥٤٠م)، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،
دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م، ص ٢٤.
(٤٤) عبيد بن الأبرص، (ت ٦٠٠م)، الديوان، تحقيق: د. حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي، =

كَأَنَّ فِيهِ عِشَاراً جِلَّةً شُرْفاً شُعْنًا لَهَا مِيمٌ قَدْ هَمَّتْ بِإِرْشَاحِ
بُحَا حَنَاجِرِهَا هُدًى لَمَشَافِرُهَا تُسِيمُ أَوْلَادَهَا فِي قَرْقَرٍ ضَاحِي (٤٥)
وَقَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ الْهَذَلِي (٤٦):

أَمِنْكَ بَرَقَ أَبَيْتُ اللَّيْلِ أَرْقُبُهُ كَأَنَّهُ فِي عَرَاضِ الشَّامِ مَصْبَاحُ
يَجِشُّ رَعْدًا كَهَذَرِ الْفَحْلِ تَتَبِعُهُ أَدَمٌ تَعَطَّفُ حَوْلَ الْفَحْلِ ضَحَضَاحُ
فَهْنٌ صُعْرٌ إِلَى هَذَرِ الْفَنِيقِ وَلَمْ يَجْفُرْ وَلَمْ يُسْلِهِ عَنْهُنَّ إِقَاحُ (٤٧)
وَقَالَ خَفَافُ بْنُ نَدْبَةَ (٤٨):

كَأَنَّ الْحِدَاةَ وَالْمَشَايِعَ وَسَطَهُ وَعَوْدًا مَطَافِيلاً بِأَمْعَزِ مُشْرِقِ
وَقَالَ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ (٤٩):

كَأَنَّ مُصَفِّحَاتٍ فِي ذُرَاهُ وَأَنَوَاحاً عَلَيْهِنَّ الْمَالِي
.. وَحَطَّ وَحُوشَ صَاحَةً مِنْ ذُرَاهَا كَأَنَّ وَعُولَهَا رُمُكُ الْجَمَالِ

= القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٣٤ وما بعدها. والقصيدة تنسب لأوس بن حجر، الديوان، ص ١٣ - ١٧.

(٤٥) العشار: النوق الحوامل. الجلة: السمان. الشرف: السمان أيضاً. الشعث: المتلبدة الشعر. اللهميم: الغراز. أرشاح: من أرشحت الناقة إذا اشتد فصيلها وقوي لأنها تحن في هذا الوقت.

(٤٦) أبو ذؤيب الهذلي، (ت ٢٨هـ)، شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبد الستار فراج، القاهرة، ١٩٣٧م، ج ١ ص ١٦٧.

(٤٧) يجش: يستخرج. ضحضاح: كثير، وأصله قليل، وأراد جماعة الإبل. صعر: ميل. لم يجفر: لم تذهب غلمته.

(٤٨) خفاف بن ندبة السلمي، الأصمعيات، ص ٢٥.

(٤٩) لبید بن ربیعة العامري، (ت ٥٤٠م)، الديوان، تحقيق: د. إحسان عباس، طبع وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٢م، ص ٨٨ وما بعدها.

وقال حسان بن ثابت (٥٠):

طوى أبرق العزاف يُرعدُ مَنَنُهُ حين المتالي نحو صوت المشايح
ومن الجانب الآخر نراهم يُشبهون جماعات الإبل بأكوام الغيم، وسُرعتها وهي
منطلقة بسرعة السحاب الخفيف أو السحاب الذي أطاع الريح، وأصواتها بهزيم
المطر المثلّال.

قال امرؤ القيس (٥١):

تروح إذا راحت رواح جهامة باثر جهامٍ رائحٍ مُتفرّق
وقال الأخنس بن شهاب التغلبي (٥٢):
تطايّر عن أعجاز حوش كأنها جهامٌ أراق ماءه فهو آتب
وقال الطفيل الغنوي (٥٣):

إذا وردت ماءً بليلٍ كأنها سحابٌ أطاع الريح من كل مخرم
وقال المخبل السعدي (٥٤):

لها لَبَبٌ حول الحياض كأنه تجاوبُ أغياثٍ لهنّ هزيمٌ
وجاءت السحب في أكثر من موضع في الشعر الجاهلي بصورة النوق العشار، أو

(٥٠) حسان بن ثابت الأنصاري، (ت ٥٤هـ)، الديوان، تحقيق: سيد حنفي، طبع الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٤م، ص ٢٧٨.

المتالي: النوق ومعها أولادها. المشايح: الراعي، والصوت: الشياح.

(٥١) امرؤ القيس بن حجر الكندي، (ت ٥٤١هـ)، الديوان، ص ١٧٠.

(٥٢) الأخنس بن شهاب التغلبي، (جاهلي قديم)، المفضليات، ص ٢٠٥.

(٥٣) الطفيل الغنوي، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٧٨.

(٥٤) المخبل السعدي التميمي، شعر بني تميم في العصر الجاهلي، تحقيق: عبد الحميد المعيني، منشورات نادي القصيم الأدبي، ١٩٨٢م، ص ١٢٤.

النوق المتالي، أو النوق الحِيَال التي تُلْفِحُها رِيَّاحُ الغَيْثِ، والرياح هي التي تحلب دِرَّةَ الناقة (السماء) كما يحلب الأجير نوقه؛ يَبْسُ لها، وَيَمْسُها بَرَقُ، وَيُصْدِرُ أصواتاً رقيقةً حتى تَدْرَعُ رَوْقُ ضروعها بالمطر العَذْبِ النقي.

قال امرؤ القيس (٥٥):

فلما تَدَلَّى من أعالي طَمِيَّةٍ أَبَسَّتْ به رِيح الصَّبَا فَتَحَلَّبا
وقال أيضاً (٥٦):

راح تَمْرِيهِ الصَّبَا ثم انتحى فيه شُؤْبُوبُ جنوبٍ مُنْفَجِرٍ
وقال خفاف بن ندبة (٥٧):

إذا ما مَرَّتُهُ رِيحُ يمانية يَرُدُّ رِيْعَانَهُ إِلَى نَضْدٍ
وقال طرفة بن العبد (٥٨):

مرته الجنوبُ ثم هَبَّتْ له الصَّبَا إذا مَسَّ منها مسكناً عُدْمُلاً نَزَلُ
كَأَنَّ الخَلايا فيه ضَلَّتْ رِبَاعُهَا وَعُوْذاً إذا ما هَزَّه رَعْدُهُ احْتَفَلُ
وقال الطفيل الغنوي (٥٩):

أَبَسَّتْ به رِيحُ الجنوبِ فَأَسْعَدْتُ رَوَايا لَه بالماء لَمَّا تَصَرَّمُ

(٥٥) امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان، ص ٣٤٠.

(٥٦) المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٥٧) خفاف بن ندبة السلمي، شعره، تحقيق: نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨ م.

(٥٨) طرفة بن العبد البكري، الديوان، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٥، ص ١١٣.

(٥٩) الطفيل الغنوي، الديوان، ص ٧٥.

وقال سحيم عبد بني الحسحاس^(٦٠):

مرثه الصِّبا وانتحتهُ الجنو بُ تَطَحَّرُ عَنْهُ جَهَاماً خَفَافاً
يُكَبُّ العِضَاءَ لأَذْقَانَهَا كَكَبِّ الفَنِيْقِ اللُّقَاحِ العِجَافِ

وقال لبید بن ربیعۃ^(٦١):

مَرَّتِ الجَنُوبُ لَهُ الغَمَامُ بَوَابِلٍ وَمُجْلِجِلٍ قَرَدِ الرَّبَابِ مُدِيمٍ

وقال أبو دؤاد الإيادي^(٦٢):

وغيثٌ تَوَسَّنَ مِنْهُ الرِّيا ح جُوناً عِشَاراً وَعُوناً ثَقَالاً
إِذَا كَرَّكَرَتْهُ رِيَا حِ الجَنُو ب أَلْقَحْنَ مِنْهُ عَجَافاً حِيَالاً
وَإِنْ رَا حَ يَنْهَضُ نَهَضَ الكَسِي ر جَاجَأَهُ المَاءُ حَتَّى أُسَالَا

فالسحب هنا ليست بخاراً متكاثفاً - كما يقول علماء الطبيعة - إنما هي نوق عِشار ونوق حِيال تُلْقَحُها رياح الصِّبا أو رياح الجنوب في الغالب.

أيمكن أن يكون العرب قد تصوروا السماء ناقة حقيقية لا مجازاً، والمطر من درها؟ هذا ما أرجحه؛ فقد سَمَّوا السماء (الجرباء) وهي التي أصابها العُرْلُ لكثرة النجوم فيها تشبيهاً بالجرب في بَدَن البعير، وسَمَّوا الناقة (علياء) والعلياء من أسماء السماء^(٦٣)، وقد عرفت الميثولوجيا القديمة مثل هذا التصور، فقد مثلَ الفراعنة السماء

(٦٠) سحيم عبد بني الحسحاس الأسدي، الديوان، تحقيق: عبد العزيز الميمني، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٨م، ص ٤٦ وما بعدها.

(٦١) لبید بن ربیعۃ العامري، الديوان، ص ١١١.

(٦٢) أبو دؤاد الإيادي، الديوان، ضمن كتاب: دراسات في الأدب العربي، تحقيق: غوستاف فون غرنباوم، ترجمة: إحسان عباس وآخرين، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩م، ص ٣٣١.

(٦٣) أنور أبو سويلم، الإبل في الشعر الجاهلي، ج ١ ص ٢٦٣.

امراًً منحنياً فوق الأرض يَتَحَلَّبُ المطرُ من ثَدْيَيْهَا، وتَصَوَّرُوا السماء بقرة هائلة ولدت الشمس، فكان لها ضرع كبير يحلب مطراً^(٦٤).

(٦٤) فرانكفورت (هـ) وآخرين، ما قبل الفلسفة، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، طبع مكتبة الحياة، بغداد، ١٩٦٠م، ص ٣١ وص ٦١. وانظر تفصيلات أخرى لهذا الموضوع في كتابي: الإبل في الشعر الجاهلي، الجزء الأول، ص ٢٦٣ وما بعدها، طبعة دار العلوم، الرياض، ١٩٨٣م.

المطر والفرس

فكرة المطر وفكرة الفرس متماثلتان في ذهن الشاعر الجاهلي تماثلاً غريباً؛ فالفرس مُسَيَّحٌ وسابح ودريز، وجهد الفرس يرتبط دائماً بالوابل المُتَحَلَّبُ أو بِشَوْبِوبِ الغيث أو شَوْبِوبِ العشي، والبرق اللامع يلمع ويغمض كخيلٍ بُلُقٍ تَكْشَفُ عنها أجلاها، وغالباً ما تأتي صورة الخيل المُسْتَرَسِلَة بصورة السيل العاتي أو المطر المنصب الذي يتلقاه الإنسان بخوف وتَهيُّبٍ. وقد عَبَّرَ مجَمَّعُ بن هلال (من تيم الله بن ثعلبة) عن هذه الفكرة بتركيز شديد فقال (٦٥):

وخيل كأسراب القَطَا قَدْ وَزَعَتْهَا لها سَبَلٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ تَلَمَعُ
(السَّيْلُ: المطر).

فالخيل كأسراب القَطَا الذي يريد الماء، والعرب يضربون المثل بهداية القطا؛ لأنه يهتدى به في المجهل، ويعرف الماء. لذلك كان الخيل لها سَبَلٌ.

وقد نرى في هذه الصورة معاني التتابع والاسترسال والتحفُّز والانطلاق والانتقال والهجوم والمباغلة والاندفاع. لكن هذه المعاني كلها لا يمكن أن تلغي من أذهاننا فكرة المطر التي تشتمل عليها صورة الخيل.

وقد عَقَرَ العربُ الخيلَ على قبور الموتى من الأشراف والأسياد وكانوا يُلَطِّخُونَ

(٦٥) مجمع بن هلال، ديوان الحماسة لأبي تمام، تعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، ١٩٥٥م، ج ١ ص ٢٩٧.

القبور بدمائها، والعلماء مختلفون في الباعث على العقر، قالوا: إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان يعقره في حياته إكراماً لضيافته^(٦٦)، وقال آخرون: إنما كانوا يفعلون ذلك إعظماً للميت كما كانوا يذبحون للأصنام، وقيل: إن الخيل أنفس أموالهم، فكأنهم يريدون بذلك أنها قد هانت عليهم لعظم المصيبة^(٦٧).

واستمرت طقوس العقر على القبور حتى عصور متأخرة، فقد عقر الفرزدق على قبر بشر بن مروان والي العراق لأخيه عبد الملك^(٦٨)، ودعا للعقر زياد الأعجم وهو يرثي المغيرة بن المهلب، قال^(٦٩):

فإذا مررت بقبره فاعقر به كُوم الهجان وكل طرفٍ سابح
وأنضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخاً دمٍ وذباح

ولا أعتقد أن نحر الخيل على القبر وتبليله بالدم عادة يراد بها إظهار تقدير أهل الميت أو تمثيل كرم الراحل بعد وفاته، بل لا بد أن يكون هذا النحر له علاقة ما بالاستمطار فعظام الموتى استخدمها العرب في طقوس الاستسقاء^(٧٠)، والفرس لها علاقة ما بالمطر، ذكر القزويني أن بعض الصينيين يجتمعون في سني القحط ويلقون فرساً في غدير عندهم، والناس يقفون على أطرافه كلما أراد الفرس الخروج من الماء

(٦٦) الخالديان، أبو بكر محمد (ت ٣٨٠هـ) وأبو عثمان سعيد (ت ٣٩٠هـ)، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، حققه: السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٨ - ١٩٦٥م، ج ٢ ص ٣٥٧.

(٦٧) أحمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، دار نهضة مصر بالجالة، ١٩٧٢م، ص ٤٩٢.

(٦٨) محمد نعمان الجارم، أديان العرب في الجاهلية، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٢٣م، ص ٩٨.

(٦٩) الخالديان، الأشباه والنظائر، ج ٢ ص ٣٥٧.

(٧٠) ابن قتيبة الدينوري، كتاب المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م، ص ٤٣٣.

منعوه، وما دامت الفرس في الماء يأتهم المطر، فإذا مُطروا قدر كفائتهم، وامتلأ الغدير، أخرجوا الفرس وذبحوه على قلة الجبل، وتركوه حتى تأكله الطير، فإن لم يفعلوا ذلك في شيء من السنين لم يُمطروا (٧١).

فلا عجب - إذن - أن ترتبط الفرس بصورة دفعات المطر التي تنثال في عتمة الليل فهي لذلك أشد عنفاً وأكثر برودةً ودائماً ينثال مطر الفرس (عشيةً) بما يوحى بالمباغثة والمداهمة غير المتوقعة، فهو لذلك يُسبب القلق والتوتر والتأزم؛ لذلك يتكرر في وصف الفرس العبارات التالية: شؤ بوب العشي، غيث العشي، الشؤ بوب ذي البرد، شؤ بوب غيث . .

قال امرؤ القيس (٧٢):

وولّى كشؤ بوب العشيّ بوابلٍ ويخرجن من جعدٍ ثراه مُنصبّ
خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن ودق من عشيّ مجلبّ
وقال أيضاً (٧٣):

وأدركن ثانياً من عنانه كغيث العشيّ الأقهب المتودق
وقال النابغة (٧٤):

والخيل تمزج غرباً في أعنتها كالطير تنجوم الشؤ بوب ذي البرد

(٧١) القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص ٥٤. وانظر بحثي المشار إليه سابقاً: الاستسقاء في الشعر الجاهلي.

(٧٢) امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٥٠.
الجعد: الشديد النداءة. الشؤ بوب: دفعة المطر. خفاهن: أظهرهن واستخرجهن. الأنفاق: أسراب تحت الأرض. الودق: المطر. المجلب: الذي له جلبّة.

(٧٣) المصدر السابق، ص ١٧٤.

(٧٤) النابغة الذباني، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ص ٢٣.

وقال علقمة الفحل (٧٥) :

فَاتَّبَعَ آثَارَ الشَّيْءِ وَلِيَدُنَا حَثِيثٌ كَغَيْثِ الرَّائِحِ الْمُتَحَلِّبِ
خَفِيَ الْفَارُّ مِنْ أَنْفَاقِهِ فَكَأَنَّمَا تَخَلَّلَهُ شَوْبُوبُ غَيْثٍ مُنْقَبِ

وقال زهير بن أبي سلمى (٧٦) :

فَاتَّبَعَ آثَارَ الشَّيْءِ وَلِيَدُنَا كَشُوبُوبِ غَيْثٍ يَخْفِشُ الْأَكَمَ وَابِلُهُ

وقال الطفيل الغنوي (٧٧) :

كَأَنَّ رِعَالَ الْخَيْلِ لَمَّا تَبَدَّدَتْ بُوَادِي جَرَادِ الْهَبْوَةِ الْمُتَصَوِّبِ
وَهَضْنَ الْحَصَى حَتَّى كَأَنَّ رُضَاضَهُ ذُرَى بَرْدٍ مِنْ وَابِلٍ مُتَحَلِّبِ

وقال طرفة بن العبد (٧٨) :

مَرْفُوعُهَا زَوْلٌ وَمَوْضُوعُهَا كَمَرٌ غَيْثٍ لَجِبٍ وَسَطُ رِيحٍ
تَتَعَبُ بِالْفَارَسِ ثُعْبًا كَمَا يَتَعَبُ بِالْقَرَقَرِ مَاءُ النَّضِيجِ

وقال لبید بن ربیعۃ (٧٩) :

(٧٥) علقمة الفحل، الديوان، تحقيق: لطفي الصقال ودرية الخطيب، دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٦٩م، ص ٩٤.

(٧٦) زهير بن أبي سلمى، الديوان، تقديم، أحمد زكي العدوي، دار الكتاب المصرية، ١٩٤٤م، ص ١٣٥.

(٧٧) الطفيل الغنوي، الديوان، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٨م، ص ٢٥ - ٢٦.

(٧٨) طرفة بن العبد: الديوان، تحقيق: درية الخطيب، ولطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٥م، ص ١٧١.

الرفع: المبالغة في السير. زول: نهوض. لجب: كثير الصوت. تثعب: تتدفق في سيرها. القرقرة: أرض مطمئنة لينة.

(٧٩) لبید بن ربیعۃ، الديوان، تحقيق: د. إحسان عباس، مطبعة وزارة الإرشاد والأنباء الكويت، =

طوته المنايا فوق جرداء شَطْبَةٍ تَدِفُ دَفِيفَ الرَّائِحِ الْمُتَمَطِّرِ
وقال خفاف بن ندبة (٨٠):

أَصَاحَ تَرَى الْبَرْقَ لَمْ يَغْتَمِضْ إِذَا زَعَزَعَتْهُ الْجَنُوبُ اسْتَطَارَا
كَأَنَّ تَكْشُفَهُ بِالنَّشَاصِ بُلُقٌ تَكْشُفُ تُحْمِي مَهَارَا

وقد نرى في أرسال الخيل المتتابعة أثناء الغارة شَبْهاً بأرسال المطر المتدافع، لكن الشعراء لا يريدون التتابع والتدافع والمباغطة والهجوم فقط، إنما يريدون ما في المطر من معاني النُقْمة والعذاب، وهذه المعاني تتمثل في ذلك السيل العاتي الذي يُمثّل الشعراء به اندفاع الفرس وانحطاطها، كقول امرئ القيس (٨١):

مَكَرٌ مَفَرٌّ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَاً كَجُلُودِ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلٍ
كَمِيتٌ يَزُلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمَتَنَزَلِ

= ٢٩٦٢م، ص ٤٩.

(٨٠) خفاف بن ندبة السلمي، شعره، تحقيق: نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد،

١٩٦٨م، ص ٧٨ وما بعدها.

(٨١) امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٢٢ وما بعدها.

المطر وحمار الوحش

مشكلة المطر أهم المشكلات التي يعرض لها الشاعر الجاهلي في قصة حمار الوحش وأتته، وتبدأ القصة بوصف حمار الوحش المكتنز شحماً ولحماً، وهو يراعي أنه في روضة مُعشبة قد انهلَّ عليها المطر فأينعت وأزهرت . . يتودد لهذه الأتُن ويتعشَّقهن، وينعم بحياة أُسريَّة ناعمة مطمئنة، لكنَّ طيبَ العيش لا يدوم . . والمشكلة تَبْدَأُ عندما يتوقَّف نزول المطر ويَقِلُّ النَّدَى ويُصَوِّحُ البقل وتَبَشُّ الغدران وتهبَّ رياح السَّموم الحارة . . من هنا تبرز المشكلة الأساسية في قصة حمار الوحش : مشكلة الماء أو مشكلة المطر.

تأتي الأتُن إلى الحمار الحكيم يستشرنه في أمرهن، فيبيت ليله ساهراً تُورِّقه الهموم، ثم تُسَعِّفه الذاكرة ويدفعه الظَّمُّ إلى اتخاذ القرار الصَّعب . . الهجرة إلى مساقط الغيث وعيون الماء، فيعزم أمره، ويأمر الأتُن بالهجرة، يسوقهن ويستحثهن بالعضِّ والكَدَم، ويصدق حسَّه إذ يستدعيه صوت الماء العذب البارد، فتعوم الأتُن في شريعة الماء تروي غُلَّتْها وتطفئ عطشها الملهب، لكن الصَّيَّاد الجائع يتحفَّز ثم يقذفها بسهم طائشة تطير فوق ظهورها، فتنتطلق الحمر مذعورة فزعة تنشد السلامة، وبعض الصَّيَّاد أنامله ندماً يلوم حظَّه العاثر ويتذكَّرُ زوجة اللَّجوج وأولاده المُسْغِين . . وهكذا تبقى الحمر في الصحراء العربية ظمَّاءً، ويبقى الصَّيَّاد وأهله جوعى .

وسأمثلُّ لهذه القِصَّة بقول ربيعة بن مقروم (٨٢):

(٨٢) ربيعة بن مقروم، المفضليات، ص ١٨١ وما بعدها.

كَأَنِّي أُوشِحُ أَنْسَاعَهَا أَقْبُ مِنَ الْحُقْبِ جَابَأَشْتِيهَا
يُحْلَىءُ مِثْلَ الْقَنَا ذُبْلًا ثَلَاثًا عَنِ الْوَرْدِ قَدْ كُنَّ هِيَا
رَعَاهُنَّ بِالْقَفِّ حَتَّى ذَوَتْ بَقُولِ التَّنَاهِي وَهَرَّ السُّمُومَا
فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّ النَّهَارَ تَوَلَّى وَأَنَسَ وَخَفَأَ بَهِيمَا
رَمَى الْيَلَّ مُسْتَعْرِضًا جَوْرَهُ بَهْنٌ مِزْرًا مِثْلًا عَذُومَا
فَأَوْرَدَهَا مَعَ ضَوْءِ الصَّبَاحِ شَرَائِعَ تَطْحَرُ عَنْهَا الْجَمِيمَا
طَوَامِي خُضْرًا كُلُّونِ السَّمَاءِ يَزِينُ الدَّرَارِي فِيهَا النُّجُومَا
وَبِالْمَاءِ قَيْسٌ أَبُو عَامِرٍ يُؤْمَلُّهَا سَاعَةً أَنْ تَصُومَا

ويمكن أن نُلخِّص العناصر الأساسية الثابتة في قصة حمار الوحش بالنقاط التالية:

- (أ) رعي الحمار وأتته في الرياض المُعشبة التي هي من نتاج المطر.
- (ب) جفاف الغدران، وهجوم الجَدْب والمُحَل، وهبوب رياح السموم والحرّ اللافح . . والإحساس بالظمإ والعطش .
- (جـ) مشكلة الماء هي أساس القضية في قصة حمار الوحش . . فالحمر عطشى لم ترد الماء ولم تَهْتَدِ إلى موضعه . . وهي مضطرة للهجرة بحثاً عنه .
- (د) رحلات الحُمُر الوحشية تنتهي غالباً بورود الماء الذي يجمع حوله الأعداء، ومن أجله تنشب الحروب ويتم الصراع مع الجوعى والطامعين .

= أَوْشِحُ : أَشَدَّ . الْحُقْبُ : التي بطونها بياض . الْجَابُ : الغليظ . الشْتِيم : الكريه الوجه .
يُحْلَىءُ : يمنع من الماء . ذُبْلًا : ضوامر . هِيَا : عطشى . القف : الأرض الصلبة . التناهي :
أرض تحجز الماء . هَرَّ : كره . صَوَادِي : عطشى . خَزَر : ضيقة العيون . تَغِيَا : أن تعطش .
الوَحْف : ما غر من النبات واسودَّ ، يريد الليل . جَوْزَه : وسطه . الزَّرَر : الْعَضَّ . الشَّلَّ :
الطَّرْد . الْعَدَم : الْعَضَّ . تطحر : تدفع . الجميم : ما اجتمع على الماء من قذى . الطوامي :
الكثيرة الماء .

(هـ) الماء في قصة حمار الوحش أهم عناصر هذه القصّة وهو مُحَرِّك الأحداث فيها . .
 فالهجرة كانت حول الماء . . والصّراع كان عند الماء أو من أجله ، وكأنّها الماء هو
 الأمل المنشود والغاية القصوى في حكاية حمار الوحش .
 ودائماً يكون المشرّع العذّب هو الهدف الذي تسعى إليه الحُمُر المهاجرة أو الشاعر
 الظامئ .

قال امرؤ القيس (٨٣) :

- فَأَوْرَدَهَا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْرَباً بِلَاتِقٍ خَضِراً مَاؤُهُنَّ قَلِيصُ
 - جَابُ أَضْرَبَهُ التَّعْدَاءُ صِيْفَتَهُ حَتَّى دَعَتْهُ عَيُونُ مَاؤُهَا شَعْبُ
 وقال أوس بن حجر (٨٤) :

تَذَكَّرَ عَيْنًا مِنْ غُمَاةٍ مَاؤُهَا لَهُ حَبَبٌ تَسْتَنُّ فِيهِ الزَّخَارِفُ
 لَهُ نَادٌ يَهْتَزُّ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مُخَالِطٌ أَرْجَاءَ الْعُيُونِ الْقِرَاطِفُ
 وقال زهير بن أبي سلمى (٨٥) :

عَزَمَ الْوَرُودَ فَآبَ عَذْباً بَارِداً مِنْ فَوْقِ شَدِّ يَسِيلٍ وَأَهْبِ
 وقال بيد بن ربيعة (٨٦) :

فَتَضَيَّفَا مَاءً بِدَخْلٍ سَاكِناً يَسْتَنُّ فَوْقَ سَرَاتِهِ الْعُلْجُومُ
 وقال أبو ذؤيب الهذلي (٨٧) :

(٨٣) امرؤ القيس بن حجر الكندي ، الديوان ، (سبق ذكره) ، ص ١٨٠ و ٣٠٤ .

(٨٤) أوس بن حجر ، الديوان ، (سبق ذكره) ، ص ٦٧ .

(٨٥) زهير بن أبي سلمى ، الديوان ، (سبق ذكره) ، ص ٣٧١ .

(٨٦) لبيد بن ربيعة ، الديوان ، (سبق ذكره) ، ص ١١٦ .

(٨٧) أبو ذؤيب الهذلي ، المفضليات ، ص ٤٢٣ .

فَشَرَعْنَ فِي حَجَرَاتٍ عَذِبٍ بَارِدٍ حَصَبُ الْبَطَاحِ تَغِيْبٌ فِيهِ الْأَكْرَعُ
فَشَرِبْنَ ثُمَّ سَمِعْنَ حِسًّا دُونَهُ شَرَفُ الْحِجَابِ وَرَيْبُ قَرَعٍ يَقْرَعُ
وقال الأعشى (٨٨) :

فَأَوْرَدَهَا عَيْنًا مِنَ السَّيْفِ رِيَّهَ بِهَا بَرَأُ مِثْلَ الْفَسِيلِ الْمُكَمِّمِ
وقال متمم بن نويرة (٨٩) :

حَتَّى إِذَا وَرَدَا عَيْنًا فَوْقَهَا غَابَ طَوَالًا نَابِتٌ وَمُصَرَّعٌ
لَاقَى عَلَى جَنْبِ الشَّرِيعَةِ لَاطِئًا صَفْوَانٌ فِي نَامُوسِهِ يَتَطَلَّعُ
ومن هنا يتبين لنا أن قصة حمار الوحش لا يمكن فهمها بمعزل عن فكرة المطر الذي انهلَّ فأُنبت الرياض المُعشِبة التي رعتها الحُمُرُ ناعمة البال، ثم أدَّى توقف نزول المطر إلى الجفاف والقَحْط فكانت الهجرات في الصحراء العريضة بحثاً عن مورد آمن، وما أكثر هذه الموارد في الصحراء العربية، ودائماً تنتهي رحلة الحُمُر بالوصول إلى شريعة الماء التي لا يتحقق عندها الأمن والسلام، فتؤثر الحُمُر السلامة، وتبتعد عن المواجهة والصراع، وستبقى تبحث عن المورد الآمن أو عن الماء الصافي في كل مكان في الجزيرة العربية .

(٨٨) الأعشى، الديوان، (سبق ذكره)، ص ١٢١ .

(٨٩) متمم بن نويرة، المفضليات، ص ٥٠ .

المطر والظلم

للمطر أهمية بالغة في قصة الظلم والنعامة التي تكرر ذكرها في الشعر الجاهلي، فالتنوم، والآء، والحنظل، وما يُنعم به النعام من نبات الصحراء، كل ذلك من نتاج المطر، والمطر يثير الفزع والهلع في قلب الظلم، فيهيج هلعاً وفزعاً، فيهرب من العاصفة والريح والغيم المتكاثف والرذاذ وهو يفعل ذلك ليحفظ البيض من المطر الذي يفسده ويضرُّ به، أوليبي حياة آمنة ولينجب الذرية ويحفظ النوع من الهلاك، وما إن يصل الظلم والنعامة إلى العش حتى تسرع النعامة فتجثم عليه ناشرةً جناحيها الغزيرين لتحمي البيض من المطر ولتبعث فيه دفء الحياة، ودائماً نرى الظلم يعالج الظلّمة ويعاني الريح والمطر، قال زهير بن أبي سلمى (٩٠):

هَلْ تُبْلِغَنِي إِلَى الْأَخْيَارِ نَاجِيَةً تُخْذِي كَوْنُ خَدِ ظَلِيمٍ خَاضِبٍ زَعِيرٍ
فِي يَوْمٍ دَجَنٍ يُوَالِي الشَّدَّ فِي عَجَلٍ إِلَى لَوَى حَضَنٍ مِنْ خِيفَةِ الْمَطَرِ

وقال علقمة الفحل (٩١):

حَتَّى تَذْكَرِ بِيضَاتٍ وَهَيَّجَهُ يَوْمُ رَذَاذٍ عَلَيْهِ الرِّيحُ مَغِيومُ

وقال لبید بن ربیعۃ (٩٢):

تَنْجُو نَجَاءَ ظَلِيمٍ الْجَوَّافُ زَعَهُ رِيحُ الشَّالِ وَشَفَّانُ لَهَا دِرَرُ

(٩٠) زهير بن أبي سلمى، الديوان، (سبق ذكره)، ص ٣١٦.

(٩١) علقمة الفحل، الديوان، ص ٥٩.

(٩٢) لبید بن ربیعۃ، الديوان، ص ٦٨.

وعندما يصف الشعراء أكوام الغنيم المتكاثف يشبّهونها بالنعام المعلق من أرجله ،
وهذه الصورة تبرز بوضوح تأثير المطر في النعام ، فهو شرٌ مستطير ونقمة كبرى ،
يؤدّي إلى هلاك النعام وتعليقه من أرجله ؛ لذلك كان الشعراء يرسمون دائماً فزع
الظليم من المطر وخوفه وهربه وشده وهلعه .

قال سلامة بن جندل (٩٣) :

وَجَرَّ سَارِيَةً تَجَرُّ دُيُولَهَا نَوَسَ النَّعَامُ تَنَاطُ بِالْأَعْنَاقِ

وقال خفاف بن ندبة (٩٤) :

فَدَعَ ذَا وَلَكِنْ هَلْ تَرَى ضَوْءَ بَارِقٍ يُجَرُّ بِأَكْنَافِ الْبِحَارِ إِلَى الْمَلَا
رَبَاباً لَهُ مِثْلُ النَّعَامِ الْمُعَلَّقِ إِذَا قَلَّتْ تَزْهَاهُ الرِّيحُ دَنَا لَهُ
رَبَابٌ لَهُ مِثْلُ النَّعَامِ الْمَوْسِقِ

وقال الأعشى (٩٥) :

بَلْ هَلْ تَرَى بَرْقاً عَلَى الدِّ جَبَلَيْنِ يُعْجِبْنِي أَنْجِيَابُهُ
مِنْ سَاقِطِ الْأَكْنَافِ ذِي زَجَلٍ أَرَبَّ بِهِ سَحَابُهُ
مِثْلُ النَّعَامِ مُعَلَّقاً لَمَّا دَنَا قَرِداً رَبَابُهُ

(٩٣) سلامة بن جندل ، الديوان ، ص ١٣٦ .

(٩٤) خفاف بن ندبة ، الأصمعيات ، ص ٢٥ - ٢٦ .

(٩٥) الأعشى ، الديوان ، ص ٣٢٥ .

المطر والأوابد الأخرى

ويأتي ذكر المطر في وصف العقاب والقطا والضَّبِّ والذئب .

والعُقاب شديدة الوحشية تعتصم في ذرى الجبال الشاهقة، وتقرب من الندى والطلِّ والغيم، وقد شُهرت بوقفها الشاحخة على قمم الآكام، وهي تنفض الضرب والندى عن ريشها المتكاثف استعداداً للانقضاض على الفريسة. قال الأجدع الهمداني (٩٦):

إذا قيل يوماً يا صباحاً رأيتهَا كعقبان يوم الدَّجْنِ الثَّقَهَا القَطْرُ
وقال سلمة بن الخرشب الأنماري (٩٧):

خُدَارية فَتَخَاءَ أَلْثَقَ ريشَهَا سحابةٌ يومٍ ذي أهَاضيبٍ مَاطِرِ
وقال الحارث بن وعله (٩٨):

نَجَوْتُ نَجَاءً لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ كَأَنِّي عُقَابٌ عِنْدَ تَيْمَنٍ كَاسِرُ
خُدَاريةٌ سَفَعَاءُ لِبَدَ ريشَهَا مِنَ الطَّلِّ يَوْمٌ ذُو أَهَاضيبٍ مَاطِرُ
وقال عبيد بن الأبرص (٩٩):

(٩٦) الأجدع الهمداني، شعر همدان وأخبارها، (سبق ذكره)، ص ٢٢٤.

(٩٧) سلمة بن الخرشب الأنماري، المفضليات، ص ٣٧.

(٩٨) الحارث بن وعله، المفضليات، ص ١٦٥.

(٩٩) عبيد بن الأبرص، الديوان، ص ١٨.

اللقوة: العقاب. الطلُّوب: المُلِحَّة في الطَّلْب. نَحِجَّ: تتغير رائحتها. إِرَم: جبل صغير. =

كَأَنَّهَا لِقُوَّةٌ طَلُوبٌ نَحْنُ فِي وَكْرِهَا الْقُلُوبُ
 بَاتَتْ عَلَى إِرَمٍ رَابِثَةٌ كَأَنَّهَا شَيْخَةٌ رَقُوبٌ
 فَأَضْبَحَتْ فِي غَدَاةٍ قِرَّةً يَسْقُطُ عَنْ رِيشِهَا الضَّرِيبُ
 فَأَبْصَرَتْ ثُعْلَباً مِنْ سَاعَةٍ وَدُونَهُ سَبَسَبٌ جَدِيبٌ
 فَنَفَضَتْ رِيشَهَا وَأَنْتَفَضَتْ وَهِيَ مِنْ نَهْضَةٍ قَرِيبٌ

وتأتي صورة المطر متصلة بالحديث عن موارد الماء في الصحراء الطَّامِسة الصُّوى حيث لا دليل على الماء سوى القَطَا الهادي الذي ضُرب به المثل في الهداية (١٠٠)، لأنَّه يهتدى به في المجاهل ويعرف مواضع الماء.

والحديث عن القَطَا يأتي في معرض قياس سرعة الفرس والناقة ويجعل الشعراء القطا ظامئاً في يوم حرور، لذلك فهو يُصَبِّحُ الشريعة مسرعاً متهاوياً:

قال عبيد بن الأبرص في صفة الخيل (١٠١):

القائد الخيل تَرْدِي فِي أَعْنَتِهَا وَرَدَّ الْقَطَا هَجَرَتْ ظِمًّا إِلَى الثَّمَدِ
 وقال أيضاً (١٠٢):

ثم عَجَنَاهُنَّ خُوصاً كَالْقَطَا الـ قَارِبِ الْمَاءِ مِنْ أَيْنِ الْكَلالِ
 أمَّا الإبل الناجية السريعة فهي كَأَسْرَابِ الْقَطَا التي هاجها العطش، فانطلقت تتهاوى نحو شريعة الماء فجراً.

- وَكُنَّ كَأَسْرَابِ الْقَطَا هَاجَ وَرَدَهَا مَعَ الصُّبْحِ فِي يَوْمِ الْحَرُورِ رَمِيضُ (١٠٣)

= رابثة: تأبى الأكل والشرب. الرقوب: التي لا يعيش لها ولد. قِرَّة: برد. الضَّرِيب: الصقيع.

(١٠٠) الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي،

القاهرة، (دون تاريخ)، ج ٥ ص ٥٧٣.

(١٠١) عبيد بن الأبرص، الديوان، ص ٥٩.

(١٠٢) المصدر السابق، ص ١١٧.

(١٠٣) المصدر السابق، ص ٨١.

- تَهَالِكُ مِنْهُنَّ النَّجَاءُ تَهَالِكَا تَقَازِفُ إِحْدَى الْجُونِ حَانَ وَرُودَهَا (١٠٤)

- يَذَرِغْنَ اللَّيْلَ يَهُوسْنَ بِنَا كَهْوِيَّ الْكُذْرِ صَبَّحْنَ الشَّرَعَ (١٠٥)

- كَأَنَّهَا وَقَدْ بَدَا عَوَارِضُ بَجَلْهَةِ الْوَادِي قَطَا نَوَاهِضُ (١٠٦)

ويتحدث الشعراء عن فعل المطر والسيل في جُحْرِ الضَّبِّ الكَيْسِ الذي يَتَّخِذُ جُحْرَهُ فِي كُذْيَةِ (الموضع الصلب) مرتفعة، ويصفون جَدَّ الضَّبِّ وَهْمَتَهُ ومهارته في تلافي المطر والسيل، لذلك كانت برائته ناقصة قليلة؛ لكنَّ سيول الصحراء شديدة العنف تُغْرِقُ الضَّبَّ وَوَجَارَهُ، ولا تنفعه خِفَّتُهُ ومهارته، قال امرؤ القيس (١٠٧):

دِيْمَةُ هَطْلَاءٍ فِيهَا وَطَفٌ طَبَقُ الْأَرْضِ تُحَرَّى وَتَدِرُّ
.. وَتَرَى الضَّبَّ خَفِيفاً مَاهِراً ثَانِياً بَرُّثْنَهُ مَا يَنْعَفِرُ

وقال طرفة بن العبد (١٠٨):

وَضِيبَابٍ سَفَرِ الْمَاءِ بِهَا غَرِقَتْ أَوْلَاجُهَا غَيْرَ السُّدَدِ
فَهِيَ مَوْتَى لَعِبِ الْمَاءِ بِهَا فِي غُثَاءٍ سَاقَهُ السَّيْلُ عُدَدُ

وغالباً ما يُذكر الذئب والمطر معاً، وكلُّهما وصفوا خيولهم بالذئاب، جعلوا الندى قد بَلَّهَا، والمطر أخرجها، والصقيع قد حَفَزَهَا على التوحُّش والاندفاع والتهوُّر، كقول الطفيل الغنوي (١٠٩):

(١٠٤) النابغة الذبياني، الديوان، ص ٩٨.

(١٠٥) سويد بن أبي كاهل الشكري، الديوان، تحقيق: شاعر العاشور، دار الطباعة الحديثة، البصرة، ١٩٧٢م، ص ٢٧.

(١٠٦) الشماخ بن ضرار الذبياني، الديوان، تحقيق: صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ص ٥٠٤.

(١٠٧) امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان، (سبق ذكره)، ص ١٤٤.

(١٠٨) طرفة بن العبد البكري، الديوان، ص ٢٨.

(١٠٩) الطفيل الغنوي، الديوان، ص ٦٣.

كَأَنَّهُ بَعْدَ مَا صَدَّرَنَ مِنْ عَرَقٍ سَيِّدٌ تَمَطَّرَ جُنْحَ اللَّيْلِ مَبْلُولُ
وَقَالَ الْحَصِينُ بْنُ الْحَمَامِ الْمُرِّي (١١٠):
وَأَجْرَدَ كَالسَّرْحَانِ يَضْرِبُهُ النَّدَى وَمَحْبُوكَةٌ كَالسَّيِّدِ شَقَاءَ صِلْدِمَا

(١١٠) الْحَصِينُ بْنُ الْحَمَامِ الْمُرِّي، المفضليات، ص ٦٦.

موضع المطر الأساسي

وفي هذا الموضع يُعنى الشعراء بملاحظة البرق ومراقبة الغيم، ويتبعون تحرك الرياح ويستطلعون الغيوم المتكاثفة، والسُّحب الجَهَام، ويبتهلون ويأرقون ويسهدون، ويتلهفون ويشتاقون، فإذا الانبثاق العظيم يَنْهَلْ، وإذا الكون طوفانً غامرٌ وبحرٌ متلاطم. . ويتلقى الشعراء المطر المنثور من رحم السماء بحُبٍّ ووجد، فيتابعون انهلاله على السفوح والبقاع، ومحسُّون الفَوْز والانتصار والظَّفَر عندما تغمر الأمطار البقاع جميعاً، ويُعنى الشعراء بتتبع الأماكن التي صابها مَطَرُ السَّماء وما خلفه من آثار كالسيول العاتية والوديان الهادرة التي تحطُّ الوعول من ذراها، والسَّباع من آجامها، والضُّباب من أنفاقها، ويصفون ما يتركه المطر من نشوة في قلب الإنسان والحيوان والطير وما ينشر على الصحراء العقيم من برود مُنَمَّمة ووُشي عبقرِيٍّ من النُّور والزَّهر والنبات. . وكثيراً ما يُبثُّ الشعراء آمالهم وأشواقهم ورغباتهم في تلقي المطر، ويذكرون انطباعاتهم أمام مشاهد الخير والرحمة، وقد يدعون لأحبابهم بالسُّقيا في ختام وصف المطر، وسأمثل لذلك بقصيدتين: الأولى: قصيدة امرئ القيس المشهورة، قال فيها (١١١):

أَحَارِ تَرَى بَرْقاً كَأَنَّ وَمِيضَهُ	كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحَ رَاهِبٍ	أَهَانَ السَّلِيْطَ فِي الذُّبَالِ الْمُفْتَلِ
قَعَدْتُ لَهُ وَصُحْبَتِي بَيْنَ حَامِرٍ	وَبَيْنَ إِكَامٍ بُعْدَ مَا مُتَأَمَّلِ

(١١١) امرؤ القيس بن حجر الكندي، الديوان، ص ٢٤ وما بعدها.

وَأَضْحَى يَسُحُّ الْمَاءَ عَنْ كُلِّ فَيْقَةٍ
وَتِيَاءَ لَمْ يَتْرَكْ بِهَا جِدْعَ نَخْلَةٍ
كَأَنَّ طَمِيَّةَ الْمُجَيْمِرِ غُدُوَّةً
كَأَنَّ أَبَاناً فِي أَفَانِينَ وَذَقَهُ
وَأَلْقَى بِصَحْرَاءِ الْغَبِيطِ بَعَاغَهُ
كَأَنَّ سَبَاعاً فِيهِ غَرْقَى غُذِيَّةً
عَلَى قَطَنِ بِالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ
وَأَلْقَى بِبَسْيَانٍ مَعَ اللَّيْلِ بَرَكَهُ

والقصيدة الثانية للبيد بن ربيعة العامري ، قال بعد وصف الطيف والرحلة والمرأة

المهاجرة (١١٣) :

يُزْجِي حَبِيًّا إِذَا خَبَا ثَقَبَا
لَيْلَى : مَتَى يَغْتَمِنُ فَقَدْ دَابَا
رَيْطاً وَمَرْبَاعَ غَانِمٍ لَجَبَا
رَةً أَمَسَتْ نِعَاجُهُ عُصْبَا
لِ وَقَضَى بِصَاحَةِ الْأَرْبَا
يَجْلُو التَّلَامِيذُ لَوْلَا قَشْبَا

يَا هَلْ تَرَى الْبَرْقَ بَتْ أَرْقُبُهُ
قَعَدْتُ وَحْدِي لَهُ ، وَقَالَ أَبُو
كَأَنَّ فِيهِ لَمَّا ارْتَفَقْتُ لَهُ
فَجَادَ رَهْوًا إِلَى مَدَاخِلِ فَالْصُّحَا
فَحَدَّرَ الْعُصْمَ مِنْ عَمَايَةِ لِلْسَّهْ
فَالْمَاءُ يَجْلُو مُتُونَهُنَّ كَمَا

(١١٢) الوميض : لمع البرق . الحبي : ما حبا من السحاب ، أي ما عرض لك وارتفع . المكمل : الذي في جوانب السماء كالإكليل . السنّا : الضوء . السليط : الزيت . حامر : موضع . الفَيْقَةُ : ما بين الحلبتين . الكنهل : ما عظم من شجر العضاء . طمية : اسم جبل . المجيمر : أرض لبني فزارة . الجّاد : كساء مُحَطَّط . الودق : المطر . الأفانين : الضروب والأنواع . الغبيط : موضع . البعّاع : الثقل ، ذو العياب . المخول : الكثير المتاع والخدم . العنصل : نبت بري يشبه البصل . قطن : اسم جبل . الشيم : النظر إلى البرق والمطر ليعلم أين هما . الستار ويذبل وبسيان : جبال معروفة . البرك : الصدر . العصم : الأوعال .

(١١٣) لبيد بن ربيعة العامري ، الديوان ، ص ٢٩ - ٣٣ .

لأَقَى الْبَدِيَّ الْكِلابَ فَاعْتَلَجَا مَوْجٌ أَتَيْتَهُمَا لَمَنْ غَلَبَا
فَدَعَدَعَا سُرَّةَ الرِّكَاءِ كَمَا دَعَدَعَ سَاقِي الْأَعَاجِمِ الْغَرَبَا
فَكُلُّ وَادٍ هَدَّتْ حَوَالِبُهُ يَقْدَفُ خُضْرَ الدَّبَاءِ فَالْخُشْبَا
مَالَتْ بِهِ نَحْوَهَا الْجَنُوبُ مَعَا ثَمَازِدُهُتُهُ الشَّيَالُ فَانْقَلَبَا
فَقُلْتُ صَابَ الْأَعْرَاضَ رِيْقُهُ يَسْقِي بِلَادًا قَدْ أَخْلَتْ حَقَبَا
لَتَرَعَ مِنْ نَبْتِهِ أُسَيْمٌ إِذَا أَنْبَتَ حُرَّ الْبُقُولِ وَالْعُشْبَا
وَلِيرَعَهُ قَوْمَهَا فَإِنَّهُمْ مِنْ خَيْرِ حَيٍّ عِلْمَتُهُمْ حَسَبَا
فِي ضَوْءِ النِّصْنِ السَّابِقِينَ يُمْكِنُ أَنْ نَلْحِظَ الْعُنَاصِرَ التَّالِيَةَ فِي وَصْفِ الْمَطَرِ:

(أ) مُنَاجَاةُ الرَّفِيقِ، وَالشُّكْوَى مِنْ الْهَمِّ وَالْغَمِّ، وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْآرَقِ وَالسُّهَادِ وَالتَّوَتُّرِ.
(ب) الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ هُوَ الَّذِي يَتَابِعُ الْمَطَرَ وَيَتَأَمَّلُهُ وَيَقْعُدُ لَهُ، وَيَرَاقِبُهُ، أَوْ هُوَ الَّذِي
يُصَلِّي وَيَتَهَلَّلُ مِنْ أَجْلِ نَزُولِهِ.

(ج) الْحَدِيثُ عَنِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ وَالْبَرْقِ وَالرَّعْدِ . . وَوَصْفُ الْعَاصِفَةِ وَاللَّيْلِ
الْبَهِيمِ . . وَدَائِمًا يَنْزِلُ الْمَطَرُ طُوفَانًا مُدْمِرًا، وَسَيُولًا عَارِمَةً تَقْلَعُ كُلَّ شَيْءٍ، وَتَحُطُّ
كُلَّ شَيْءٍ، وَتَهْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ.

(د) الْمَطَرُ يُسْتَنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ وَلِدَادَةً بَعْدَ أَنْ تُقْلَعَ الرِّيحُ السَّحَابَ، وَهِيَ وَلَادَةُ عَسِيرَةٍ
تَتِمُّ بَعْدَ النَّصْبِ وَالسَّهْرِ وَالْعَذَابِ، أَوْ يُسْتَنْزَلُ دَرًّا وَهَذَا يَعْنِي أُمُومَةَ السَّمَاءِ
لِلْأَرْضِ.

(هـ) وَصْفُ فِعْلِ مَطَرِ السَّمَاءِ بِأَهْلِ الْأَرْضِ، وَهَذَا الْفِعْلُ نَلْحِظُ فِيهِ الرَّحْمَةَ وَالْعَذَابَ،

يُزْجِي: يَسُوقُ. الْحَبِي: السَّحَابُ الْمَرْفُوعُ. ثَقَبَ: أَضَاءَ. يَغْتَمِنُ: يَسْكُنُ. دَابَ: أَكْثَرَ مِنْ
الْمَاءِ. ارْتَفَقَتْ: اتَّكَتَتْ. الرِّيْطُ: الْمَلَاخِفُ. اللَّجْبُ: الْجَيْشُ الظَّافِرُ. الْمَرْبَاعُ: رِبْعُ
الْغَنِيْمَةِ. عُضْبًا: قِطْعًا. الْبَدِيَّ وَالْكِلابَ: وَادِيَانِ. اعْتَلَجَا: اعْتَرَكَا. الْآتِي: السَّيْلُ.
الْغَرَبُ: الْقَدْحُ مِنْ خَشَبٍ. دَعَدَعَ: مَلَأَ. الْحَوَالِبُ: الْأَوْدِيَةُ. الدَّبَاءُ: الْقَرْعُ. ازْدَهَتْ:
اسْتَخَفَّتْهُ. الرِّيْقُ: أَوَّلُ الْمَطَرِ.

أوقل الرُّغْبَةَ والرَّهْبَةَ، والعشق والخوف . فالطيور تُغرد ثملاً نَشْوَى ؛ لكن السُّباع
تَغرق، والضُّباب تهلك، والوعول تتساقط صَرَعى . وقد نحسُّ رغبة الشعراء في
المطر وخوفهم منه، فهو رحيم حبيب يُشفي الكبد المكلومة، ويسقي ديار الحبيبة
الراحلة . . وهو عنيف رهيب يَقْلَعُ وَيَمْحَقُ وَيُهْلِكُ وَيُدَمِّرُ.

(و) التركيز على فكرة النار في وصف المطر، فالبرق مصابيح راهب، أو كما نَوَّرَ
للعجم أَمْرَهُمْ، أو كمصباح بانٍ بأهله، أو كأنه الشُّعل الثاقبة . . وقد نلمح في
هذه الفكرة الرغبة في الطُّهر والقَدَاسة .

انتهى بحمد الله تعالى

مصادر الكتب ومراجعته

(١) الألوسي ، محمود شكري :

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، تحقيق : محمد بهجت الأثري ، المكتبة
الأهلية بمصر ١٩٢٤م .

(٢) إبراهيم عبد الرحمن :

الشعر الجاهلي ، قضاياها الفنية والموضوعية ، مكتبة الشباب ، القاهرة ١٩٧٩م .

(٣) ابن الأجدابي ، أبو إسحاق (ت ٦٥٠هـ) :

الأزمنة والأنواء ، تحقيق : د. عزة حسن ، دار سمير ، دمشق ١٩٦٤م .

(٤) أحمد الحوفي :

(أ) الغزل في العصر الجاهلي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٨م .

(ب) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، دار نهضة مصر بالفجالة ١٩٧٢م .

(ج) أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٩٥٨م .

(٥) أحمد الربيعي :

الرمزية في مقدمة القصيدة ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ١٩٧٣م .

(٦) أحمد بن أبي طاهر :

بلاغات النساء ، طبعة النجف الأشرف ١٣٦١هـ .

(٧) أحمد كمال زكي :

(أ) شعراء السعودية ، مطبعة دار العلوم ، الرياض ١٩٨٣م .

(ب) الأساطير ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٩م .

(ج) دراسات في النقد الأدبي ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٠م .

- (٨) الأزدي، أبوبكر، محمد بن الحسن بن دريد (ت ٣٢١هـ):
وصف المطر والسحاب وما نعتته العرب الرواد من البقاع، حققه: عز الدين
التنوخي، طبعة دمشق ١٩٦٣ م.
- (٩) الأزرقى:
تاريخ مكة، طبعة دار الأندلس، إسبانيا (د . ت).
- (١٠) الأصفهاني، أبو نعيم:
دلائل النبوة، طبعة عالم الكتب بيروت (دون تاريخ).
- (١١) الأصمعي، عبد الملك بن قريب:
الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف
بمصر ١٩٧٦ م.
- (١٢) الأعشى الكبير، ميمون بن قيس:
الديوان، تحقيق: محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، مصر ١٩٥٠ م.
- (١٣) الأعلام الشتتري:
مختار الشعر الجاهلي، نشر: مصطفى السقا، مطبعة البابي الحلبي، مصر
١٩٤٨ م.
- (١٤) امرؤ القيس بن حجر الكندي (ت ٥٤٠هـ):
الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م.
- (١٥) أمين مدني:
التاريخ العربي وبدايته، دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م.
- (١٦) الأنصاري، أبو زيد سعيد بن أوس (ت ٢١٥هـ):
كتاب المطر، دار الثقافة، بيروت (د . ت) وتحقيق: لويس شيخو،
مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٥ م.

(١٧) أوس بن حجر:

الديوان، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت ١٩٦٧ م.

(١٨) ابن بشر:

عنوان المجد في تاريخ نجد، مطبعة وزارة المعارف، الرياض (د. ت).

(١٩) بشر بن أبي خازم الأسدي (ت ٥٩٠ م):

الديوان، تحقيق: عزة حسن، دمشق ١٩٦٠ م.

(٢٠) البيروني:

الآثار الباقية من القرون الخالية، لبيزج ١٩٢٣ م.

(٢١) التبريزي:

(أ) شرح القصائد العشر، مكتبة صبيح، القاهرة ١٣٦٧ هـ.

(ب) شرح المفضليات، تحقيق: علي البجاوي، دار نهضة مصر للطباعة،

القاهرة ١٩٧٧ م.

(٢٢) أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي:

ديوان الحماسة، تعليق: محمد عبد المنعم الخفاجي، القاهرة ١٩٥٥ م.

(٢٣) بنو تميم:

شعر بني تميم في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق: د. عبد الحميد المعيني، نادي

القصيم الأدبي ١٩٨٢ م.

(٢٤) التيفاشي:

سرور النفس بمدارك الحواس الخمس، تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة

العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٠ م.

(٢٥) الثعالبي:

ثمار القلوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر ١٩٦٥ م.

(٢٦) الجاحظ :

- (أ) البرصان والعرجان، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، طبعة الرياض ١٩٨٠م.
(ب) البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر ١٩٦٨م.
(ج) الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، مصر (د . ت).

(٢٧) جرير الخطفي :

الديوان، تحقيق: نعمان محمد أمين، دار المعارف بمصر (د . ت).

(٢٨) جواد علي :

تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبوعات المجمع العلمي العراقي (د . ت).

(٢٩) جورج غير ستر :

الصحراء الكبرى، ترجمة: خيرى حماد، المكتب التجاري، بيروت ١٩٦١م.

(٣٠) جيمس فريزر :

(أ) الغصن الذهبي، الهيئة المصرية العامة ١٩٧١م.

(ب) أدونيس، ترجمة: جبر إبراهيم جبرا، دار الصراع الفكري، بيروت ١٩٥٧م.

(٣١) جيمس ويللارد :

الصحراء الكبرى، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا ١٩٦٧م.

(٣٢) حاتم الطائي :

الديوان، تحقيق: عادل سليمان جمال، مطبعة المدني القاهرة، ١٩٧٥م.

(٣٣) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٦هـ) :

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طبعة مصر ١٢٧٤هـ.

- (٣٤) الحادرة، قطبة بن أوس بن محصن :
- الديوان، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت ١٩٧٣م.
- (٣٥) حسان بن ثابت الأنصاري (ت ٥٤هـ) :
- الديوان، تحقيق: د. سيد حنفي، الهيئة المصرية العامة ١٩٧٤م.
- (٣٦) حسين عطوان :
- مقدمة القصيدة العربية، دار المعارف بمصر ١٩٧٠م.
- (٣٧) خفاف بن ندبة السلمي :
- شعره، تحقيق: نوري القيسي، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٨م.
- (٣٨) ابن خلدون :
- (أ) المقدمة، مطبعة مصطفى محمد، مصر (د. ت).
- (ب) كتاب العبر ديوان المبتدأ والخبر، طبعة القاهرة ١٩٧١م.
- (٣٩) ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) :
- وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨م.
- (٤٠) الخنساء :
- شعرها، تحقيق: أكرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت ١٩٦٣م.
- (٤١) ابن دريد، أبو بكر، محمد بن الحسن الأزدي (ت ٣٢١هـ) :
- كتاب السحاب والغيث وأخبار الرواد وما حمد من الكلام، طبع ضمن مجموعة
حرزة الحاطب وتحفة الطالب، طبعة ليدن ١٨٥٩م.
- (٤٢) أبو دؤاد الإيادي :
- الديوان ضمن كتاب دراسات في الأدب العربي، تحقيق: غوستاف غرنباوم،
ترجمة إحسان عباس، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٩م.
- (٤٣) ديتلف نيلسن :

التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨م
ومطبعة لجنة البيان، القاهرة ١٩٥٨م.

(٤٤) الزبيدي :

تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية بمصر ١٩٤٤م.

(٤٥) زكريا إبراهيم :

مشكلة الفن، مكتبة مصر بالفجالة (د . ت).

(٤٦) زهير بن أبي سلمى :

الديوان، طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤م.

(٤٧) سام و بري أبشتين :

الصحراء، ترجمة: مصطفى بدران، دار المعارف بمصر ١٩٦٦م.

(٤٨) سحيم عبد بني الحسحاس :

الديوان، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية ١٩٦٨م.

(٤٩) سلامة بن جندل :

الديوان، تحقيق: فخر الدين قباوة، طبعة حلب ١٩٦٩م.

(٥٠) ابن سلام الجمحي :

طبقات فحول الشعراء، شرح: محمود شاكر، مطبعة المدني القاهرة (د . ت).

(٥١) سويد بن أبي كاهل الشكري :

الديوان، تحقيق: شاعر العاشور، دار الطباعة الحديثة، البصرة ١٩٧٢م.

(٥٢) ابن سيده :

كتاب المخصص، طبعة المكتب التجاري، بيروت (د . ت).

(٥٣) شريف يوسف :

الكعبات المقدسة عند العرب قبل الإسلام، مجلة المجمع العلمي العراقي،

بغداد مج ٢٩ سنة ١٩٧٨ م.

(٥٤) الشاخب بن ضرار الذبباني :

الديوان، تحقيق : صلاح الدين الهادي ، دار المعارف بمصر ١٩٧٧ م.

(٥٥) شيخ الربوة :

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبعة لبيزج ١٩٢٣ م.

(٥٦) طاش كبري زادة

مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، طبعة الهند (د . ت).

(٥٧) الطبري :

تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف بمصر ١٩٦٧ م.

(٥٨) طرفة بن العبد :

الديوان، تحقيق : لطفي الصقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق

١٩٧٥ م.

(٥٩) الطفيل الغنوي :

الديوان، تحقيق : محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٦٣ م.

(٦٠) طه الهاشمي :

تاريخ الأديان، مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٣ م.

(٦١) عادل جاسم البياتي :

(أ) رمز المرأة في أدب أيام العرب، مجلة آفاق عربية، العدد (١٢) آب ١٩٧٧ م.

(ب) مقدمة القصيدة الجاهلية، مجلة آفاق عربية، العدد (١٢) آب ١٩٧٧ م.

(٦٢) عامر بن الطفيل :

الديوان، تحقيق : كرم البستاني، دار صادر، بيروت ١٩٦٣ م.

(٦٣) عبد الجبار المطليبي :

مواقف في الأدب والنقد، دار الرشيد بغداد، ١٩٨٠.

(٦٤) عبد الحميد زايد:

من أساطير الشرق الأدنى القديم، مجلة عالم الفكر، العدد الثالث، وزارة الإعلام الكويت ١٩٧٥ م.

(٦٥) عبد الرزاق الخشروم:

الغربة في الشعر العربي، طبعة دمشق ١٩٨٢ م.

(٦٦) عبد الكريم النهشل القيرواني:

المتنع في علم الشعروعمله، تحقيق منجي الكعبي، طبعة الدار العربية للكتاب ليبيا، تونس ١٩٧٨ م.

(٦٧) عبد المنعم الزبيدي:

مقدمة لدراسة الشعر الجاهلي، منشورات جامعة قارينوس ليبيا ١٩٧٥ م.

(٦٨) عبده بدوي:

قضايا الأدب واللغة، الكويت ١٩٨١ م.

(٦٩) عبيد بن الأبرص (ت ٦٠٠م):

الديوان، تحقيق: د. حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٧ م.

(٧٠) عروة بن الورد:

الديوان، تحقيق: كرم البستاني وعيسى سابا، دار صادر، بيروت ١٩٦٤ م.

(٧١) عريب بن سعد الكاتب:

كتاب الأنواء، تحقيق: المستشرق: دوزي، طبعة ليدن، بريل ١٨٦١ م.

(٧٢) عزة النص:

المزاج الطبيعي لمنطقة نجد، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد الأول، السنة الأولى ١٩٧٠ م.

(٧٣) علقمة الفحل :

الديوان، تحقيق: لطفي الصقال، دار الكتاب العربي، حلب ١٩٦٩م.

(٧٤) علي البطال :

الصورة الفنية في الشعر العربي، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٠م.

(٧٥) عمرو بن شأس الأسدي :

شعره، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري، طبعة النجف الأشرف، العراق ١٩٨٦م.

(٧٦) عمرو بن قميئة :

الديوان، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، طبعة معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٦٥م.

(٧٧) عمرو بن معديكرب الزبيدي :

شعره، تحقيق: مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٤م.

(٧٨) عنتر بن شداد :

الديوان، تحقيق: عبد المنعم شلي، المكتبة التجارية الكبرى (د. ت) وتحقيق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٧٠م.

(٧٩) غير ستر، جورج :

الصحراء الكبرى، تعريب: خيرى حماد، المكتب التجاري، بيروت ١٩٦٠.

(٨٠) فالتر براونه :

(أ) مشكلات الشعر الجاهلي، مجلة المجلة، مصر، يوليو ١٩٦٣م.

(ب) الوجودية في الشعر الجاهلي، مجلة المعرفة، دمشق ١٩٦٣م.

(٨١) فرانكفورت (هـ) وآخرين :

ما قبل الفلسفة، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، طبعة: مكتبة الحياة، بغداد ١٩٦٠م.

(٨٢) الفرزدق :

الديوان، تحقيق: إسماعيل الصاوي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر (د . ت).

(٨٣) ابن قتيبة :

(أ) كتاب الأنواء في مواسم العرب، طبعة حيدرآباد، الهند ١٩٥٦م.

(ب) عيون الأخبار، دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٤٣هـ.

(ج) كتاب المعارف، تحقيق: ثروة عكاشة، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

(٨٤) القزويني، زكريا بن محمد :

آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م.

(٨٥) قطب الدين الحنفي :

الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، المطبعة العثمانية، مصر ١٣٠٣هـ.

(٨٦) قيس بن الخطيم (ت ٦١٢هـ) :

الديوان، تحقيق: ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت ١٩٦٢م.

(٨٧) د. قيس النوري :

الأساطير وعلم الأجناس، دار الكتب، الموصل ١٩٨١م.

(٨٨) الكتبي :

فوات الوفيات، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٣م.

(٨٩) ابن كثير، الحافظ، أبو الفدا إسماعيل :

(أ) البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م.

(ب) تفسير القرآن الكريم، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة (د . ت).

(٩٠) ليبد بن ربيعة :

الديوان، تحقيق د. إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت ١٩٦٢م.

(٩١) المتلمس الضبعي، جرير بن عبد المسيح :

الديوان، تحقيق: كارل فولرس، طبعة ليبزج ١٩٠٣م.

(٩٢) محمد حسن عبد الله :

مقدمة في النقد الأدبي، الكويت ١٩٧٥م.

(٩٣) محمد عبد الله دراز :

الدين، طبعة مصر ١٩٥٢م.

(٩٤) محمد غنيمي هلال :

(أ) في النقد التطبيقي والمقارن، دار نهضة مصر (د . ت).

(ب) الوقوف على الأطلال، مهرجان الشعر الثالث، دمشق ١٩٦١م.

(٩٥) محمد نعيان الجارم :

أديان العرب في الجاهلية، مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٢٣م.

(٩٦) محمد النويهي :

الشعر الجاهلي : منهج في دراسته وتقويمه، الدار القومية بمصر (د . ت).

(٩٧) محمود الجادر :

قراءة معاصرة في مقدمة القصيدة الجاهلية، مجلة الثقافة، دمشق ١٩٨٠م.

(٩٨) المرزوقي، أبو علي (ت ٤٢١هـ) :

كتاب الأزمنة والأمكنة، طبعة حيدرآباد، الهند ١٣٣٢هـ.

(٩٩) مطاع صفدي وإيليا حاوي :

موسوعة الشعر العربي، شركة خياط، بيروت ١٩٧٤م.

(١٠٠) مصطفى الجوزو:

من الأساطير العربية والخرافات، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٧ م.

(١٠١) مصطفى ناصف:

(أ) قراءة ثانية لشعرنا القديم، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب (د . ت)

(ب) دراسة الأدب العربي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة (د . ت)

(١٠٢) ابن منظور، جمال الدين، محمد بن جلال الدين الخزرجي (ت ٧١١هـ):

(أ) نثار الأزهار في الليل والنهار، المطبعة العثمانية، القاهرة (د . ت).

(ب) اللسان.

(١٠٣) الميداني:

مجمع الأمثال، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦١ م.

(١٠٤) النابغة الذبياني:

الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٧٧ م.

(١٠٥) ناصر الدين الأسد:

مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م.

(١٠٦) ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت ٣٨٥هـ):

الفهرست، مطبعة دانشگاه، طهران (د . ت).

(١٠٧) نصرت عبد الرحمن:

(أ) الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، مكتبة الأقصى عمان ١٩٧٦ م

(ب) الواقع والأسطورة في شعر أبي ذؤيب الهذلي، دار الفكر، عمان

١٩٨٥ م.

(ج) المطر: مواضع وروده في جانب من الشعر الجاهلي، مجلة دراسات،

الجامعة الأردنية مج ٦ ع ٢، ١٩٧٩ م.

(١٠٨) نوري القيسي :

الطبعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد، بيروت ١٩٧٠ م.

(١٠٩) النويري، شهاب الدين (ت ٧٣٣هـ) :

نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية ١٩٣٢ .

(١١٠) هاووزر، آرنولد :

فلسفة تاريخ الفن، ترجمة: رمزي عبده جرجس، مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٨ م.

(١١١) الهذليون :

شرح أشعار الهذليين، تحقيق، عبد الستار فراج، القاهرة ١٩٦٥ م.

(١١٢) الهمدانيون :

شعر همدان وأخبارها، جمع وتحقيق: حسن أبو ياسين، دار العلوم، الرياض
١٩٨٣ م.

(١١٣) وهب رومية :

الرحلة في القصيدة الجاهلية، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، بيروت ١٩٧٥ م.

(١١٤) وهب بن منبه :

كتاب التيجان في ملوك حمير، طبعة وزارة المعارف العثمانية، الهند ١٣٤٧هـ.

(١١٥) ياقوت الحموي :

معجم البلدان، دار صادر، بيروت ١٩٥٥ م.

(١١٦) يوسف خليف :

الشعر الجاهلي بين القبلية والفردية، مجلة المجلة، العدد (١٦) إبريل ١٩٥٨ م.

(١١٧) يوسف اليوسف :

مقالات في الشعر الجاهلي، طبعة وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٥ م.

فهرس الموضوعات

مقدمة ٥

الفصل الأول

المطر في الشعر الجاهلي ٩
أهميته، المطر في القرآن الكريم، المطر والجذب، الهاجرة والشتاء الجديب،
الدلالة اللغوية للمطر، استطلاع المطر، طقوس الاستمطار، صورة المطر في الفكر
الجاهلي.

الفصل الثاني

الاستسقاء في الشعر الجاهلي ٥٥
الاستسقاء بالنجوم، التحكم في المطر بوساطة السحر، حجر المطر، الفرس
والمطر، الاستحمام والمطر، غسل الثياب والمطر، طقوس أخرى، بيوت الله والمطر،
الاستسقاء بالأنبياء والأولياء والقديسين، الاستسقاء بالموتى، صانع المطر، الشعراء
والمطر، النار السحرية والمطر، ثور الوحش والمطر.

الفصل الثالث

صورة المطر في الوقفة الطليئة الجاهلية ١٠٣
التفسير الواقعي، التفسير النفسي، التفسير الفلسفي، التفسير الرمزي،
التفسير النبوي، فكرة المطر في الوقفة الطليئة.

الفصل الرابع

قصة ثور الوحش ودلالاتها الرمزية في الشعر الجاهلي ١٤٥

الفصل الخامس

مواضع ورود المطر الأخرى في الشعر الجاهلي ١٧٥
المطر والمرأة، المطر والضيفان، المطر والجيش، المطر والناقة، المطر والفرس، المطر
وحمار الوحش، المطر والظليم، المطر والأوابد الأخرى، موضع المطر الأساسي.
مصادر الكتاب ومراجعته ٢١٧

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com